مكتبة ياسمين

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الكاتب: غييرمو دِل تورو - كورنيليا فونكه

عنوان الكتاب: متاهة پان: متاهة الفاون

ترجمة: مارك جمال

العنوان باللغة الأصلية: Pan's Labyrinth: The Labyrinth of the Faun

الكاتب: Cornelia Funke - Guillermo del Toro

لوحات ورسومات: Sarah Coleman T/A Inkymole

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-775-77-8

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2023

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

Copyright © 2019 by Guillermo del Toro

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

إلى ألفونسو فوينتيس ورجاله، أولئك الذين أنقذوا بيتي وأشجاري وحميري وذكرياتي ودفاتري من حريق فُوزلي.

«ك. ف.»

إلى «ك.»، حلّ الألغاز كلها، وطريق الخروج من المتاهة.

«ع. د. ت.»

مكتبة ياسين

مُقدِّمة

يقال إن أميرة قد عاشت في زمن بعيد، بعيد، بمملكة تحت الأرض، لا وجود فيها للأكاذيب ولا الآلام، حيث حلمت الأميرة بعالم البشر. حلمت الأميرة موانا بسماء زرقاء مثالية وبحر لامتناهٍ من السحب؛ حلمت بالشمس والعشب ومذاق المطر... وهكذا ولّت الأميرة هاربةً من حزاسها ذات يوم، وجاءت إلى عالمنا. لم تلبث الشمس أن محت ذكرياتها كلها، فنسيت من كانت، ومن أين جاءت. هامت في الأرض وهي تعاني البرد والمرض والألم. وأخيرًا، ماتت الأميرة.

ولكن أباها، الملك، لم يتخلّ عن البحث. إذ كان يعرف أن لموانا روحًا خالدة، ويتمنّى أن تعود إليه ذات يوم.

في جسد غير الجسد، وزمن غير الزمن. وربما في مكان غير المكان.

سوف ينتظر.

حتى النَّفَس الأخير.

حتى آخر الزمان.

مكتبة ياسين

1

الغابة والجنيّة

في مرة من المرات، كانت هناك غابة شمالي إسبانيا، غابة موغلة في القدم، إلى الحدّ الذي جعلها قادرة على أن تسرد قصصًا جرت ونسيها البشر منذ أمدٍ بعيد. كانت الأشجار ضاربةً في أعماق الأرض المفروشة بالعشب حتى إنها شذّت عظام الموتى بعضها إلى بعضٍ بجذورها، في حين امتدّت فروعها إلى النجوم.

«كم من أشياء كثيرة قد فُقِدَت!»، كانت أوراق الأشجار تهمس بينما أقبلت ثلاث سيارات سوداء عبر الطريق غير المرصوفة التي تخلّلت نباتات السرخس والأعشاب.

«ولكن كل ما فُقِد قد يُعثَر عليه مرة أخرى»، همست الأشجار.

كان ذلك في عام 1944. أما الفتاة الجالسة في إحدى السيارات، إلى جوار أمّها الحبلى، فلم تفهم شيئًا مما همست به الأشجار. كانت تُدعى أوفيليا، ولقد عرفت كل شيء عن ألم الفقد، مع أنها لم تتعدّ الثالثة عشرة من العمر. قضى أبوها نحبه منذ عام واحد، وافتقدته أوفيليا بشدّة، إلى حدٍّ جعلها تحسّ بقلبها وكأنه صندوق خاوٍ في بعض الأوقات، صندوق خلا من كل شيء إلّا صدى الألم الذي استحوذ عليها. كثيرًا ما تساءلت إن كانت أمّها تحسّ بالشيء نفسه، فلم يمكنها العثور على جواب في وجه أمّها الشاحب.

- «لك بياض الثلج، وحمرة الدم، وسواد الفحم»، كان والد أوفيليا يقول ناظرًا إلى أمّها، بصوتٍ ناعم يشي بالرقّة. «كم تشبهينها يا أوفيليا!». الفقد.

مكتبة ياسين

على مدى ساعات، مضوا بالسيارة مبتعدين أكثر فأكثر عن كل ما تعرفه أوفيليا، فتوغّلين أعمق فأعمق في تلك الغابة التي لا تنتهي أبدًا، لمقابلة الرجل الذي اختارته أمّها حتى يكون والد أوفيليا الجديد. أطلقت عليه أوفيليا «الذئب»، وأبت أن تفكّر فيه. ولكن حتى الأشجار بدا أنها تهمس باسمه.

لم يمكنها أن تأخذ من البيت إلّا قطعة وحيدة: بعض كتبها. أطبقت أوفيليا أصابعها بإحكام على الكتاب الذي استقرّ فوق ساقيها، ومضت تربّت على الغلاف. فتحت الكتاب، فتألّقت الصفحات البيضاء وسط الظلال التي حفلت بها الغابة، وقدّمت إليها الكلماتُ ملاذًا وراحةً. تراءت الحروف وكأنها آثار أقدام على الثلوج، في رقعة بيضاء رحيبة لم يظلها الألم، ولم تشبها الذكريات التي كانت أشدّ دكنةً من أن تحتفظ بها، وأكثر عذوبة من أن تتخلّى عنها.

- «لماذا جئت بكل هذه الكتب يا أوفيليا؟ سنكون في الريف!». أما الرحلة بالسيارة، فلقد جعلت وجه أمّها أكثر وأكثر شحوبًا... الرحلة بالسيارة والجنين الذي حملته في بطنها معًا. أخذت الكتاب من بين يدي أوفيليا، وإذا الكلمات المعزِّية كلها تسكت عن الكلام.

- «لقد كبرت على قراءة الحكايات الخرافية يا أوفيليا! يجب عليك أن تبدئي في النظر إلى العالم!».

جاء صوت أمّها كرنين الجرس المكسور. لم تذكر أوفيليا أنها قد سمعت صوت أمّها على تلك الحال قطّ عندما كان والدها لا يزال على قيد الحياة.

- «أوه، سوف نتأخّر!». تنهّدت أمّها وهي تضغط بالمنديل على شفتيها. «أما هو، فلن يروقه ذلك».

هو...

مكتبة ياسين

تأوّهت، فمالت أوفيليا إلى الأمام آخذةً بكتف السائق.

- «توقّف!»، قالت له. «أوقف السيارة. ألا ترى؟ أمّي تحسّ بالغثيان».

أوقف السائق مُحرّك السيارة مُزمجرًا. ذئاب... إن أولئك الجنود المسافرين برفقتهما ذئاب، من أكلة البشر. قالت أمُّها إن الحكايات الخرافية لا تمتُّ إلى العالم بصلةٍ، ولكن أوفيليا أعلم. لقد علّمتها الحكاياتُ كل شيء عن العالم.

ترجّلت من السيارة بينما كانت أمُّها تتعثّر على جانب الطريق وتفرغ ما في جوفها على نباتات السرخس التي نمت كثيفةً وسط الأشجار وكأنها محيط من السعف الذي يكسوه الريش، محيط تنبثق منه الجذوع ذات اللحاء الرمادي وكأنها كائنات تمدُّ أيديها من عالَمٍ سفلي غارق.

توقّفت السيارتان الأخريان بدورهما، وإذا الغابة تعجُّ بالثياب العسكرية الرمادية. لم تحبُهم الأشجار، استطاعت أوفيليا أن تشعر بذلك. أقبل سيزّانو، الضابط المسؤول، حتى يتفقّد الأمْر. كان رجلًا فارع القوام، ضخم البنية، يتحدّث بصوت مرتفع جدًا، ويرتدي ثيابًا عسكرية أشبه بالزيّ التنكّري المسرحي. بصوتها الذي جاء كرنين الجرس المكسور، طلبت منه أمُّها ماءً، بينما سارت أوفيليا قليلًا في الدرب غير المرصوف.

«ماء»، همست الأشجار. **«أرض. شمس»**.

لامست أفرع السرخس ثوب أوفيليا وكأنها أصابع خضراء. وحين وطئت حجرًا بقدمها، خفضت أوفيليا عينيها. كان الحجر رماديًا كثياب الجنود، استقرّ على الطريق وكأنما قد فقده أحدهم هناك. ومن ورائها مضت أمُّها تتقيّأ ثانيةً. لماذا تصاب

مكتبة ياسين

النساء بالغثيان متى جئن بالأطفال إلى هذا العالم؟

انحنت أوفيليا وأحكمت أصابعها على الحجر الذي غطّاه الزمن بالعشب، ولكنها رأته أملس ناعمًا حين أزالت عنه الأعشاب. ورأت أن أحدهم قد نقش عينًا على الحجر.

عينًا بشرية.

تلفّتت أوفيليا حولها.

لم تر إلّا ثلاثة أعمدة حجرية متآكلة، تكاد تكون خفية عن الأنظار وسط السراخس المرتفعة. كانت الأعمدة منحوتة من أحجار رمادية تكسوها نقوش الدوائر ذات المركز الواحد، بينما تراءى على العمود الأوسط وجهٌ عتيق مُتآكل يحدّق إلى الغابة. لم تقوَ أوفيليا على المقاومة، فحادت عن الطريق سائرةً إليه، وإن بلّل الندى حذاءها بعد خطوات قليلة، كما علقت الأشواك بثوبها.

كانت إحدى عينَي الوجه مفقودة. وكأنها أحجية تنقصها قطعة واحدة، في انتظار أن تُحلّ.

أطبقت أوفيليا قبضتها على العين الحجرية واقتربت.

تراءت في الفم الفاغر أسنانٌ مُتآكِلة، أسفل الأنف المنحوت بخطوط مستقيمة على السطح الرمادي. وإذا بجسد مُجنّح رفيع كالغصن يتلوّى بين الأسنان، شاهرًا في وجهها مجسّاته الطويلة المرتعشة، فتراجعت أوفيليا تتعثّر في خطاها. برزت سيقان خليقة بالحشرات من فم الوجه المنحوت، أما الكائنة التي كانت أكبر من يد أوفيليا حجمًا فسارعت إلى تسلّق العمود. ما كادت تبلغ القمة حتى رفعت ساقيها الأماميتين الهزيلتين، وأخذت تشير إلى أوفيليا، ما جعلها تبتسم، فبدا أنها لم تبتسم منذ أمدٍ بعيد جدًا، ولم تعُد شفتاها تألفان الابتسام.

مكتبة ياسين

- «من أنت؟»، همست.

لوّحت لها الكائنة بساقيها الأماميتين مرةً أخرى، وأحدثت بضع طقطقات منغومة. ربما كانت جُدجُدًا. أهكذا تبدو الجداجد؟ أم تراها يعسوبًا؟ لم تكُن أوفيليا مُتأكّدة، وهي التي نشأت في المدينة، بين جدران مصنوعة من أحجار لا عيون لها ولا وجوه. ولا أفواه فاغرة.

- «أوفيليا!».

فردت الكائنة جناحيها، وحلّقت بعيدًا، في حين تتبّعتها بعينيها أوفيليا، التي وقفت أمّها في الطريق، على بعد خطوات قليلة، والضابط سيزانو إلى جوارها.

- «انظري إلى حذائك!»، وبّختها أمها بذلك التسليم الرقيق الذي بات صوتها يوحي به في كثير من الأحيان.

خفضت أوفيليا عينيها. كان حذاؤها مُبلّلًا، يكسوه الوحل، ولكنها ما زالت تحسّ بالابتسامة على شفتيها.

- «أعتقد بأنني قد رأيتُ جنيّة!»، قالت. أجل. إن تلك الكائنة جنيّة. أوفيليا على يقين من ذلك.

ولكن أمّها لم تنصت إليها. كانت تُدعى كارمن كاردوسو، وتبلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا. صارت أرملة، ولم تعُد تذكر ما الذي يشعر به المرء متى نظر إلى شيء من دون أن يزدريه، من دون أن يخاف منه. لم تر إلّا عالمًا أخذ منها ما تحبّ وسحقه بأسنانه حتى صار ترابًا. ومع أن كارمن كاردوسو قد أحبّت ابنتها، أحبّتها كثيرًا، فلقد تزوّجت مرةً أخرى. كان ذلك العالم يحكمه الرجال –الأمر الذي ما زالت صغيرتها لم تفهمه بعد– ولذا لا يستطيع

مكتبة ياسين

أن يحافظ عليهما إلّا رجل. حتى أم أوفيليا كانت تؤمن بالحكايات الخرافية، وإن لم تعرف ذلك. آمنت كارمن كاردوسو بأخطر الحكايات كلها: حكاية الأمير الذي سوف ينقذها.

كانت الكائنة المجنّحة التي ترقّبت أوفيليا في فم العمود الفاغر على علمٍ بكل هذا. عرفت أشياء كثيرة، ولكنها لم تكُن جنيّة، أو على الأقل لم تكُن جنيّة بالمعنى الذي يروقنا التفكير به في الجنيات. وحده سيّدها عرف اسمها الحقيقي، فأن تعرف الاسم في «مملكة السّخر» يعني أن تملك الكائن الذي يحمل ذلك الاسم.

من مكانها على فرع شجرة التنّوب، مضت الكائنة تراقب أوفيليا وأمّها وهما عائدتان إلى السيارة لاستكمال الرحلة. لقد ترقّبت الجنيّةُ هذه الفتاة زمنًا طويلًا: هذه الفتاة التي فقدت الكثير، ويجب عليها أن تفقد أكثر كثيرًا لتجد ما يحقُّ لها. لن تسهُل مساعدتها، ولكن تلك هي المهمة التي كلّف بها الجنية سيّدها، ذلك الذي لا يتهاون متى لم تُنفّذ أوامره. أوه، كلّا، سيّدها لا يتهاون.

توغّلت السيارات في الغابة أعمق فأعمق، وعلى متن إحداها كانت الفتاة وأمّها والطفل الذي لم يُولد بعد. أما الكائنة التي سمّتها أوفيليا «جنيّة»، فلقد فردت جناحيها الخليقيْن بالحشرات، وضمّت سيقانها الست الهزيلة، ومضت في أثر القافلة.

مكتبة ياسين

2

كل الأشكال التي يتّخذها الشرّ

قلّما يتّخذ الشرّ لنفسه شكلًا في الحال. بل إنه، في كثير من الأحيان، يكاد لا يتعدّى همسةً في أول الأمر. لمحة. خيانة. غير أنه يتضخّم ضاربًا بجذوره، وهو لا يزال خفيًا عن الأعين، غير ملحوظ. وحدها الحكايات الخرافية تضفي على الشرّ شكلًا يليق به. الذئاب الضخمة الخبيثة، والملوك الأشرار، والأرواح الشريرة، والشياطين...

عرفت أوفيليا أن ذلك الرجل -الذي قريبًا يصبح لزامًا عليها أن تناديه «أبي»- شريرٌ. كانت له ابتسامة السايكلوب أوخانكانو، وتسكن في عينيه الداكنتين قسوةُ الوحشين كويغلي ونوبيرو(1)، تلك الكائنات التي قابلتها في كتابها، كتاب الحكايات الخرافية. ولكن أمّها لم تر شكله الحقيقي، فكثيرًا ما يعمى البشر متى كبروا في العمر. ربما لم تلحظ كارمن كاردوسو ابتسامة الذئب لأن كابتن بيدال كان وسيمًا، ولأنه يرتدي الزيّ العسكري الذي لا تشوبه شائبة وينتعل البيادة ويلبس القفاز طوال الوقت. ربما حسبت أمّها تعطّشه إلى الدماء سطوةً، وحسبت وحشيته قوةً، لأنها كانت تتوق بشدّة إلى الحماية.

نظر كابتن بيدال إلى ساعة جيبه. وعلى الرغم من الشرخ الذي تخلّل الوجه الزجاجي، فعقارب الساعة ما زالت تشير إلى الوقت، وهكذا أشارت العقارب إلى تأخُّر القافلة.

- «خمس عشرة دقيقة»، غمغم بيدال، الذي كان دقيقًا في مواعيده دائمًا، كباقي الوحوش، كالموت.

أجل، كان الوقت متأخّرًا، كما خشيت كارمن، حين

مكتبة ياسين

وصلوا أخيرًا إلى الطاحونة العتيقة التي اختارها بيدال واتّخذها مقرًا للقيادة. كره بيدال الغابة. وكره كل الأشياء العصيّة على الانتظام، مع الأخذ في الحسبان أن الأشجار كانت على أتم استعدادٍ لإخفاء الرجال الذين جاء بيدال حتى يتصيّدهم، أولئك الرجال الذين حاربوا قلب الظلمة التي كان بيدال يخدمها ويعظّمها، فجاء إلى الغابة العتيقة حتى يكسرهم. أوه، أجل، لقد ولع والد أوفيليا الجديد بكسر عظام كل أولئك الذين يعدّهم من الضعفاء، كما ولع بسفك دمائهم وبفرض نظام جديد على عالمهم الفوضوي التعيس.

حيًا القافلة. باسمًا.

ولكن أوفيليا رأت الاحتقار في عينيه وهو يرحّب بهما في الباحة التي يكسوها الغبار، هناك حيث كان القرويون يحضرون من القرى المجاورة، ويسلّمون غلّتهم إلى الطحّان، في يومٍ من الأيام. أما أمّها، فابتسمت للذئب سامحةً له بأن يلمس بطنها المنتفخ الذي كان يحمل ابنه. بل إنها رضخت حين أمرها بالجلوس على كرسي مُتحرّك وكأنها دمية مُحطّمة. راقبت أوفيليا الأمر برمّته من مقعد السيارة الخلفي، وهي تزدري احتمال أن تمدّ يدها إلى الذئب كما طلبت منها أمّها أن تفعل. ولكنها ترجّلت عن السيارة أخيرًا، لئلّا تترك أمّها وحيدةً معه، وضمّت الكتب إلى صدرها كما لو كانت درعًا من الأوراق والكلمات.

- «أوفيليا». طحن الذئب اسمها بين شفتيه الرفيعتين حتى تركه مُحطّمًا مثل أمّها، ومضى يحدّق إلى يدها اليسرى الممدودة.

- «إنها اليد الأخرى يا أوفيليا»، قال بنعومة. «تذكّري».

كان في يديه قفاز من الجلد الأسود، أحدث صريرًا

مكتبة ياسين

عندما ضمّ كابتن بيدال يد أوفيليا بقبضة عنيفة كشراك الصيّاد. ثم أولاها ظهره، وكأنه قد نسي أمرها.

- «مرثيديس!»، نادى امرأةٌ كانت تساعد الجنود في إفراغ حمولة السيارات. «أحضري أمتعتهما!».

كانت مرثيديس هيفاء، شاحبة. لها شعر فاحم، وعينان سوداوان صافيتان. فكّرت أوفيليا أنها تبدو كأميرة تتظاهر بأنها ابنة قرويين. أو لعلّها ساحرة. ولكن أوفيليا لم تكن متأكّدة إلى أي صنفٍ من الساحرات تنتمي، الطيب أم الشرير.

حملت مرثيديس والرجال حقائب أمّها إلى بيت الطاحونة، التي فكّرت أوفيليا أنها تبدو ضائعة، حزينة، وكأنها صارت تحنُّ إلى كونها طاحونة تطحن الغلّة الطازجة، الآن وقد اجتاحها الجنود المتزاحمون كالجراد حول جدرانها الحجرية الفتآكِلة. انتشرت خيامهم وشاحناتهم في كل أرجاء المكان، فملأت الباحة الواسعة التي يحيط بها الإصطبل ومخزن الغلال والطاحونة نفسها.

ثياب عسكرية رمادية، وبيت حزين عتيق، وغابة ملأى بالظلال... شعرت أوفيليا بحنين شديد إلى البيت، حتى إنها لم تعد قادرة على التنفُّس إلّا بمشقة. ولكن لا بيت لها من دون أبيها. أحسّت بالدموع تطفر من عينيْها. وفجأةً لمحت جناحين وسط جوالات مُكدّسة على بعد خطوات، جناحين ينعكس عليهما ضوء الشمس وكأنهما من زجاج رقيق كالورق.

إنها الجنيّة.

نسيت أوفيليا حزنها، فركضت إليها، وإذا الجنيّة تنطلق مباشرةً إلى الأشجار القائمة خلف الطاحونة. انطلقت الكائنة الصغيرة بسرعة بالغة، حتى إن

مكتبة ياسين

أوفيليا لم تلبث أن تعثرت في خطواتها وهي تلاحق الجنيّة، وأسقطت كتبها جميعًا. ولكن بينما راحت أوفيليا تلملمها، وتمسح الغبار عن أغلفتها، رأت الجنيّة تنتظرها وقد تعلّقت بلحاء شجرة قريبة.

كانت في انتظارها، أوه، أجل. يجب عليها الحرص على أن تتبعها الفتاة.

ولكن مهلًا. كلّا! لقد توقّفت مرة أخرى.

أخذت أوفيليا تحدّق إلى قوس حجري هائل الضخامة ظهر وسط الأشجار، قوس يصل بين جدارين كلاهما عتيق، ويتوسّطه رأس ذو قرنين، يحدّق بعينيه الخاويتين وفمه الفاغر، وكأنه يحاول أن يبتلع العالم. بدا وكأن نظرة هاتين العينين تجعل كل شيء يتلاشى: الطاحونة، والجنود، والذئب، وحتى أمّ أوفيليا. تراءى وكأنما الجدران المتداعية تقول: **«تعالي!»**. استطاعت أوفيليا أن ترى حروفًا منحوتة باهتة تحت الرأس، ولكنها لم تعرف لها معنى.

جاءت الكلمات كما يلي:

«In consiliis nostris fatum nostrum est».

«أقدارنا تكمن في خياراتنا».

كانت الجنيّة قد اختفت، وألقى القوس على بشرة أوفيليا ظلًا باردًا حين مرّت من خلاله. **«تراجعي!»**، حذّرها شيءٌ في دخيلة نفسها. غير أنها لم تتراجع. يحسن بالمرء الإنصات أحيانًا، ولا يحسن به الإنصات أحيانًا. على كل حال، لم تتأكّد أوفيليا إن كان لديها خيار. سارت قدماها وحدهما. أما الدرب الذي انشقّ في ما وراء القوس، فأخذ يضيق بعد خطوات قليلة حتى صار في مقدور أوفيليا أن تلامس الجدارين اللذين امتدّا على جانبيها بفجوّد

مكتبة ياسين

أن تفرد ذراعيها. مزّرت يديها على الأحجار المتآكلة وهي ماضية في سيرها. كانت في غاية البرودة على الرغم من قيظ النهار. قطعت بضع خطوات أخرى، فوصلت إلى أحد الأركان. وهناك انشقّ أمامها دربٌ آخر مُنعطفًا إلى اليسار، فإلى اليمين، صوب ركنٍ آخر.

- «إنها متاهة».

التفتت أوفيليا.

كانت مرثيديس تقف خلفها، وتراءى الوشاح الذي انسدل على كتفَيها كما لو أنها قد نسجته بأوراق أشجارٍ من الصوف. لو كانت ساحرة، فهي ساحرة جميلة، وليست عجوزًا طاعنة كما تبدو الساحرات في كتب أوفيليا في أكثر الأحوال. ولكن أوفيليا عرفت من الحكايات أن الساحرات لا يُظهِرن وجوههن الحقيقية في كثير من الأوقات.

- «إنه مُجزّد كوم من الأحجار العتيقة»، قالت مرثيديس. «عتيقة للغاية. أقدم من الطاحونة. إن تلك الجدران هناك منذ الأزل، بل إنها سبقَت الطاحونة بأمدٍ طويل. لا يجب عليكِ أن تحضري إلى هنا، فربما تهتِ. لقد حدث ذلك من قبل. إن شئتِ سماع القصة، فسوف أخبرك بها ذات يوم».

- «مرثيديس! الكابتن في حاجة إليك!»، أمرها جنديٌ بصوت غليظ من خلف الطاحونة.

- «أنا آتية!»، أجابت مرثيديس.

ابتسمت لأوفيليا. كانت في ابتسامتها أسرارٌ، ولكن أوفيليا شعرت نحوها بإعجاب. إعجاب جارف.

- «كما سمعت، والدك في حاجة إليّ». بدأت مرثيديس في السير عائدةً إلى القوس.

- «ليس والدي!». أجابتها أوفيليا. «**ليس** والدي!».

مكتبة ياسين

تمهّلت مرثيديس في سيرها.

بينما ركضت أوفيليا حتى صارت إلى جوارها. عبرتا القوس معًا تاركتين الأحجار الباردة والوجه ذا القرنين والعينين الخاويتين وراءهما.

- «كان أبي خياطًا»، قالت أوفيليا. «سقط قتيلًا في الحرب».

ومرةً أخرى، جرت الدموع. لطالما طفرت الدموع من عينيها كلّما تحدّثت أوفيليا عنه، رغمًا عنها.

- «هو من صنع ثوبي والبلوزة التي ترتديها أمي. وصنع أجمل الثياب. أجمل حتى مِن تلك التي ترتديها الأميرات في كتبي! كابتن بيدال **ليس** أبي».

- «لقد أوضحتِ هذا تمام الوضوح»، قالت مرثيديس برقّة، وهي تلفُّ كتفي أوفيليا بذراعها. «والآن تعالي، فسآخذكِ إلى أمّكِ. أنا متأكّدة أنها تبحث عنكِ بالفعل».

أحسّت بذراعيها دافئتين. قويتين.

- «أليست أمّي جميلة؟»، سألت أوفيليا. «إنه الجنين هو الذي يجعلها تصاب بالغثيان. ألديكِ أخ؟».

- «نعم». أجابت مِرثيديس. «سترين أنكِ سوف تحبّين أخاكِ الصغير. كثيرًا. رغمًا عنكِ».

ابتسمت مرة أخرى. بينما تجلّى في عينيها حزنٌ. رأته أوفيليا. وبدا على مرثيديس أنها هي أيضًا تعرف ما فقدان الأشياء.

راقبتهما الجنيّة جالسةً فوق القوس الحجري وهما تعودان أدراجهما إلى الطاحونة سيرًا على الأقدام: المرأة والفتاة، الربيع والصيف، جنبًا إلى جنب.

ستعود الفتاة.

وستحرص الجنيّة على ذلك.

مكتبة ياسين

في القريب العاجل.
في القريب العاجل، كما يتمنّى سيّدها.

مكتبة ياسين

3

مُجرّد فأر

أجل، كان لمِرثيديس شقيق: پيدرو، واحد من الرجال المختبئين في الغابة، من الماكي(2)، كما أطلقوا على أنفسهم، مقاتلي المقاومة، المختبئين من الجنود الذين كانت مرثيديس تطهو وتنظّف من أجلهم.

كان كابتن بيدال وضبّاطه يخطّطون لاصطياد أولئك الرجال حين أقبلت مِرثيديس إلى الداخل وهي تحمل الخبز والجبن والنبيذ كما أمر الكابتن. في وقتٍ من الأوقات، كانت المائدة التي بسطوا عليها خارطتهم تُستخدم لتقديم الطعام إلى الطحّان وأسرته. أما الآن، فما عادت تقدّم سوى الموت. الموت والخوف.

على الجدران المُكلّسة والوجوه المُكِبّة على الخارطة، رسمت ألسنةُ اللهب المتراقصة في المدفأة ظلالَ سكاكين وبنادق. وضعت مِرثيديس الصينية ثم ألقت نظرة لا تثير الارتياب على مواقع الجيش التي تحمل علامات.

- «عناصر حرب العصابات يلزمون مواقعهم في الغابة، فهناك يصعب اقتفاء أثرهم». جاء صوت بيدال خاليًا من التعابير مثل وجهه. «أولئك الحثالة يعرفون هذه الأرض أفضل مما نعرفها بكثير. ولذلك سوف نسدُّ مداخل الغابة كلها. هنا. وهنا أيضًا». وجّه إصبعه التي يكسوها القفاز الأسود إلى الخارطة وكأنها قذيفة.

«انتبهي يا مرثيديس، وأخبري أخاك بما يخطّطون، وإلّا مات في غضون أسبوع».

- «الطعام، والدواء، سوف نختزن كل شيء. هنا».

مكتبة ياسمين

أشار بيدال إلى النقطة التي تشير إلى الطاحونة. «نحن في حاجة إلى أن نرغمهم على الخروج من التلال. وهكذا يأتون إلينا».

«هنا يا مِرثيديس. سوف يختزنون كل شيء هنا!».

تمهّلت وهي تضع الطعام على المائدة، سعيدة لأنها كانت خفية عن أنظارهم تمامًا، فهي لا تعدو أن تكون خادمة، جزءًا من الحجرة، شأنها شأن المقاعد والأحطاب.

- «سوف ننصّب ثلاث قواعد عسكرية جديدة. هنا، وهنا، وهنا».

وضع بيدال علامات برونزية على الخارطة. بينما لم ترفع مِرثيديس عينيْها عن أصابعه التي يكسوها القفاز. وإذا هي: عيون وآذان الأرانب التي يسعون إلى اصطيادها، صامتة خفية كالفأر.

- «مِرثيديس!»

نسيت أن تلتقط أنفاسها حين أمسك القفاز الأسود بكتفها.

ضاقت عينا بيدال ارتيابًا. **«لطالما كان مرتابًا يا مِرثيديس»**، فكّرت، وهي تهدّئ قلبها الذي تسارعت خفقاته. يروقه أن يشاهد كيف ترسم نظرته الخوف على الوجوه، ولكنها قد خاضت هذه اللعبة كثيرًا، بالقدر الذي يجعلها لا تسمح بكشف أمرها. إنها مُجرّد فأر. خفيّ. لو حسبت نفسها قطّة أو ثعلبة ذات يوم، لانتهى أمرها.

- «اطلبي من دكتور فيرَيرا أن يحضر».

- «حسنًا، سنيور».

خفضت رأسها كي تجعل نفسها ضئيلة. أكثر الرجال لا يريدون للمرأة أن تكون قارعة القوام. ولم يكُن بيدال استثناء.

مكتبة ياسين

ثلاث قواعد عسكرية. بينما يُختزن الطعام والدواء في الطاحونة.

سيكون **ذلك** شيئًا مفيدًا.

مكتبة ياسين

4

وردة في جبل معتم

كان دكتور فيرَيرا رجلًا صالحًا، رقيق الروح. وذلك ما أدركت أوفيليا في تلك اللحظة، حين دخل إلى حجرة أمّها. للمرء أن يلمح الطيبة والقسوة بالقدر نفسه من الوضوح. ذلك أن الطيبة تنشر النور والدفء اللذين يبدو على الطبيب أنه مفعم بكليهما معًا.

- «سوف يساعدكِ هذا على النوم»، أخبر أمّها بينما هو يضيف بضع قطرات من سائل بلون الكهرمان إلى كوب من الماء.

لم تجادل أمّها عندما نصحها الطبيب بأن تلزم الفراش بضعة أيام. كان الفراش ضخمًا، خشبيًا، يتّسع لها وأوفيليا معًا. لم تشعر أمّها بأنها على ما يرام إطلاقًا منذ وصلا إلى هذا المكان التعيس. تصبّب جبينها عرقًا، بينما حفر الألم خطوطًا دقيقة في وجهها الجميل. شعرت أوفيليا بالقلق، ولكنها اطمأنّت إلى مراقبة اليدَين الهادئتَين للطبيب الذي راح يُعِدُّ دواء الشرب.

- «قطرتان وحسب»، قال وهو يناول أوفيليا القارورة البنيّة الصغيرة حتى تغلقها. «سترين أن هذا الدواء يساعدها».

كادت أمّها لا تقوى على ابتلاع الماء من دون أن تغصّ به.

- «يجب عليك أن تشربيه كاملًا»، شجّعها دكتور فيرَيرا برقّة. «جيد جدًا».

جاء صوته دافئًا كأغطية الفراش، في حين تساءلت أوفيليا لماذا لم تقع أمّها في حبّ رجل كالطبيب. كان يُذكّرها بأبيها الراحل. قليلًا. لم تكد

مكتبة ياسين

أوفيليا تجلس على جانب الفراش حتى جاءت مرثيديس إلى الحجرة.

- «إنه يريدك في الأسفل»، قالت لدكتور فيرَيرا.

«هو». لم ينطق أحدٌ باسمه. بيدال. وكأنه حجر يُلقى من خلال النافذة، وكأن كل حرف فيه قطعة من الزجاج المكسور. كابتن. هكذا كان يسمّيه أكثرهم. وعلى الرغم من ذلك، فلقد رأت أوفيليا أن الذئب أنسب كثيرًا.

- «لا تترددي في استدعائي»، قال الطبيب لأمّها وهو يغلق الحقيبة. «ليلًا أو نهارًا. أنتِ أو ممرضتك الصغيرة»، أردف مبتسمًا لأوفيليا.

ثم غادر برفقة مِرثيديس، وبقيَت أوفيليا وحدها مع أمّها لأول مرة في ذلك البيت العتيق الذي تنبعث منه رائحة الشتاءات الباردة وأحزان الناس من قديم الزمان. راقها أن تبقى وحدها مع أمّها. لطالما راق لها ذلك، ولكن الذئب قد جاء.

قرّبتها أمّها إليها.

- «ممرضتي الصغيرة»، وضعَت يدَها تحت ذراع أوفيليا بابتسامة تعِبة، ولكنها سعيدة. «أوصدي الباب وأطفئي النور يا عزيزتي».

ومع أنها بجوار أمّها، فلقد شعرت أوفيليا بالرهبة من احتمال النوم في تلك الحجرة الغريبة، ولكنها فعلت كما طُلب إليها. وبينما هي تمدّ يدها إلى رتاج الباب، رأت الطبيب يقف مع مرثيديس في الطرقة. لم ينتبها إليها، كما لم ترغب أوفيليا في التنصّت عليهما، ولكنها سمعت رغمًا عنها. السمع... ذلك ما يعنيه أن يكون المرء طفلًا، على الرغم من كل شيء. أن يتعلّم المرء أسرار الكبار يعني أن يتعلّم كيف يفهم عالمهم، وكيف ينجو منه.

مكتبة ياسين

- «دكتور، يجب عليك أن تساعدنا!»، همست إليه مرثيديس. «تعال معي وافحصه. الجرح لا يبرأ. وحال الساق تسوء».

- «هذا كل ما يمكنني الحصول عليه»، قال الطبيب في هدوء، وهو يناول مرثيديس عبوة صغيرة مغلّفة بالورق البنّي. «أنا آسف».

تناولت مرثيديس العبوة، ولكن اليأس البادي على وجهها أثار في نفس أوفيليا شعورًا بالفزع، إذ كانت مرثيديس تبدو في غاية القوة، كما يليق بشخصٍ من شأنه أن يحمي أوفيليا في هذا البيت المفعم بالوحدة، الحافل بأشباح الماضي.

- «الكابتن ينتظرك في مكتبه». استقام ظهر مرثيديس، التي لم تنظر إلى دكتور فيرَيرا وهو ينزل على الدَرَج. كانت خطواته ثقيلة، وكأنه يشعر بالذنب لأنه سار مبتعدًا عن وجه مرثيديس اليائس.

لم تقوَ أوفيليا على الحراك.

أسرار. الأسرار تزيد العالم عتمةً على عتمة، ولكنها تجعلك ترغب في استكشاف المزيد...

كانت أوفيليا لا تزال واقفةً قربَ الباب المشرع حين التفتت مرثيديس التي اتّسعَت عيناها خوفًا في تلك اللحظة، عندما رأت أوفيليا، وسارعت بإخفاء العبوة تحت وشاحها. بينما طاوعت أوفيليا قدماها أخيرًا، فتراجعت لتوصد رتاج الباب وهي تتمنّى لو نسيت مرثيديس أنها قد رأتها.

- «أوفيليا! تعالي!»، نادتها أمُّها من مكانها على الفراش.

على الأقل، ألقت النار شيئًا من الضوء على الحجرة المعتمة، وكذلك الشمعتان المرتعشتان فوق رفّ الموقد. تسلّلت أوفيليا إلى الفراش وطوّقت

مكتبة ياسين

أمّها بذراعيها.

بقيتا وحدهما. لماذا لم يكُن ذلك كافيًا؟ ولكن أخاها الصغير بات يركل في بطن أمّها بالفعل. ماذا لو كان مثل أبيه؟ «**ارحل!**»، فكّرت أوفيليا. «**اتركنا وشأننا. لسنا في حاجة إليك، فأنا لها، وسوف أعتني بها**».

- «يا للسموات، قدماك... مُثلّجتان!»، قالت أمّها.

أحسّت بجسد أمّها في غاية الدفء. ربما كان أدفأ مما ينبغي، وإن لم يبدُ أن الطبيب يشعر بقلق شديد من الحمّى.

أخذت الطاحونة تئنّ وتصدر صريرًا حولهما. لم تردهما الطاحونة. بل كانت ترغب في عودة الطحّان. أو لعلّها تمنّت أن تبقى وحدها مع الغابة، وجذور الأشجار تتخلّل جدرانها، والأوراق تغطّي سطحها، إلى أن تعود أحجارها وقوائمها جزءًا من الغابة مرةً أخرى.

- «أتشعرين بالخوف؟»، همست أمّها سائلةً.

- «قليلًا»، همست أوفيليا مجيبةً.

جاءت آهةٌ أخرى من الجدران العتيقة، بينما تنهّدت القوائم فوقهما وكأن أحدهم يثنيها. ضمّت أوفيليا جسدها إلى جسد أمّها التي قبّلت شعر أوفيليا، الأسود كشعرها.

- «لا شيء هناك يا عزيزتي. لا شيء، إنها الريح وحسب. تختلف الليالي هنا بشدة عنها في المدينة، حيث تسمعين أصوات السيارات، والترام. أما هنا فالبيوت أقدم كثيرًا. وتُصدر صريرًا...».

أجل، بالفعل. في تلك المرة أنصتت كلتاهما.

«يبدو وكأن الجدران تتكلّم، أليس كذلك؟». منذ عرفت الأمّ بحملها، لم تضمّ أوفيليا كما فعلت هذه

مكتبة ياسين

المرة. «غدًا. غدًا أقدّم لك مفاجأة».

- «مفاجأة؟»، نظرت أوفيليا إلى وجه أمّها الشاحب.

- «أجل».

شعرت أوفيليا بأنها في غاية الأمان وهي في حضن أمّها. لأول مرة منذ... منذ متى؟ منذ مات أبوها. منذ التقت أمّها الذئب.

- «أهو كتاب؟»، سألت. أهداها أبوها الكتب في مرات كثيرة. بل إنه كان يصنع الثياب من أجل الكتب أحيانًا. «**الكتّان، لحماية الغلاف يا أوفيليا. لقد صارَت الكتب تُغلّف بأقمشة رخيصة جدًا في هذه الأيام. أما هذا فأفضل**»، كان يقول. افتقدَته أوفيليا كثيرًا. في بعض الأحيان، كانت تشعر وكأن قلبها ينزف، ولن يبرأ حتى تراه مرة أخرى.

- «كتاب؟»، ضحكت أمّها برقّة. «كلا! ليس كتابًا! بل أفضل كثيرًا».

لم تُذكّر أوفيليا أمّها بأنها لا تفضّل على الكتاب شيئًا. ما كانت أمّها لتتفهّم، فهي لم تتّخذ من الكتب لها ملاذًا، ولم تسمح للكتب بأن تأخذها إلى عالَم آخر. لم تكُن قادرة على رؤية عالم سوى هذا العالَم، الذي تراه في بعض الأحيان، كما فكّرت أوفيليا. كانت تلك النزعة الدنيوية جزءًا من حزن أمّها. أما الكتب، فلها القدرة على أن تخبرها بالكثير والكثير عن هذا العالم، وعن الأمكنة البعيدة، وعن الحيوان والنبات، وعن النجوم! للكتب أن تكون نوافذ وأبوابًا وأجنحة تساعدها على التحليق بعيدًا. ربما نسيت أمّها كيف تحلّق. أو لعلّها لم تتعلّم الطيران قطّ.

أغمضت كارمن عينيها. على الأقل، كانت ترى أكثر من هذا العالم وهي تحلم، أليس كذلك؟ تساءلت أوفيليا، وهي تستند بوجنتها إلى صدر أمّها. التحم

مكتبة ياسين

جسداهما حتى صارا واحدًا، كما كانا قبل أن تُولد. استطاعت أوفيليا أن تسمع أنفاس أمّها تعلو وتنحسر كالمدّ والجزر، والضربات الناعمة الآتية من قلبها الذي يخفق بانتظام شديد وكأنه بندول إيقاع تحت العظام.

- «لماذا كان لا بد أن تتزوّجي؟»، همست أوفيليا سائلة.

وبينما انسلّت الكلمات من بين شفتيها، تمنّى جزء منها لو كانت أمّها قد استغرقت في النوم. ولكن الردّ جاء كالآتي...

- «أمضيتُ وقتًا أطول مما ينبغي في وحدةٍ يا حبيبتي»، قالت أمّها شاخصة إلى السقف فوق رأسيهما، إلى الكلس المشروخ الذي انتشرَت فيه بيوت العناكب.

- «ولكني **كنتُ** معكِ»، قالت أوفيليا. «لم تكوني وحدكِ. **لطالما** كنتُ معكِ».

ظلّت أمّها شاخصة إلى السقف، وبدَت في غاية البُعد فجأة.

- «ستفهمين متى كبرتِ. لم يكُن ذلك بالأمر الهيّن عليّ أنا أيضًا، عندما... والدكِ...». التقطَت أنفاسها بحدّة وضغطت بيدها على بطنها المنتفخ. «إنه أخوك، يلهو من جديد».

أحسّت أوفيليا بيد أمّها ساخنة جدًا حين غطّتها بيدها. أجل، حتى هي استطاعت أن تحسّ بأخيها. ولا، لن يرحل، فهو يريد الخروج.

- «احكي له واحدة من قصصك!»، لهثت أمّها. «أنا مُتأكّدة أن ذلك سوف يهدّئه».

تردّدت أوفيليا في مشاطرته قصصها، غير أنها استقامت في جلستها أخيرًا.

مكتبة ياسين

وتحت الملاءات البيضاء، تراءى جسد أمّها وكأنه جبل تكسوه الثلوج، بينما يسكن أخوها داخل أعمق كهف في الجبل. استندت أوفيليا برأسها إلى ذلك النتوء البارز تحت الأغطية، ومضت تربّت على الموضع الذي يتحرّك فيه أخوها، في الأعماق، تحت جلد أمّها.

- «أخي!»، همست. «يا أخي».

لم تكن أمّها قد سمّته بعد. وقريبًا يحتاج إلى اسم حتى يستعدّ لهذا العالم.

- «منذ أعوام طوال، طوال... في أرض حزينة، بعيدة...»، تكلّمت أوفيليا بصوت ناعم، خفيض، وإن تأكّدت من قدرته على سماع صوتها. «كان هناك جبل هائل من الصوان الأسود...».

وخلف الطاحونة، في الغابة المعتمة الصامتة كالليل، كانت الكائنة التي سمّتها أوفيليا «جنيّة» تفرد جناحيها وتتبع صوت الفتاة، بينما الكلمات تصنع مسارًا من فتات الخبز في جوف الليل.

- «وعلى قمة الجبل...»، تابعت أوفيليا. «كانت وردةٌ سحرية تتفتّح فجرَ كل يوم. قال الناس إن من اقتطف الوردة صار خالدًا. ولكن أحدًا لم يجرؤ على الاقتراب منها لأن أشواكها كانت ملأى بالسمّ».

«**أجل، هناك ورد كثير مثلها**»، فكّرت الجنية وهي تحلّق صوب النافذة التي مضت الفتاة تحكي القصة خلفها. تسلّلت الجنية إلى الحجرة وجناحاها يخفقان بنعومة كصوت أوفيليا، فوقع بصرها عليهما: الفتاة وأمّها، متعانقتين في وجه عتمة الليل التي عمّت بالخارج. غير أن العتمة في داخل البيت كانت أشدّ رهبةً بكثير، وعرفت الفتاة أن الرجل الذي جاء بهما إلى هنا هو الذي يغذّي تلك العتمة.

- «تكلّم الناس عن كل الالام التي يمكن أن تتسبّب

مكتبة ياسين

فيها الأشواك»، همست أوفيليا إلى أخيها الذي لم يُولد بعد. «نبهوا بعضهم بعضًا إلى أن من تسلّق الجبل لقي حتفه. وكان الإيمان بالأشواك والألم في غاية السهولة. إذ ساعدهم الخوف على الإيمان بذلك. ولكن واحدًا منهم لم يجرؤ على الأمل في أن تهبه الوردة حياةً أبديةً في النهاية. لم يكُن في أيديهم التمسُّك بالأمل... وهكذا كانت الوردة تذبل، ليلة بعد ليلة، وهي لا تملك أن تقدّم هبتها إلى أحد، كائنًا من كان...».

جلست الجنية على حافة النافذة لتنصت إليها، وسُرّت لأن الفتاة تعرف بأمر الأشواك، إذ جاءت أوفيليا وأمُّها إلى جبل شديد العتمة. أما الرجل الذي يحكم هذا الجبل –أوه، أجل، لقد عرفت الجنية كل شيء عنه– فكان يجلس في مكتبه بالأسفل، في الحجرة القائمة خلف دولاب الطاحونة، حيث مضى يلفّع ساعة الجيب التي كانت لأبيه... هوذا أبٌ آخر مات في حربٍ أخرى.

- «ذهبت الوردة أدراج النسيان، وضاعت»، قالت أوفيليا وهي تضع وجنتها على بطن أمّها. «وعلى قمة ذلك الجبل البارد المعتم، ظلّت وحيدةً حتى آخر الزمان».

لم تدر ذلك، ولكنها كانت تحدّث أخاها عن أبيه.

مكتبة ياسين

5
آباء وأبناء

كان بيدال ينطُف ساعة أبيه كل ليلة، في الوقت الوحيد الذي يخلع القفاز خلاله. أما الحجرة التي اتُخذها بيدال مكتبًا فكانت تقع مباشرة خلف الدولاب العملاق الذي استخدمه الطحّان ذات مرة في طحن الذرة. غطّت قضبان الدولاب الهائلة معظم الجدار الخلفي، الأمر الذي كان يُدخل إلى نفس بيدال شعورًا بأنه يعيش داخل الساعة في بعض الأحيان، ويبثُّ في نفسه الطمأنينة على نحو عجيب. لمّع الغطاء الفضي الغني بالنقوش ونفض الغبار عن التروس برقّة وكأنه يعتني بكائن حيّ.

في بعض الأحيان، تكشفنا الأشياء التي نعتُز بها أكثر حتى ممّا يكشفنا الأشخاص الذين نحبّهم. تصدّع زجاج الساعة في يد والد بيدال في تلك اللحظة، حين لقي مصرعه، الأمر الذي اعتبره الابن دليلًا على أن الأشياء قادرة على النجاة من الموت ما حافظ المرء عليها نظيفة منتظمة على أكمل وجه.

كان والده بطلًا. شبّ بيدال على تلك الفكرة التي صنع نفسه على أساسها، كان رجلًا حقيقيًا. إنها الفكرة التي تستحضر الذكرى نفسها في كل مرة تقريبًا، ذكرى اليوم الذي زار فيه حافة جبال بيانويبا مع أبيه: المشهد البحري الوعر المتعرّج المترامي في الأفق، والصخور المسنّنة بالأسفل، والمنحدر الذي يبلغ مئة قدم من العمق. أرشده والده إلى الحافة برفق، ثم أمسك به في إحكام. انكمش بيدال حين جذبه والده وأرغمه على النظر إلى الهاوية.

- «أتشعر بذلك الخوف؟»، سأله والده. «يجب

مكتبة ياسين

عليك ألّا تنساه أبدًا. هكذا يجب عليك أن تشعر كلّما ضعفت، متى حاولت أن تنسى أنك في خدمة وطن أبائك وموقعك في الحياة. متى وقفت في وجه الموت أو الشرف. إن خنت بلدك، واسمك، وإرثك، فكأنك بذلك تخطو خطوةً إلى الأمام وتهوي، إن تلك الهاوية خفية عن عينيْك، ولكنها ليست أقلّ واقعيةً. لا تنس أبدًا، يا بني...».

وإذا الحاضر يطمس الماضي بطرقةٍ على الباب. جاءت الظرقة في غاية الخفة، حتى إنها وشت بالطارق الذي يطلب الإذن بالدخول.

تجهّم بيدال. كان يكره أن يقطع طقوسه الليلية أي شيء.

- «ادخل!»، نادى، وهو لا يزال منتبهًا إلى آليات الساعة اللامعة.

- «كابتن».

جاءت خطى دكتور فيرَيرا رقيقة مُتأنّية مثل صوته. توقّف على مسافة قصيرة من المكتب.

- «كيف حالها؟»، سأل بيدال.

بدأت دواليب ساعة الجيب تتحرّك بإيقاع مثالي، لتؤكّد مرة أخرى على أن النظام المتقن لا يحدُه حدّ. الخلود نظيف دقيق. ومن المؤكّد أنه لا يحتاج إلى قلب. إذ تختلّ ضربات القلب بمنتهى السهولة، ثم يتوقّف أخيرًا، مهما اعتنى المرء به.

- «إنها في غاية الوهن»، قال دكتور فيرَيرا.

أجل، رقيق. هكذا كان الطبيب الصالح. رقيق الثياب، رقيق الصوت، رقيق العينين. تأكّد بيدال من قدرته على أن يكسر الطبيب في غير جهد، وكأنه يكسر عنق أرنب.

- «سوف تحصل على كل ما تحتاج إليه من

الراحة»، قال. «سأنام هنا بالأسفل».

من شأن ذلك أن يجعل الأمور أيسر على كل حال، فلقد سئم كارمن. مثلما كان يسأم كلّ امرأة بسهولة. عادةً ما يحاولن الإفراط في الاقتراب منه. ولكن بيدال لم يرد لأحد أن يقترب منه، وإلّا جعله ذلك هشًّا. متى جاء الحبُّ، اختلّ النظام كاملًا. حتى الرغبة قد تغدو مُحيّرة ما لم يشبعها المرء ثم يمضي قدمًا. ذلك شيء لم تتفهّمه النساء.

- «وماذا عن ابني؟»، سأل. لم يلقِ بالًا لغير الطفل، فالمرء فانٍ ما لم يكُن له ابن.

نظر إليه الطبيب وقد تملّكته المفاجأة. لطالما بدت عيناه متفاجئتين وراء تلك النظارة ذات الحواف الفضية. فتح فمه الرقيق حتى يجيب، وإذا بغارثيس وسيڑانو يظهران على أعتاب الحجرة.

- «كابتن!».

أخرس بيدال ضابطَيْه بإشارة من يده، وهو الذي لم يكفّ عن التلذُّذ بالخوف البادي على وجهَيْهما قطّ. كان ذلك الخوف يُنسيه تعاسة المكان، ويُبعده عن المدن وساحات المعارك التي يُكتب فيها التاريخ. أما وقد تمركز في تلك الغابة القذرة الموبوءة بالمُتمرّدين، فلسوف يجعل ذلك أمرًا يُحسب له حساب. سوف يزرع الخوف والموت بمنتهى الدقة، حتى يسمع بأمره الجنرالات الذين أرسلوه إلى هنا. كان بعضهم قد حاربوا مع أبيه جنبًا إلى جنب.

- «ابني!»، ردّد واللهف يتجلّى في صوته كحدّ الشفرة القاطعة. «كيف حاله؟».

ظلّ فيرَيرا ينظر إليه في دهشة، وكأن عينيه تتساءلان: «**هل التقيتَ رجلًا مثلك في أي وقت مضى؟**».

مكتبة ياسين

- «في اللحظة الراهنة...»، أجاب دكتور فيرَيرا، «ليس هناك ما يدعو إلى القلق».

التقط بيدال السيجارة والقبعة.

- «جيد جدًا»، قال وهو يعود بمقعده إلى الخلف، بما يعني: «**اذهبْ**».

ولكن الطبيب لم يزل واقفًا أمام الطاولة.

- «ما كان يجدر بزوجتك أن تسافر سيدي الكابتن. ليس وهي في طور مُتأخِّر من الحمل إلى هذه الدرجة».

يا له من أحمق. لا يجب على الحمل أن يتحدّث إلى الذئب هكذا.

- «أهذا رأيك؟».

- «رأيي المهني. أجل سيدي الكابتن، هذا رأيي».

سار بيدال بخطى وئيدة حول الطاولة وقد تأبّط قبعته العسكرية. كان أطول من فيرَيرا. بطبيعة الحال. لأن فيرَيرا رجل ضئيل، تساقط شعره، وجعلته اللحية الهزيلة يبدو عجوزًا مثيرًا للشفقة. أحبّ بيدال الذقن الحليقة، كما تتركها الشفرة الحادّة. ولم يشعر نحو الرجال من أمثال فيرَيرا إلّا بالاحتقار. من ذا الذي يريد أن يشفي الناس في عالمٍ قائم على القتل؟

- «يجب أن يولد الابن حيثما كان أبوه»، صرّح بهدوء.

أحمق. سار بيدال صوب الباب، ودخان سيجارته يتبعه في الحجرة ذات الإضاءة الخافتة. لم يحبّ بيدال النور. بل أحبّ أن يرى ظلمة نفسه. كان على وشك أن يبلغ الباب حين رفع فيرَيرا صوته الفزعج في رقّته مرةً أخرى.

- «ما الذي يجعلك مُتأكّدًا إلى هذا الحدّ من أن

مكتبة ياسين

الطفل ذكر سيدي الكابتن؟».

التفت إليه بيدال مبتسمًا، بعينين في سواد السخام. كانت له القدرة على أن يجعل الرجال يحسّون بسكينه بين أضلعهم بمجرّد النظر إليهم.

- «يجب عليك أن تغادر»، قال.

استطاع أن يلمس إحساس فيزيرا بحدّ السكين.

قبض الجنود المناوبون على صائدي أرانب يصطادان بعد أن بدأ حظر التجوال. فوجئ بيدال لأن غارثيس وجد ذلك شيئًا جديرًا باستدعائه، على علم الضبّاط كلهم كم يمقت أن يزعجه أحدهم في مثل هذه الساعة المتأخّرة. تراءى الهلال كالمنجل المتعطّش في السماء حين خرجوا من الطاحونة.

- «في الساعة الثامنة رصدنا حركةً في القطاع الشمالي الغربي»، أدلى غارثيس بتقريره وهم يعبرون الباحة. «كما رصدنا إطلاق أعيرة نارية. مسح الرقيب بايونا المنطقة وألقى القبض على المشبوهين». لطالما تكلّم غارثيس وكأنه يملي كلماته.

أما الأسيران، اللذان كان أولهما عجوزًا وثانيهما أصغر في العمر كثيرًا، فبدا كلاهما شاحبًا مثل القمر السقيم. تركت الغابة ثيابهما قذرةً، في حين بهتت عيناهما خوفًا وشعورًا بالذنب.

- «كابتن»، بادره أصغرهما، في حين أخذ بيدال يتفرّس فيهما من دون أن ينبس بكلمة واحدة، «هذا أبي». أشار إلى الرجل الأكبر عمرًا. «إنه رجل شريف».

- «سأكون أنا القاضي الذي يبتّ في هذا الشأن». كان الخوف البادي على وجهي الرجلين شيئًا يلذّ لبيدال، وإن جعله في الوقت نفسه غاضبًا. «واكشف

مكتبة ياسين

رأسك متى وقفت أمام ضابط».

خلع الابن قبعته البالية. لقد عرف بيدال السبب الذي جعل الابن يتحاشى النظر إلى عينيه. ذلك القروي القذر! لأنه يتحلّى بالكبرياء، كما يمكن للمرء أن يلمس في صوته، ويمتلك القدر الكافي من الفطنة ليعرف أن كبرياءه لن تروق لأولئك الذين أوقعوا به في الأسر.

- «لقد عثرنا على هذا في حوزتهما»، مدّ سيزانو إلى بيدال بندقية عتيقة. «لقد استخدمت البندقية».

- «كنا نصطاد الأرانب!». كان الفتى مكابرًا، لا يبدي احترامًا.

- «هل أذنتُ لك بالكلام؟».

استبدّ الخوف بالعجوز حتى كادت ركبتاه لا تقويان على الصمود. شعر بالخوف على ابنه. وإذا بأحد الجنود الممسكين به ينتزع الحقيبة المُعلّقة بكتفيه المحنيتين، ويناولها لبيدال، الذي أخرج منها تقويم جيب أصدرته الحكومة الجمهورية لكل المزارعين، بدا عليه أنه قد قُرِئ مرات كثيرة. كما ظهرت على الغلاف الخلفي الراية الجمهورية. قرأ بيدال الشعار هازئًا، بصوتٍ مرتفع:

- ««لا ربّ، ولا وطن، ولا سيّد». فهمت».

- «إنها دعاية حمراء(3) سيدي الكابتن!». بدا سيزانو فخورًا مُطمئنًا لأنه لم يزعج الكابتن بسبب اثنين من القرويين القذرين. بل ربما كان كلاهما ينتمي إلى مقاتلي المقاومة المناوئين للجنرال فرانكو، أولئك الذين جاء الجنود لاصطيادهم في هذه الغابة المشؤومة.

- «**ليست** دعاية!»، احتجّ الابن.

مكتبة ياسين

- «صه».

سمع الجنود التهديد يتجلّى في تحذير بيدال الذي جاء فحيحًا، ولكن المتغطرس الشاب كان يتوق بشدة إلى حماية أبيه. الحبُ يقتل بطرائق كثيرة.

- «إنه مُجرّد تقويم عتيق، كابتن!».

كلا، ما كان الفتى ليخرس.

- «لسنا سوى مزارعين»، قال أبوه، مُحاولًا اجتذاب نظرات بيدال الفوجْهة إلى ابنه.

- «استمرّ»، كان بيدال يحبُ تلك اللحظة، عندما يبدؤون في التوسّل من أجل حياتهم.

- «ذهبتُ إلى الغابة حتى أصطاد الأرانب. من أجل ابنتيْ، فكلتاهما مريضة».

أخذ بيدال يتشمّم قارورة أخرجها من حقيبة الرجل العجوز. ماء. يجب على المرء أن يؤدّي هذه الأمور بهدوء حتى يتلذّذ بها.

النظام. حتى في هذه الأشياء.

- «أرانب...»، قال. «حقًا؟».

عرف أن الابن سوف يقع في الشرك. أوه، أجل، عرف كيف يفعلها. ما كان يجدر بالجنرالات أن يهدروا مواهبه في هذه الغابة، وهو الذي كان في مقدوره أن ينجز أمورًا عظيمة.

«كابتن، مع احترامي»، قال الابن. «ما دام أبي يقول إنه كان يصطاد الأرانب، فذلك يعني أنه كان يصطاد الأرانب». أخفى كبرياءه تحت أجفانه المغمضة، وإن خانته شفتاه.

بهدوء... هكذا يجب أن يتمّ الأمر. التقط بيدال قارورة الماء ضاربًا وجه المتغطرس الشاب بها. ثم انطلق يغمد الزجاج الفحظم في عينه. مرة تلو أخرى. «**أطلقْ صراح الغضب وإلّا أتى عليك**». مضى

مكتبة ياسين

الزجاج يمزّق ويحطّم، تاركًا الجلد واللحم كتلةً دامية.

صرخ الأب بأعلى مما صرخ الابن، والدموع ترسم لطخًا على وجنتيه القذرتين.

- «لقد قتلته! قتلته! أيها القاتل!».

أطلق بيدال النار على صدره الهزيل، فاخترقت الرصاصتان ثيابه القذرة المهترئة وعظامه الورقية، وعثرتا على الطريق إلى قلبه في يُسر.

ظل الابن يتحرّك، بيديه المضرجتين بدمائه، وراح يضغط على الجروح الفاغرة في وجهه. يا لها من فوضى! رماه بيدال برصاصة هو الآخر. تحت منجل الهلال الشاحب.

مضت الغابة تراقبه في صمت، كما راقبه جنوده.

في حين مسح بيدال يديه اللتين يكسوهما القفاز بالحقيبة، ثم أفرغ محتوياتها على الأرض. أوراق. ومزيد من الأوراق. وأرنبان نافقان. التقطهما. كان كلاهما أعجف، ضئيلًا، مُجرّد فراء على عظم. ربما أمكن إعداد يخنة بهذين الأرنبين.

- «لعلّك تتعلّم كيف تفتّش أولئك الأوغاد كما ينبغي في المرة القادمة... قبل أن تحضر طارقًا بابي»، قال لسيزانو.

- «حسنًا سيدي الكابتن».

كم وقفوا كلهم مُتخشّبين هناك!

«ماذا؟»، تحذاهم بيدال بعينيه. كان حادّ المزاج. أجل. فيم يفكّرون الآن وهم يحدّقون إلى الجثتين الهامدتين تحت أقدامهم؟ أيفكّرون بأن بعض آبائهم وإخوتهم قرويون؟ وبأنهم يحبون بناتهم وأبناءهم أيضًا؟ وبأنه سوف يفعل بهم مثل ما فعل بهذا الرجل وابنه ذات يوم؟

ربما.

«**كلنا ذئاب**»، أراد أن يقول لهم. «**تعلّموا مني**».

مكتبة ياسين

وعد النحّات

في مرة من المرات، كان هناك نحّات شاب يُدعى ثينتولو، عمل في خدمة ملكٍ بمملكة تحت الأرض، موغلة في العمق، حتى إن ضوء الشمس ونور القمر قد عجزا عن العثور عليها. ملأ النحّات الحدائق الملكية بالأزهار المنحوتة من الياقوت والنوافير المنحوتة من الملكيت. كما نحت تماثيل نصفية للملك والملكة، تماثيل نابضة بالحياة، حتى حسب الجميع أنهم يسمعون أنفاسها.

كانت ابنتهما الوحيدة، الأميرة موانا، تحبُّ مشاهدة النحّات في أثناء العمل، وإن لم يتسنْ لثينتولو أن ينحت لها تمثالًا قطُّ.

- «لا أستطيع الجلوس ساكنةً كل هذا الوقت يا ثينتولو»، قالت. «فهناك الكثير والكثير من الأشياء لأفعلها وأراها».

وإذا بموانا تختفي ذات يوم. تذكّر ثينتولو كم سألته عن الشمس والقمر، وسألته إن كان يعرف شكل الأشجار فوق الأرض، تلك الأشجار التي تتشابك جذورها في سقف حجرة نوم الأميرة.

انسحق قلب الملك والملكة بشدّة، حتى ردّدت المملكة السفلى أصداء تنهُّداتهما، بينما اكتستْ أزهار النحّات بدموعهما وكأنها قطرات الندى. أما الفاون(4)، الذي كان يشور عليهما في كل ما يتّصل بالوحوش والأشياء المقدّسة التي تتنفّس تحت الأرض، فلقد أرسل مبعوثيه –الوطاويط والجنيّات والأرانب والغربان– لإعادة موانا، فعجزت تلك العيون كلُّها عن العثور عليها.

وذات ليلة، بعد اختفاء الأميرة بثلاثمئة وثلاثين عامًا، دخل الفاون إلى منحت ثينتولو، هناك حيث

مكتبة ياسين

استغرق النحّات في سبات وسط أدواته. كان يتوق إلى مواساة جلالة الملك وجلالة الملكة بصنع منحوتة من حجر القمر الجميل، تحمل قسمات موانا، ولكنه عجز عن تذكُّر وجه الأميرة، مهما بذل من جهدٍ.

- «عندي لك مهمة يا ثينتولو»، قال الفاون. «ولن يُسمح لك بالإخفاق في هذه المهمة. أريد منك أن تصنع تماثيل تجسّد الملك والملكة –تماثيل كثيرة بعدد أفرع السراخس المنسدلة– تنبثق من باطن الأرض في المملكة العليا. أتستطيع أن تصنعها؟».

لم يكُن ثينتولو على يقين من ذلك، ولكن أحدًا لم يجرؤ على ردّ طلبٍ للفاون، وهو الذي عُرِف بحدّة المزاج والتأثير القوي في الملك. وهكذا شرع ثينتولو في العمل. بعد مضي عام واحد، كانت مئات الأعمدة الحجرية تنبثق من أرض المملكة العليا، وقد ارتسم عليها وجها أبوَي موانا الحزينَين، مئات الأعمدة المُحمَّلة بأملِ الفاون في أن تمرّ بها الأميرة المفقودة ذات يوم، فتتذكّر من تكون. ولكن أعوامًا كثيرة مضَت وأخبار موانا لا تزال منقطعة. مات الأمل في المملكة السفلى كما تموت الزهرة التي حُرمت من الأمطار.

طعن ثينتولو في العمر، ولكنه لم يقدر على احتمال الفكرة التي حدّثته باحتمال أن يموت قبل أن تساعد مهاراته في إعادة الابنة المفقودة لملكه وملكته، فطلب لقاء الفاون.

وبينما الفاون يُطعم سربًا من الجنيّات اللاتي يعملن في خدمته، أقبل النحّات. كان الفاون يسقيهن دموعه حتى يذكّرهن بموانا، لأن الجنيّات كائنات تميل إلى النسيان.

- «يا صاحب السموّ ذا القرنين»، قال النحّات. «هل

مكتبة ياسمين

لي بأن أقدّم مهاراتي المتواضعة مرة أخرى من أجل العثور على الأميرة؟».

- «وكيف تنوي أن تفعلها؟»، سأل الفاون بينما الجنيّات يرشفن دمعة أخرى تسيل على أصابعه ذات المخالب.

- «أرجو أن تسمح لي بالامتناع عن الإجابة»، قال ثينتولو. «فأنا ما زلت لا أدري إن كانت يداي قادرتين على صنع ما أراه في عقلي. ولكني آمل أن تقبل الجلوس أمامي حتى أصنع منحوتة تجسّدك، على الرغم من سكوتي عن الكلام».

- «أنا؟»، فوجئ الفاون بطلب ثينتولو. وإن رأى في عيني الرجل العجوز شغفًا، وصبرًا، ورأى أعظم الفضائل قيمةً في زمن اليأس: الأمل. وهكذا نحّى الفاون باقي المهمّات –الكثيرة- جانبًا حتى يجلس أمام النحّات في صبر.

لم يستخدم ثينتولو حجرًا لصنع هذا التمثال. وإنما صنع منحوتة خشبية تمثّل الفاون، فالخشب يتذكّر دائمًا أنه كان شجرة على قيد الحياة في مرة من المرات، شجرة حية تتنفّس في كلتا المملكتين، العليا والسفلى.

استغرق ثينتولو ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ للانتهاء من المنحوتة، وعندما طلب من الفاون أن يقوم عن مقعده، قامت صورته الخشبية أيضًا.

- «اطلب منه أن يعثر على الأميرة يا صاحب السموّ ذا القرنين»، قال النحّات. «وأعدك بأنه لن ينال راحةً أو يفارق الحياة قبل أن يعثر عليها».

ابتسم الفاون، إذ انتبه إلى سمة أخرى نادرة في وجه الرجل العجوز: الإيمان. الإيمان بفنّه وبما يقدر عليه ذلك الفنّ. ولأول مرة منذ أعوام طوال، تجرأ الفاون على أن يتحلّى بالأمل مرة أخرى.

مكتبة ياسين

ولكن طرقات المملكة العليا كثيرة، فمضى الكائن الذي صنعه النحّات يجوب الغابات والصحاري، ويعبر السهول والجبال، غير أنه لم يتمكّن من العثور على الأميرة المفقودة والوفاء بوعد صانعه. بات ثينتولو مُحطّمًا، وعندما طرقت «الموتُ» باب منحته، لم يصرفها النحّات، بل مضى في أثرها على أمل أن ينسى الإخفاق الذي مُني به في أرض النسيان.

أحسّ الكائن الذي صنعه ثينتولو بالموت كالألم الثاقب. أما جسده الخشبي الذي طعن في العمر وأبلَته الريح والأمطار وكل الأميال التي قطعها في بحثه، فتيبّس حزنًا، وباتت قدماه لا تقويان على قطع خطوة أخرى. ومن بين السراخس التي تحفُّ الطريق، ارتفع عمودان وقد ارتسم عليهما وجها الملك والملكة الحزينَين اللذين فتّش الكائن عن ابنتهما سدًى. عازمًا على تحقيق مسعاه، خلع الكائن عينه اليمنى ووضعها في درب الغابة. ثم إنه مشى بخطًى مُتيبّسة وسط السراخس، وبات حجرًا بجوار الملك والملكة اللذين خذلهما، فاغرًا فمه في تنهيدة مُتحجّرة أخيرة.

ظلّت عيناه إلى الأبد شاهدتَين على براعة النحّات العجوز، ناظرتَين إلى الأرض المبلّلة طوال أيام وليالٍ لا يُحصى لها عدد. حتى جاء عصر يومٍ أقبلت فيه ثلاث سيارات سوداء عبر الغابة. توقّفت السيارات تحت الأشجار العتيقة، وترجّلت من إحداها فتاة، مشت في الدرب حتى وطئت بقدمها العين التي نحتها ثينتولو. ثم التقطتها مُتلفّتةً حولها لترى المصدر الذي يُحتمل أن تكون العين قد جاءت منه، فرأت ثلاثة أعمدة مُتآكلة، غير أنها لم تتعرّف الوجوه المرتسمة عليها. لقد مضت أعوام أطول مما

مكتبة ياسين

ينبغي.

ولكنها انتبهت إلى أن واحدًا من الأعمدة تنقصه عين، فمشت وسط السراخس حتى وقفت أمام العمود الذي سبق أن كان الفاون الخشبي، منحوتة ثينتولو. كانت العين التي عثرت عليها الفتاة في الدرب تلائم الفجوة على أكمل وجه، تلك الفجوة الفاغرة في الوجه الذي أبلاه الطقس، وفي تلك اللحظة، في حجرة تحت قدمي الفتاة، على عمقٍ بعيد لا تبلغه بجذورها سوى أطول الأشجار، رفع الفاون رأسه.

- «أخيرًا!»، همس.

ومن الحدائق الملكية، اقتطف زهرةً من الياقوت حتى يضعها على قبر ثينتولو، كما أرسل واحدة من جنيّاته إلى الأعلى كي تعثر على الفتاة.

مكتبة ياسين

6

في المتاهة

أفاقت أوفيليا على رفيف جناحين. حفيف كيتين(5) جاف: غاضب، مقتضب، متبوع برجرجة شيء يتحرّك في العتمة. كانت الشموع والنيران قد خمدت. وصار البرد قارسًا.

- «أمي!»، همست أوفيليا. «أفيقي! هناك شيء في الحجرة!».

ولكن أمّها لم تستيقظ، لأن قطرات دكتور فيزيرا قد أغرقتها في سبات عميق كالبئر، فاستقامت أوفيليا في جلستها مرتجفةً، مع أنها ما زالت ترتدي كنزتها الصوفية فوق ثياب النوم، وأنصتت...

ها هي!

الآن صارت فوق جسدها بالتحديد! نحّت أوفيليا الأغطية جانبًا حتى تضيء الأنوار، ولكنها لم تلبث أن ردّت ساقها إلى الفراش عندما أحسّت بشيء يلامسها.

وعند ذاك رأتها.

جلست الحشرة الجنيّة فوق مسند الفراش، بينما راحت قرون استشعارها تختلج، وسيقانها الهزيلة تلوّح، وفمها يغرّد برقّةٍ، بلغة جاءت من صلب الحكايات الواردة في كتب أوفيليا، التي كانت على يقين من ذلك. حبست أنفاسها بينما الكائنة المجنّحة تنزل عن مسند الفراش وتنطلق مُسرعةً إلى الغطاء الذي دثّرت به أوفيليا ساقيها المُتيبّستين. عبرت حقل الصوف الشاسع لتقف على بعد قدم واحدة من أوفيليا، التي لاحظت مُتفاجئةً أن مخاوفها كلها قد تلاشت. أجل، لقد ذهبت مخاوفها! ولم تغد تشعر إلّا بالسعادة، وكأن صديقة

مكتبة ياسين

قديمة قد عثرت عليها في هذه الحجرة الباردة، المعتمة.

- «مرحبًا!»، همست. «هل جئت في أثري؟».

ارتعشت قرون الاستشعار، أما الطقطقة العجيبة التي أحدثتها الزائرة فذكّرت أوفيليا بآلة الخياطة التي كانت لأبيها، وذكّرتها بإبرته التي كانت تطرق الأزرار برقّة، بينما هو يحاول أن يثبّتها في ثوب جديد من أجل دميتها.

- «أنت جنيّة، أليس كذلك؟».

لم تبذ زائرتها مُتأكّدة.

- «مهلًا!»، أخذت أوفيليا واحدًا من كتب الحكايات الخرافية التي كانت على الطاولة المجاورة للفراش، ومضت تقلب صفحاته حتى عثرت على صفحة يبدو فيها خيال جنيّة، كانت تشاهدها في كثير من الأحيان.

- «إليك!»، حوّلت الكتاب المفتوح إلى زائرتها. «أترين؟ إنها جنيّة».

«حسنًا. ما دامت الفتاة تحسبني كذلك...». قرّرت زائرةُ أوفيليا أن تسايرها، فوقفت على سيقانها الخلفية، وأولت الفتاة ظهرها، ثم طرحت قرون الاستشعار، وجعلت جسدها الجاف الفطوّل يبدو أشبه بجسد المرأة الصغيرة التي تظهر في الرسم. وبينما هي تتحوّل، بدّلت شكل جناحيها قليلًا، وجعلتهما يبدوان كأوراق الأشجار. ثم رفعت يديها اللتين صارتا الآن يدين بشريتين، ومسحت على أذنيها المدبّبتين بأصابعها التي ظهرت فورًا، وقارنت خيالها بالصورة مرةً أخرى. أجل. كان التحوّل مُوفّقًا. بل وربما ثبت أنه جسدها الأثير الجديد، مع أنها قد اتّخذت أشكالًا كثيرة في حياتها الخالدة. كان التغيّر سمةً من سماتها الطبيعية، وجزءًا من سحرها،

مكتبة ياسين

ولعبتها الأثيرة.

أما الآن، فحان الوقت لتنفيذ المهمة التي أُرسلت إلى الطاحونة من أجلها. رفّت بجناحيها الجديدين مُحلّقةً صوب الفتاة، وتوجّهت إليها بحرارة، ولسان حالها يقول: «**تعالي معي!**»، لوّحت وأشارت إليها بكل ما تقضي به أوامر سيدها من اللجاجة. لم يكُن هو السيد الأكثر حلمًا.

- «أتريدينني أن أتبعك؟ إلى الخارج؟ إلى أين؟».

أسئلة في غاية الكثرة. يسألهن البشر عن كل شيء، ولكن البشر عادةً ما لا يملكون نصف هذه المهارة في العثور على الأجوبة. رفّت الجنيّة بجناحيها مُحلّقةً صوب الباب. عمل جناحاها الورقيّين بكفاءة حقًا، على الرغم من الشكوك التي راودتها بشأن هذا الجسد، لأن أطراف الحشرات أخفّ وأسرع كثيرًا.

لم يكُن لذلك أدنى أهمية، فسيُدها في الانتظار.

وحين انتعلت أوفيليا حذاءها ومضت في أثر الجنيّة إلى خارج البيت، في جوف الليل، كان قلبها لم يزل خاليًا من الخوف. كادت تشعر بأنها قد تبعَت الجنيّة من قبل. ومن ذا الذي لا يثق بجنيّة، حتى وإن حضرَت في منتصف الليل؟ الأرجح أن الجنيّات يحضرن في منتصف الليل دائمًا. ويجب عليك أن تتبعهن. هكذا قال الكتاب. ألا تبدو حكايات الجنيّات أصدق كثيرًا من تلك التي يتظاهر الكبار بأنها حقيقة هذا العالم؟ وحدها الكتب تتطرّق إلى كل الأشياء التي لا يريد منك الكبار أن تسأل عنها: الحياة. الموت. الخير والشر. وماذا يهمّ حقًا في الحياة إن لم تكُن تلك الأشياء؟

لم تُفاجأ أوفيليا عندما برز القوس الحجري من العتمة.

مكتبة ياسين

مرّت الجنيّة من خلال القوس. بينما لم تكن مرثيديس إلى جوار أوفيليا كي تستوقفها، لم تكن هناك في هذه المرة. تبدّت جدران المتاهة العتيقة ذات اليمين وذات اليسار، وأخذتها أبعد فأبعد، إلى دوائر لامتناهية، بينما الجنيّة تحثّها كلّما تردّدت أوفيليا في أحد الأركان. «**اتبعيني! اتبعيني!**». كانت متأكّدة أن ذلك ما تغرّد به الجنيّة التي مضت ترفّ بجناحيها عاليًا فوق رأس أوفيليا حينًا، وإلى جوارها حينًا.

كم مرّ من الوقت وهي تسير؟ لم تدرِ أوفيليا. رسمت الجدران العتيقة إطارًا لسماء الليل. أما حذاء أوفيليا، فلقد بلّله الندى العالق بالعشب الذي اكتست به الدروب الملتوية. شعرَت وكأنما الأمر برمّته حلمٌ، ولا وقت في الأحلام. اتّسعَت الجدران فجأةً، ودخلَت أوفيليا إلى باحة فسيحة تتوسّط أرضيتها بئرٌ حجرية هائلة، يفضي إلى جوفها درجٌ. لم تدر أوفيليا كم سلّمةً في الدرج الذي تراءى بلا نهاية، إذ ابتلعته العتمةُ كاملًا. انبعثت همسةٌ من الهواء الرطب آتيةً من فوهة البئر، فأحسّت أوفيليا بوخزة من الخوف مرة أخرى، غير أنها شعرَت بنداء المغامرة أيضًا.

مضت في أثر الجنيّة التي راحت تغرّد وتدور أمامها، وتنزل على الدرج، وتغوص تحت الأرض، أعمق فأعمق. انتهى الدرج في قاع البئر الخالية من الماء، الخالية إلّا من قائم حجري منحوت يشبه العمودين الآخرين اللذين رأتهما في الغابة. بدا عتيقًا بالقدر نفسه، وإن كان أطول كثيرًا، وأحاطت به قنوات حجرية محفورة في عمق الأرض لتكوّن متاهةً على صورة المتاهة العليا. سمع حفيفٌ وسط الظلال المترامية خلف القائم الحجري، وكأن شيئًا

مكتبة ياسين

ضخمًا يتحرّك هناك. الآن تملّك أوفيليا خوف جارف، ولكن الجنيّة لم تزل تحثّها على المضي قدمًا. وأخيرًا، تبعتها أوفيليا وقطعت الخطوات الأخيرة، ثم وقفت في قاع البئر.

- «مرحبًا؟»، نادت أوفيليا. «مرحبًا!».

خُيّل إليها أنها قد سمعت صوت ماء يتدفّق، وتردّدت أصداء خطواتها في البئر.

- «صدى!»، صاحت، بينما الجنيّة تطوف بالعمود. «صدى ى ى!»، صاحت لتطرد الصمت.

جثمت الجنيّة على جذع شجرة ميتة. أو ما تراءى حينذاك وكأنه جذع شجرة ميتة. ولكن ما كادت الكائنة المُجنّحة تلمس سطحه المُغضّن بيدَيها حتى اختلج. وإذا بذلك الذي حسبته أوفيليا بقايا ملتوية من شجرة عتيقة يضطرب ويستقيم و... ويلتفت.

مهما يكُن مِن شيء، فهو هائل الضخامة، شأن قرنَيه المعقوفَين ورأسه الكبير. أما ذلك الوجه الذي تفرّس في أوفيليا بعينَين تليقان بالقطط فما كان يشبه أي وجه رأته من قبل. اكتسى ذقنه بلحية تيس، بينما تراءت على وجنتَيه وجبينه نقوش كتلك المحفورة على العمود. وعندما انتزع الكائن نفسه من شبكة الأعشاب والأغصان الجافة التي جعلته مُلتحمًا بالجدار، رأت أوفيليا أن نصف جسده لإنسان ونصفه الآخر لتيس. تساقطت الحشرات والأتربة العالقة بفرائه، بينما أحدثت عظامه صريرًا وهو يحرّك أطرافه وكأنه قد أطال الوقوف في الظلال أكثر مما ينبغي.

- «آه! أنت!»، كان هو الذي صاح. أجل، تأكّدت أوفيليا من أنه «هو». «لقد عدت!».

قطع الكائن خطوة مُتردّدة مرتبكة نحو أوفيليا وهو يفرد أصابعه الشاحبة التي تنتهي بمخالب

مكتبة ياسين

كالجذور. كان هائل الضخامة حقًا، أطول من الرجل العادي بفارق كبير. أما ساقاه اللتان تنتهيان بالأظلاف، فكانتا أشبه بساقي التيس الخلفيتين. أما عيناه اللتان تليقان بالقطط، فكانتا زرقاوين، زرقتهما شاحبة، وكأنهما قطعتان مسروقتان من السماء، في حين كادت تتعذّر رؤية حدقتيه. أما بشرته فبدت كلحاء الشجر المُشقّق، المهلهل، وكأنه قد أمضى قرونًا بالأسفل، في الانتظار...

راحت الجنيّة تغرّد زهوًا. لقد سلّمت الفتاة، كما أمر سيّدها.

- «انظرا! انظرا من أحضرت أختكما!»، قرقر وهو يفتح الحقيبة الخشبية التي علّقها بسير على جذعه.

وإذا جنيتان بالهيئة التي نسخَتها أختهما عن صفحات الكتاب ترفرفان بأجنحتهما خارجتَين من الحقيبة. ضحك سيّدهما ذو القرنَين جذلًا عندما طافت الجنيّات كلهن حولها، بينما تشبّثت أوفيليا أكثر فأكثر بالكنزة التي ارتدتها فوق ثياب النوم في الهواء البارد الرطب الذي ملأ البئر. لا عجب أن سيّد الجنيّات كان مُتصلّبًا في حركته إلى هذا الحد. مع أنه ربما كان هرِمًا وحسب. بدا هرِمًا. طاعنًا في العمر.

- «اسمي أوفيليا»، قالت، وهي تحاول بأفضل ما تملك أن تبدو شجاعة، لا تشعر بأدنى رهبة من القرنَين ولا من هاتَين العينَين الزرقاوين الغريبتَين. «من أنت؟».

- «أنا؟»، أشار الكائن إلى صدره المُتآكل. «ها!»، ثم لوّح بيده وكأنما الأسماء أدنى الأشياء أهمية في العالم بأسره. «بعضهم يسمّيني پان. وإن كانت لي أسماء عديدة!». قطع خطوات مُتيبّسة أخرى.

مكتبة ياسين

«أسماء عتيقة لا يقدر على النطق بها سوى الريح والأشجار...».

توارى خلف القائم الحجري، ولكن أوفيليا ما زالت قادرة على سماع صوته، صوته الغليظ الخشن الأسر.

- «أنا الجبل، أنا الغابة، أنا الأرض. أنا... أررررر...». أطلق ثغاءً لا يختلف عن ثغاء التيس، وتراءى هرمًا وشابًا في آنٍ حين مثل أمامها مرةً أخرى. «أنا...» -هزّ أطرافه وهو يخور مثل كبشٍ عجوز- «أنا فاون! وأنا خادمك الأكثر تواضعًا يا صاحبة السموّ، كما كنتُ منذ الأزل، وسأبقى إلى الأبد».

عجزت أوفيليا عن الكلام حين خفض رأسه ذا القرنيْن، وجسده يحدث صريرًا من فرط الجهد، وحيّاها بانحناءة شديدة. «**صاحبة السموّ؟**». أوه، لا. لقد خلط بينها وبين شخص آخر. طبعًا. كان عليها أن تعرف أنه مُجرّد خلط! وإلّا فلماذا تحضر إليها جنيّة، وهي لا تعدو أن تكون ابنة خيّاط؟

- «كلا!»، استطاعت أن تقول أخيرًا، وهي تتراجع. «كلا، أنا...».

رفع الفاون رأسه وفرد ظهره الفتيبّس.

- «أنت الأميرة موانا...».

- «كلا، كلا!»، احتجّت أوفيليا. «أنا...».

- «ابنة ملك العالم السفلي»، قاطعها الفاون.

عمّ يتحدّث؟ أخافت كلماته أوفيليا بأكثر مما أخافها الليل أو ذلك المكان الذي يبعد كثيرًا عن الفراش الذي دفْأه جسد أمها. إن السحر الحقيقي شيء مخيف، مع أننا قد نتوق إليه.

- «كلا! كلا!»، اعترضت مرة أخرى. «اسمي أوفيليا. أمي خيّاطة، وأبي كان خيّاطًا. يجب عليك أن

مكتبة ياسين

تصدّقني».

شعرت أوفيليا بأن صبر الفاون قد نفد حين هزّ رأسه ذا القرنين بقوة، وإن استطاعت أن ترصد آثار التسلية ظاهرة على وجهه ذي الأشكال.

- «لغو فارغ، يا صاحبة السمو، فأنت...»، أشار إليها بأصابعه ذات المخالب. «أنت لم تولدي من رحم بشرٍ. وإنما وُلدتِ من القمر».

أومأت الجنيّات برؤوسهن الصغيرة في حيوية. وإذا بشعاع من نور القمر يشقُّ طريقه إلى جوف البئر وكأنه يريد أن يقدّم دليلًا على صدق الفاون، راسمًا إطارًا فضيًا لأجنحة الجنيّات.

- «انظري إلى كتفكِ اليسرى...»، قال الفاون. «تجدي علامةً تثبت ما أقول».

حدّقت أوفيليا إلى كتفها اليسرى، ولكنها لم تجرؤ على إزاحة الثياب لكشف بشرتها. لم تكن متأكّدة أي الأمرَين أشدّ رهبةً: أن يكون الفاون قد تكلّم بالصدق أم بالكذب.

«أميرة!».

- «لقد أمزنا والذكِ الحقيقي بأن نفتح بوابات عبور في جميع أنحاء العالم للسماح لكِ بالعودة. وهذه آخر بوابة». أشار الفاون إلى المكان حيث وقفا. «ولكن قبل السماح لك بالعودة إلى مملكته يجب علينا التأكّد أن جوهرك لم يُمسَ، وأنك لم تصبحي فانية. ولكي تثبتي هذا...»، مدّ يده إلى الحقيبة المعلّقة بجذعه مرة أخرى. «لا بدّ أن تنفّذي ثلاث مهمات قبل اكتمال القمر».

تراءى الكتاب الذي أخرجه أكبر كثيرًا جدًا من أن تكون الحقيبة قد اتّسعت له في أي وقت. كان مُجلّدًا بالجلد البني.

مكتبة ياسين

- «إنه كتاب مفترقات الطرق»، قال الفاون وهو يناول أوفيليا الكتاب الثقيل. بينما الخطوط المرتسمة على جبينه تدور وكأنها أشكال رسمتها الريح والأمواج. «لا تفتحيه إلّا وأنت وحدك...».

أما الجراب البني الصغير الذي أعطاها إياه بعد ذلك، فصدرت عنه خشخشة عندما هزّته أوفيليا، ولكن الفاون لم يقُل لها ما العمل بهذا الجراب. وإنما اكتفى بمراقبتها بعينيه الشاحبتين الزرقاوين.

- «سوف يخبركِ الكتاب بمستقبلك...»، قال وهو يخطو متراجعًا إلى الظلال. «وبما يجب عليكِ عمله».

كان الكتاب في غاية الضخامة، حتى كادت أوفيليا تعجز عن حمله. وأوشك على الانفلات من بين يديها حين تمكّنت من فتح دفتيه أخيرًا. بدت الصفحات التي نظرت إليها خاوية.

- «الكتاب خالٍ من الكتابة!»، قالت.

ولكن، حين رفعت عينيها، كان الفاون قد اختفى، والجنيّات أيضًا. ولم تغد هناك إلّا سماء الليل فوق رأسها وأشكال المتاهة تحت قدميها.

مكتبة ياسين

7

أسنان الشفرة

كانت شفرة بيدال أداة عجيبةً، بنصلها اللامع الذي يفوق أسنان الذئب حدّةً، ومقبضها العاجي، وفولاذها ألماني الصنع. أخذ بيدال الشفرة من واجهة متجر منهوب في برشلونة، متجر فاخر كان يبيع أغراض السادة النبلاء: أطقم السفر، وأدوات الحلاقة، والغلايين، والأقلام، والأمشاط المصنوعة من أصداف السلاحف. ولكن تلك الشفرة لم تكُن عند بيدال مُجرّد أداة من أدوات الحلاقة يومًا. بل كانت أداة تسمح للرجل بأن يمزُق وينهش. كانت الشفرةُ مخالبه، وأسنانه.

كم أن البشر كائنات هشّة! لا فراء لها ولا حراشف تحمي لحم البشر الرقيق. ولذا كان بيدال يحرص حرصًا عظيمًا على أن يجعل من نفسه وحشًا أشدّ خطورة في كل نهار. وبينما تنساب الشفرة على وجنتيه وذقنه، كانت حدّتها تتسلّل إلى نفسه لتصير جزءًا منه. في واقع الأمر، كان يروق لبيدال أن يتخيّل الشفرة وهي تكشط قلبه مرة تلو أخرى، وتجعله معدنيًا. أحبّ مراقبة النصل وهو يضفي على وجهه النظام والبريق اللذين يفتقر إليهما هذا المكان، هذا المنفى. لن ينال راحة حتى تغدو هذه الغابة القذرة كالوجه الحليق النظيف الذي يراه في المرآة كلما أدّت الشفرة مهمتها.

نظام. وقوة. وبريق معدني جميل. أجل، تلك هي الأشياء التي سوف يجلبها بيدال إلى هذا المكان.

كم يسهل على النصال أن تقطع البشر والأشجار.

بعد الاعتناء بوجهه، حان وقت تلميع البيادة، بالطبع. لمّعها بيدال بإتقان حتى انعكس ضوء النهار

مكتبة ياسين

على الجلد. في سوادها البرّاق، همست البيادة قائلةً: «**الموت!**». وبينما راح بيدال يتنشّق دخان سيجارته الأولى، تخيّل دبيب البيادات الزاحفة وقد امتزج بالموسيقى التي يريقها الفونوغراف الخاص به في النهار، على نحوٍ يُدخل إلى النفس سروزًا. كانت الموسيقى التي ينصت إليها لعوبًا، غريبةً في اختلافها عن الشفرة والبيادة، ما يشي بأن القسوة والموت مُجرّد رقصة في عرف بيدال.

وفيما راح بيدال يضفي على البيادة آخر لمسة من البريق، جاءت مِرثيديس إلى الداخل تحمل القهوة والخبز.

لم تملك سوى التحديق إلى الأرنبَين الهزيلَين المُمدّدَين على المكتب بالقرب من ساعة الجيب التي نُبّه الجميع إلى عدم المساس بها أبدًا. أمضت خادمات المطبخ نهارهن كاملًا في الثرثرة بشأن ما فعل بيدال بالصائدَين اللذين كانا يبحثان عن الطعام من أجل أسرتهما. الأب والابن. رفعت مِرثيديس فنجان القهوة المعدني عن الصينية وأودغته بين الأرنبَين. أي قسوة غاشمة. لقد رأت قسوة مفرطة في هذا المكان. في بعض الأحيان، كانت تسائل نفسها، هل صارت القسوة تغطّي قلبها الآن كالعفن!

- «مرثيديس»، كان كلما هتف باسمها جاء نداؤه كالوعيد، مع أنه عادةً ما يتحدّث إليها بصوت ناعم يذكّرها بالقطّ الذي يداري مخالبه تحت الفراء المخملي. «أعدّي هذين الأرنبَين على العشاء في الليل».

التقطتهما وتفحّصت الجسدَين النحيلَين.

- «إنهما أصغر مما يسمح بإعداد وجبة جيدة».

أين الفتاتان المريضتان اللتان يُفترض بهما أن تتغذّيا على هذين الأرنبَين؟ تساءلت. في الباحة،

مكتبة ياسين

قلّد أحد الجنود الرجل العجوز وهو يتوسّل من أجل حياة ابنه. انطلق يضحك وهو يصف كيف أرداهما بيدال قتيلين. هل وُلدوا بتلك القسوة، كل أولئك الجنود الذين يمزّقون ويحرقون ويقتلون؟ كانوا أطفالًا في يوم من الأيام، مثل أوفيليا. شعرت مرثيديس بالخوف عليها. الفتاة أكثر براءة مما يلائم هذا المكان، وأمّها لن تملك القوة الكافية لحمايتها. إنها واحدة من أولئك النساء اللاتي يفتّشن عن القوة في الرجال بدلًا من العثور عليها في قلوبهن.

- «حسنًا»، قال بيدال. «أعدّي قدحًا من الحساء إذن، ولحم السيقان الخلفية».

- «حسنًا سنيور»، أرغمت مرثيديس نفسها على النظر إلى عينيه مباشرةً. ولم تخفض عينيها لمّا نهض عن كرسيه، على الرغم من خوفها أن يلمح فيهما الكراهية. لو خفضت عينيها، فربما قرأ تلك اللفتة على أنها خوفٌ وشعور بالذنب، وذلك أشدّ خطورةً بفارق كبير. لأن الشعور بالذنب قد يثير في نفسه الريب، والخوف قد يجعله متعطّشًا للمزيد.

- «لقد احترقت هذه القهوة قليلًا». كان يروقه أن يقف على مقربة منها. «تذوّقي بنفسك».

تناولت مرثيديس الفنجان المعدني الأسود بيسارها، وهي ما زالت تحمل الأرنبين بيمينها. كائنان صغيران كلاهما ميت. «**وقريبًا تصبحين ميتة مثلهما يا مِرثيديس**»، همس قلبها. «**لو استمررتِ في ما أنتِ فاعلة**».

راح بيدال يراقبها.

- «يجب عليك أن تشرفي على تلك الأمور كلها يا مرثيديس، فأنت مُدبّرة المنزل».

وضع يده شديدة النعومة والنظافة على كتفها. تمنّت مرثيديس لو أن ثوبها أثخن حين مزر يده

مكتبة ياسين

على ذراعها ببطء. كان النسيج مهترئًا إلى الحدّ الذي جعلها تحسّ بأصابعه على بشرتها.

- «حسب مشيئتك، سنيور».

كانت شهية بيدال مفتوحة للنساء، وإن علمن جميعًا أنه يزدريهن. تساءلت مرثيديس إن لم تنتبه أمّ أوفيليا إلى الاحتقار الساكن في عينيه حين ضمّها بين ذراعيه.

لم ينادها بيدال كي تعود حين خرجت من الحجرة، ولكن مرثيديس أحسّت بنظرته بين كتفيها وكأنها طرف السكين.

نزلت بالأرنبين إلى المطبخ وأخبرت ماريانا، الطاهية، بأن الكابتن قد تذمّر بشأن القهوة.

- «ما هو إلّا صبي مُدلّل!»، قالت ماريانا.

ضحكت الخادمات الأخريات. روسا، وإميليا، وباليريا.. لم تملك أغلبهن سببًا للشعور بالخوف من الكابتن، فقلّما تلتقيه الخادمات شخصيًا. لم يرغبن في رؤية أفعال الكابتن ورجاله. وتمنّت مرثيديس لو كانت بالقدر نفسه من العمى. ولكن ربما رأت النساء الأكبر عمرًا أكثر مما يسمح لهن بالاستمرار في الاكتراث.

- «نحتاج إلى دجاجة أخرى وبعض اللحم من أجل العشاء». ملأت مرثيديس دلوين بالماء المغلي الذي أعدّته إحدى الخادمات. إذ طلبت والدة أوفيليا إعداد الحمام للاغتسال.

- «دجاجة أخرى وبعض اللحم؟ أين يُفترض بنا أن نجد هذا؟»، قالت ماريانا هازئة.

كانت من قرية قريبة، ولها ابنان في الجيش، ويروقها أن تقول إن «الرجال يرغبون في القتال. هكذا وُلدوا». وإنهم لا يأبهون للغاية التي يقاتلون

مكتبة ياسين

من أجلها. ولكن ماذا عن النساء؟

- «لقد دعاهم جميعًا»، قالت مرثيديس. «الكاهن، والجنرال، والطبيب، والعمدة وزوجته أيضًا.. يجب علينا أن نطعمهم جميعًا».

- «إنهم أشدّ نهمًا من حظيرة ملأى بالخنازير الجائعة!»، صاحت فيها الطاهية بينما كانت مرثيديس تحمل الدلوين ماضيةً بهما إلى الدرج.

ضحكت الخادمات جميعًا وهن يمسحن دماء الأرنب عن الطاولة.

لم يرغبن في المعرفة.

مكتبة ياسين

8
أميرة

لم تخبر أوفيليا أمّها بأمر المتاهة أو الفاون. شعرت بقرب شديد منها قبل أن تحضر الجنيّة لتصحبها. ولكن كلمات الفاون تردّدت في عقلها وهي تزحف عائدةً إلى الفراش الدافئ، فاستلقت أوفيليا في الحجرة المعتمة ناظرةً إلى وجه أمّها، مُتسائلةً، لعلها لم تكُن ابنتها؟

«**الهلال. أمّي**».

شعرت بذنب شديد حين سطع ضوء الشمس الشاحب من خلال النوافذ التي يكسوها الغبار وابتسمت لها أمّها طابعةً قبلةً على جبينها، وكأنها تتمنّى لو طردت تلك الخواطر بالقبلات.

«**لا تخونيها!**»، قالت أوفيليا لنفسها بينما راحت مرثيديس وخادمة أخرى تملآن المغطس بالماء الذي تتصاعد منه الأبخرة في الحمام المُلحَق بالحجرة. «**إنها وحيدة للغاية! وحيدة مثلي...**». بدا المغطس وكأن أحدهم قد جاء به من بيتٍ أفخم كثيرًا في المدينة. دُمّر كثير من تلك البيوت في الحرب التي أودت بحياة أبيها أيضًا، وكانت أوفيليا تلعب في الأطلال مع أصدقائها أحيانًا كثيرة، متظاهرين بأنهم أشباح الأطفال الذين سبق أن عاشوا في تلك الحجرات المهجورة ذات يوم.

- «الحمام ليس من أجلي. بل من أجلك أنت يا أوفيليا! انهضي!».

ابتسمت لها أمّها، ولكن أوفيليا عرفت أن تلك الابتسامة كانت للذئب. أرادت لابنتها أن تكون نظيفة، مُهندَمة، بشعرها المصفّف، وحذائها اللامع، من أجله هو. كانت أمّها، متى اقترب منها الذئب،

مكتبة ياسمين

يتجلّى في عينيها بريق وفي وجنتيها وهجٌ، مع أنه لا يكاد يلقي إليها بالًا.

كانت أوفيليا تتوق إلى أن تخبر مرثيديس بأمر الفاون، ربما لأنها قد حذّرتها من المتاهة، أو لأنها تملك أسرارًا خاصة بها. في عينَي مرثيديس، تجلّت معرفةٌ بالعالم، معرفةٌ لم تجدها أوفيليا في عينَي أمّها.

- «أوفيليا!».

في صباح ذلك اليوم، بدت أمّها كالعروس في ثوبها الأبيض. مرة أخرى، جلست على الكرسي المتحرّك، وكأنما الذئب قد سرق قدمَيها. لقد جعلها عاجزة. كانت من عادة أمّها أن ترقص في المطبخ وهي تطهو الطعام. لطالما أحبّ والد أوفيليا رقصها. كانت أوفيليا تجلس على ساقَيه، ويشاهدانها معًا.

- «الليلة يقيم والدك مأدبة عشاء. انظري ماذا صنعتْ من أجلك!».

كان الثوب في يدي أمّها أخضر بلون الغابة.

- «هل أعجبكِ؟»، ربّتت على القماش الحريري. «كم كنتُ أتمنّى لو كان لديّ ثوبٌ أنيق كهذا وأنا في مثل عمرك! لقد صنعتْ للثوب منزرًا أبيض اللون أيضًا. وانظري إلى هذا الحذاء!».

كان الحذاء أسود لامعًا مثل بيادات الجنود. لا الحذاء ولا الثوب كانا ينتميان إلى الغابة، على الرغم من لونه الأخضر.

- «هل أعجبك؟»، ائسعت عينا أمّها مفعمتين بالإثارة. بدت تؤاقة إلى إرضاء الآخرين وكأنها فتاة صغيرة مُعنّفة. شعرت أوفيليا بالحرج والأسف لها.

- «نعم يا ماما»، همهمت. «نعم. إنه في غاية الجمال».

مكتبة ياسين

بدت عينا أمّها أشدّ حذرًا. «**ساعديني**»، توسّلت عيناها. «**ساعديني حتى أرضيه**». ما جعل أوفيليا تحسّ بالبرد القارس. وكأنها قد رجعت إلى المتاهة، حيث الظلال المتساقطة عن جدرانها تلقي على قلب الفتاة عتمةً.

- «اذهبي الآن»، خفضت أمّها عينيها، وأجفانها مثقلة بخيبة الرجاء. «اغتسلي قبل أن يبرد الماء».

كل هذه الدرزات...

أمضت كارمن ساعات طوالًا جدًا وهي تحيك ذلك الثوب، حتى إنها لم ترغب في رؤية الحقيقة في عيني ابنتها: حقيقة أنها لم تصنع الثوب من أجل أوفيليا، بل من أجل الرجل الذي طلبت من ابنتها أن تناديه «أبي»، مع أن ذلك اللقب مِلك لرجل راحل.

كلنا يصنع حكاياته الخرافية. «**سوف يجعله الثوب يحبّ ابنتي**»، هكذا كانت الحكاية التي روتها كارمن كاردوسو لنفسها، وإن عرف قلبها أنه لم يأبه لغير الطفل الذي لم يولد بعد، الذي كان بيدال أباه. إنه لشيء مُروِّع أن يخون المرء طفلَه من أجل حبٍّ جديد. راحت أصابع أمّ أوفيليا ترتجف وهي تفتح أزرار الثوب، والابتسامة لا تزال على وجهها، مُتظاهرة بأن الحياة والحبّ يسيران كما تتمنّى لهما.

امتلأ الحمام بأستار بيضاء من البخار الذي شعرت به أوفيليا دافئًا رطبًا على بشرتها حين أوصدت الباب خلفها. بدا المغطس وكأنه قارب من البورسلين الأبيض يلقى المرء بالترحاب، مُتأهّبًا للإبحار إلى القمر، وإن لم يكُن الحمام الساخن هو السبب الذي جعل أوفيليا ترغب في البقاء وحدها أخيرًا.

كانت أوفيليا قد أخفت كتاب الفاون والجراب الصغير خلف مدفأة الحمام في الليلة الماضية،

مكتبة ياسين

خشية أن تعثر عليهما أمّها. إنه سرّها الخاص، وبخلاف نفور أمّها من الكتب، كانت أوفيليا تخشى أن تفقد هديةُ الفاون سحرها لو رآها أو لمسها شخص آخر، كائنًا من كان.

كادت لا تقوى على الإمساك بالكتاب الثقيل على ساقيها حين جلست على حافة المغطس. أحسّت بدفّتيه الجلديتين وكأنهما لحاء شجرة مُتأكل. ما زالت الصفحات خاوية، ولكن أوفيليا عرفت أن تلك الحال سوف تتبدّل، بطريقة ما، فكل الأشياء المهمة تتخفّى عن الأنظار. كانت أوفيليا لا تزال صغيرة إلى الحدّ الذي يسمح لها بأن تعرف ذلك.

وبالفعل، بدأت إحدى الصفحات البيضاء تنزف حبرًا بنيًا وأخضر في تلك اللحظة، عندما لمستها أوفيليا. وإذا برسم غلجوم ينبثق من الصفحة اليمنى، متبوعًا برسم يد، فمتاهة. بدأت الأزهار تغطّي حواف الصفحة، وتشكّلت في المنتصف صورة شجرة عتيقة معقوفة، التوى فرعاها الخاليان من الأوراق وكأنهما قرنان، أما جذعها فكان مشطورًا، أجوف.

أمعنت النظر إلى أوفيليا فتاةٌ جاثية على ركبتَيها، حافية القدمين، ترتدي ثوبًا أخضر ومئزرًا أبيض مثل الثياب التي صنعتها أمُّ أوفيليا. ما كادت تكتمل الصورة المرتسمة على الصفحة اليمنى حتى بدأت حروف باللون البني الداكن تملأ الصفحة اليسرى، مكتوبة على الطراز القديم، وكأن رسّامًا خفيًا يكتبها بفرشاة صُنعت من ذيل حيوان الدّلق. بدت الحروف غاية في الجمال، حتى لم تملك أوفيليا سوى الإعجاب بها للحظات، ثم بدأت تقرأ:

«في مرآة من المرات،

بينما الغابة لا تزال في ريعان الشباب،

مكتبة ياسين

كانت موطنًا لكائنات

ملأى بالسحر والعجب...».

- «أوفيليا!»، طرقت أمّها الباب. «أسرعي! أريد أن أرى الثوب عليك. أريدك أن تكوني جميلة. من أجل الكابتن».

خيانة...

وقفت أوفيليا أمام المرآة، التي غطّى البخار صفحتها الزجاجية تاركًا صورة الفتاة مُغبْشة. أزاحت أوفيليا روب الحمام عن كتفها اليسرى.

- «ستبدين كالأميرة!»، صاحت أمّها عبر الباب.

حدّقت أوفيليا إلى صورتها المنعكسة على المرآة.

وهناك رأت: هلالًا محاطًا بثلاث نجوم، كلّها يبدو جليًا، وكأن أحدهم قد رسمها على بشرة أوفيليا بالحبر البني الداكن الذي ملأ صفحات الكتاب. لقد صدق الفاون.

- «أميرة»، همست أوفيليا.

نظرت إلى صورتها المنعكسة.

وابتسمت.

مكتبة ياسين

9

حليب ودواء

طبقًا، سيكون هناك ما يكفي من الطعام للحضور الذين دعاهم الكابتن إلى العشاء. لقد حرص جنوده على ذلك، وجميع الحاضرين في المطبخ يعرفون الوسيلة. سوف تتضوّر بعض العائلات المحلية جوعًا طوال بضعة أيام، ولكن أي شيء يمكن أن يُقال متى طرق الجنود الباب مطالبين بالدجاجة الأخيرة أو حبّات البطاطس التي خبّأها المُزارِع من أجل أطفاله؟ شعرت مِرثيديس بخزي شديد وهي تخرط الخضراوات مع باقي الخادمات. هكذا تستخدم النساء السكين: لقطع الطعام من أجل الرجال الذين يقتلون بسكاكينهم... يقتلون أزواج أولئك النساء، وأبناءهن، وبناتهن.

كان السكين الذي راحت تخرط به البصل كالسكاكين التي تحتفظ بها أغلب خادمات المطبخ بين طيات مآزرهن، أسفل البطن تحديدًا، في موضع آمن، في متناول اليد دائمًا: كان للسكين نصل قصير من الفولاذ الرخيص، يبلغ طوله ثلاث بوصات بالتقريب، ومقبض بالٍ من الخشب.

لم تستطع مرثيديس أن تحوّل عينيْها عن النصل. ما زالت تذكر يد الكابتن على ذراعها. ماذا لو لم يفلتها ذات يوم؟ من الفوْكّد أن الأخريات لم يحدسن بأفكارها حين لفْت منزرها الفلطْخ حول النصل الرفيع. استغرقن في الضحك والنميمة حتى يتناسين الثياب العسكرية المُصطفّة بالخارج، ويتناسين أن أبناءهن يتقاتلون فيما بينهم. ربما كُنّ على حقّ. ربما كانت الحياة أكثر من ذلك، فما زال سكون الغابة ودفء الشمس ونور القمر على

مكتبة ياسين

قيد الوجود. تاقت مرثيديس إلى الانضمام إليهن في ضحكاتهن، ولكن قلبها قد أدركه تعبٌ بالغ، واستحوذ عليه الخوف منذ أمدٍ بعيد.

- «احرصي على تنظيف هذه الدجاجات كما ينبغي»، قالت. «ولا تنسي الفاصوليا».

جاء صوتها أشدّ غلظةً مما كانت تنوي، وإن لم تنتبه إليها الأخريات على كل حال، إذ ابتسمن جميعًا ناظرات إلى أوفيليا التي وقفت على أعتاب المطبخ بالثوب الأخضر والمئزر الأبيض اللذين كوتهما مرثيديس بالعناية التي وضعتها أمُّ أوفيليا في صنعهما. جعلت الثيابُ أوفيليا تبدو وكأنها شخصية من كتاب أحبّته مِرثيديس في الطفولة. كانت أمُّها تُحضِر الكتب إلى البيت من أجل مِرثيديس وشقيقها في كثير من الأحيان. كانت مُعلِّمة، ولكن كتبها كلها لم تقدر على أن تحميها عندما حرق الجنود قريتهم، وأكلت ألسنة اللهب أمّ مِرثيديس وكتبها معًا.

- «تبدين رائعة يا فتاة!»، صاحت الطاهية. «جميلة حقًّا».

- «أجل! يا له من ثوب جميل!»، قالت روسا وقد رقّ وجهها مفعمًا بالحنان. كانت لها ابنة في عمر أوفيليا. ولقد ذكّرتهن الفتاة جميعًا بأبنائهن وأحفادهن، والبنات اللاتي كنّ ذات مرة.

- «عدن إلى العمل! كفاكن إهدارًا للوقت»، نهرتهن مرثيديس، مع أنها شعرت بالحنان في قلبها أيضًا.

سارت إلى أوفيليا، وبرقّةٍ فردت ياقة ثوبها. كانت أمُّها خياطة موهوبة حقًّا. وللحظة ألقى الثوب الذي صنعته من أجل ابنتها سحرًا على مطبخ الطاحونة العتيقة – الثوب ووجه الفتاة المضيء، الذي أشرق بالسعادة والجمال وكأنه زهرة ناضرة متفتّحة. أجل،

مكتبة ياسين

للحظةٍ أمنّ كلهن بأن العالم قد عاد مسالمًا أمنًا مرة أخرى.

- «أتريدين بعض الحليب المحلّى بالعسل؟».

أومأت أوفيليا فمضت بها مرثيديس إلى الخارج حيث تقف البقرة ذات اللون البني تحت الأشجار، بضرعها الصلب الممتلئ بالحليب، الذي انساب دافئًا أبيض اللون على أصابع مرثيديس وهي تملأ الدلو.

- «ارجعي إلى الخلف»، قالت لأوفيليا برقة. «لا يمكننا أن نسمح بتساقط الحليب على ثوبك الذي يجعلكِ تبدين كالأميرة».

في تردُّد، رجعت أوفيليا خطوة إلى الوراء.

- «مِرثيديس، أتؤمنين بالجنيّات؟»، سألَت وهي تربّت على خاصرة البقرة الناعمة.

اعتصرت مِرثيديس ضرع البقرة مرة أخرى.

- «كلا. ولكني آمنتُ بها في طفولتي. آمنتُ بأشياء كثيرة لم أعُد أؤمن بها».

خارَت البقرة نافدة الصبر. كانت تريد أن تُطعِم صغارها، لا البشر. هدّأت مِرثيديس من روعها بيدَيها، وبكلمات رقيقة.

نسيت أوفيليا أمر الثوب والحليب، فوقفَت إلى جوارها.

- «في الليلة الماضية زارتني جنيّة»، قالت برقة.

- «حقًّا؟»، غمست مرثيديس وعاء صغيرًا في الدلو كي تملأه بالحليب الدافئ.

أومأت أوفيليا وقد اتّسعت عيناها.

- «أجل. ولم تكُن وحيدة! بل كانت هناك ثلاث جنيّات. وفاون أيضًا!».

- «فاون؟»، استقامت مرثيديس.

مكتبة ياسين

- «أجل. كان عجوزًا... طويلًا، نحيفًا للغاية». رسمت أوفيليا بيديها شكلًا ضخمًا في الهواء. «كان عجوز الشكل والرائحة... تنبعث منه رائحة رطوبة، كالأرض حين يبلّلها المطر... قريبة من رائحة هذه البقرة قليلًا».

«**أريدكِ أن تعرفي هذا يا مِرثيديس**»، بدا وكأنها تقول بعينيها. «**أرجوكِ، صدّقيني**». من الصعب أن تكون للمرء أسرار لا يمكنه البوح بها لأحد، أو الإيمان بحقيقة لا يرغب الآخرون في رؤيتها، كما عرفت مرثيديس تمام المعرفة.

- «فاون»، ردّدت. «لقد نبّهتني أمي إلى الاحتراس من كائنات الفاون، فهي قد تكون طيبة حينًا، وقد لا تكون طيبة حينًا...».

رسمت الذكرى على شفتيها ابتسامة، الذكرى والفتاة. غير أن الابتسامة تلاشت حين رأت الكابتن يسير نحوها وإلى جواره واحد من ضبّاطه. وسرعان ما امتلأ العالم بالظلال.

- «مِرثيديس!».

قابل الفتاة بالتجاهل التام، حتى كاد يحمل مرثيديس على الاعتقاد للحظةٍ بأن أوفيليا لم تكُن هناك.

- «اتبعيني. أحتاج إليك في مخزن الغلال».

ذهبت معه. بطبيعة الحال. وإن كانت تودّ لو بقيت مع الفتاة والحليب الدافئ، بينما تنساب أنفاس البقرة على بشرتها.

كان بضعة جنود يفرغون حمولة شاحنة أمام مخزن الغلال.

بادر الملازمُ ميديم، الضابط المسؤول، كابتن بيدال بالتحية.

مكتبة ياسين

- «كابتن، لقد أحضرنا كل شيء. كما وعدنا». تراءى الزي العسكري للملازم جافًا نظيفًا وكأنه لدمية جندي. «طحين، ملح، زيت، دواء...»، مضى يعدّد القائمة وهو يقود المسيرة إلى داخل مخزن الغلال. «زيتون، لحم مُقدّد...». أشار إلى السلال والعلب مزهوًا، بينما امتلأت الأرفف المغبرة بالعبوات والصفائح.

تشمّم بيدال عبوة صغيرة مُغلّفة بالورق البني. كان يحبّ سجائره. ومشروباته الروحية أيضًا.

- «وإليك بطاقات حصص التموين». كانت دزينات البطاقات القليلة التي ناولها الملازم ميديم لبيدال من المقتنيات الثمينة في ذلك الزمن، عندما أضرمت الحربُ النار في المحاصيل، وعجز حتى المزارعون عن إطعام أطفالهم، لأن الجيش قد فرض سيطرته على البقية الباقية. كان يمكن إطعام أكثر من قرية بمحتويات الصناديق التي أحضرها رجال ميديم. ولكن مرثيديس لم تنظر إلى الصناديق التي حوت الطعام. بل إنها وقفت أمام كوم من الصناديق التي تحمل علامة الصليب الأحمر. دواء. دواء. أكثر مما يكفي لعلاج كل جرح تقريبًا. حتى جرح القدم.

- «مرثيديس». كان بيدال يفحص قفل مخزن الغلال. «المفتاح!».

أخذت مفتاحًا من سلسلة المفاتيح التي كانت في جيبها وناولته إياها.

- «أهذا هو المفتاح الوحيد؟».

أومأت برأسها.

- «سأحمله بنفسي من الآن فصاعدًا».

ومرة أخرى، حانت منه تلك النظرة الخاطفة. ماذا كان يعرف؟

مكتبة ياسين

- «كابتن!»، كان غارثيس، الضابط الذي راح ينادي من الخارج، نحيلًا كابن عرس، يبتسم للخادمات دائمًا.

تجاهله بيدال، وظلّ ينظر إلى مرثيديس ممسكًا بالمفتاح. جاءت نظرته فتوعّدة، مستفزّة، إذ راح يلعب لعبته الأثيرة: لعبة الخوف.

«**إنه يعرف**»، فكّرت مرة أخرى. «**كلا، إنه لا يعرف يا مرثيديس، فهكذا ينظر إلى الجميع**». تنفّست عميقًا حين دار على عقبيه ومضى إلى الخارج أخيرًا. «**تنفّسي يا مرثيديس**».

انضمّ بيدال إلى غارثيس، الذي كان يراقب الغابة عبر منظاره.

- «قد لا يكون شيئًا سيدي الكابتن»، سمعته مرثيديس يقول وهو يناول بيدال المنظار، وإن استطاعت أن ترى بعينيها المجزّدتين أثرًا خافتًا، يكاد يكون خفيًا، أثر دخان يتصاعد من ظلّة الأشجار راسمًا خطًا واهيًا في السماء الزرقاء.

خفض بيدال المنظار.

- «كلا. إنهم هم. أنا على يقين من ذلك».

وما هي إلّا لحظات حتى كان الجنود على صهوات جيادهم. بينما راقبتهم مرثيديس وهم يتوغّلون في الغابة. وحدهم الرجال يضرمون المواقد... الرجال الذين جاء الجنود لاصطيادهم.

«**تنفّسي يا مرثيديس**».

مكتبة ياسين

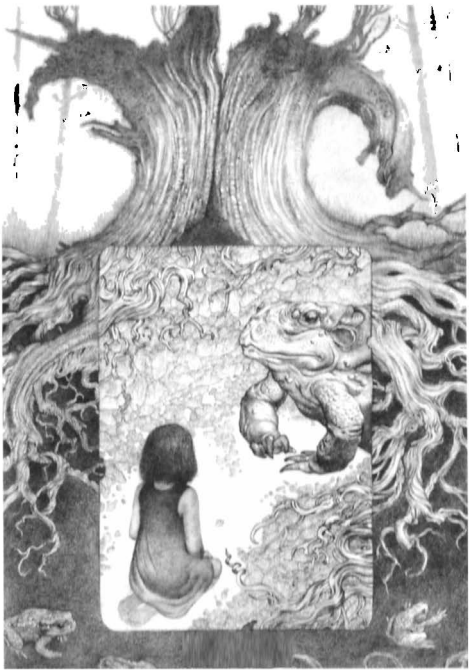

مكتبة ياسين

المتاهة

في مرة من المرات، كان هناك نبيلٌ يُدعى فرانثيسكو أيوسو، يحبّ الصيد في الغابة، على مقربة من قصره. كانت غابة قديمة، موغلة في القدم، أحسّ بين أشجارها بأنه في مقتبل العمر.

ذات يوم، كان أيوسو ورجاله يقتفون أثر أيل نادر، له فراء فضيٌ مثل نور القمر. فقد رجاله أثر الأيل قرب طاحونة عتيقة، وحين ترجّل أيوسو من جواده حتى ينعش جسده في بركة الطاحونة، وجد امرأةً في مقتبل العمر نائمة على الأرض، بين البقلات المائية والزنابق. كان شعرها فاحمًا كريشات الغراب، وبشرتها شاحبة كبتلات الوردة الأنصع بياضًا في حدائق قصره.

أفاقت مذعورةً حين لمس كتفها، وتراجعت مبتعدةً عنه، مختبئةً خلف شجرة، وكأنها غزال يطارده الصائدون. استغرق أيوسو بعض الوقت في إقناعها بنيّاته الحسنة. بدا وكأنها لم تأكل منذ أيام، فطلب من رجاله أن يحضروا لها الطعام. سأل عن اسمها، فأخبرته بأنها عاجزة عن التذكّر، ولذا اشتبه أحد جنوده في أنها قد تكون ضحية نجت بنفسها من «الرجل الشاحب»، ذلك الكائن الذي يجوب المنطقة ويختطف الأطفال من القرى المحيطة ثم يجرّهم إلى عرينه الواقع تحت الأرض.

لم يهرب من الرجل الشاحب إلّا ضحيتان، حسبما عرف الناس، فعادا بحكايات مُروِّعة عن أطفال يُلتهمون أحياء، ووحش في غاية البشاعة، إلى الحدّ الذي جعلهما لا يجرؤان على النوم خشية أن يلتقياه مرةً أخرى في الأحلام. وعلى الرغم من ذلك، اكتفت الفتاة بهزّ رأسها وقد ارتسمت على وجهها أمارات الغفلة التامة حين سألها أيوسو عن الرجل الشاحب،

مكتبة ياسين

فأعفاها من أي أسئلة أخرى، خشية أن يثير ذكريات كانت الفتاة من الحكمة بحيث تناستها.

بدا من الواضح أنها لا بيت لها، فدعاها أيوسو إلى قصره، وأعطاها حجرةً وثيابًا جديدة، كما سمّاها آلبا(6)، لأن ذاكرتها كانت خاوية كالورقة البيضاء. سرعان ما راحت تسير في الحدائق، وتنعم بالورد. وما هي إلّا أيام قليلة حتى لم يغد كلٌ منهما يتمنّى إلّا رفقة الآخر.

بعد ثلاثة أشهر، طلب فرانثيسكو أيوسو من آلبا أن تكون زوجته، فقبلَت، وهي التي أحبّت فرانثيسكو بقدر ما أحبّها. وبعد عام واحد، أنجبت ابنًا. أحبّت آلبا طفلها بحنان كما أحبّت زوجها، ولكنها كانت تشعر بحزن جارف كلّما نظرَت إلى الصغير، لأنها لا تستطيع أن تخبره مَن تكون أو مِن أين جاءت. صارت لا يهدأ لها بال، وبدأت تمضي الساعات هائمةً في الغابة أو جالسة على مقربة من بركة الطاحونة العتيقة.

في مكان لا يبعد عن الطاحونة، عاشت امرأة تُدعى روثيو، سُمع عنها أنها ساحرة. عاشت مع ابنتها وابنها في كوخ قريب من «الشجرة المشطورة»، التي قيل عنها إن علجومًا سامًا يسكن بين جذورها. تهامس الناس بشأن ترياقات روثيو التي كانت لها القدرة على أن تمنح الحبّ، أو العمر المديد، أو حتى القدرة على قتل العدو، لو شاء المرء ذلك، ولكن أكثر النساء اللاتي حضرن للقائها كن يطلبن مساعدة روثيو في التخلّص من حملٍ غير مرغوب، إذ لم يقدرن على إطعام أبنائهن الأحياء إلّا بمشقّة.

ذات مساء، رجع الجندي الذي عهد إليه أيوسو بتتبّع آلبا سرًا للحفاظ على سلامتها في الغابة وهو

مكتبة ياسين

يحمل خبرًا مفاده أنها تزور روثيو. شعر أيوسو باستياء شديد، فواجه آلبا، التي توسّلت إليه حتى يتفهّم أنها لم تطلب من روثيو إلّا أن تساعدها لتعرف من تكون. ولقد أخبرتها روثيو بأن جواب سؤالها لن يُكشف إلّا في ليلة اكتمال القمر، في المتاهة التي يجب أن تُقام خلف بركة الطاحونة، بأحجار من قرية قريبة، هجرها أهلها منذ اختطف الرجلُ الشاحب منها ثلاثة أطفال.

كان أيوسو يحبّ آلبا أكثر من كل ما عداها في العالم بأسره، ولذا أمر بإحضار الساحرة روثيو إليه حتى يعرف كيف يبني المتاهة على وجه التحديد. مضت به روثيو إلى المكان حيث تصوّرت المتاهة. أشارت إلى الأركان الأربعة بالأحجار، وعلى أرض الغابة رسمت خطوط الجدران بفرع صفصاف. كما أخبرت أيوسو بضرورة بناء بئر في منتصف المتاهة، وبها درجٌ يفضي إلى القاع. لم تزق لأيوسو الطريقة التي نظرت بها إليه. إذ شعر وكأنها قادرة على أن ترى رغباته الأشدّ ظلمةً بوضوح، وكأن قلبه من زجاج. زرعت في نفسه الخوف، ولذلك شعر نحوها بالاحتقار.

- «سأفعل كما تقولين»، قال لها. «أما لو جعلتِ مني أضحوكةً، ولو لم تعثر زوجتي على ما فقدت، فلسوف أمر بإغراقك في بركة الطاحونة».

أجابته روثيو بابتسامة.

- «أعرف»، قالت. «ولكن يجب على كلٍّ منا أن يؤدّي دوره، أليس كذلك؟».

ثم إنها مشت عائدةً إلى كوخها.

استغرق بناء المتاهة شهرين. ولم يستخدم غفال أيوسو إلّا أحجار القرية المهجورة، نزولًا عند توجيهات الساحرة، وهكذا بنى الغفال جدران

مكتبة ياسين

المتاهة والذرج والبئر كما وصفتها الساحرة على وجه الدقة.

اضطرّت آلبا إلى الانتظار سبع ليالٍ حتى طلع القمر فوق المتاهة وكأنه عملة فضية، ملقيًا بظلّ القوس الذي نحته الغفال ليكون بوابة المتاهة على أرض الغابة المفروشة بالأعشاب. زيّنوا القوس برأس كيرنونوس ذي القرنين، الإله الوثني الذي كان يعبده الناس في تلك الغابة ذات يوم. وقيل إن روثيو ما زالت تبتهل إليه.

أمضت آلبا ليلتها في المتاهة، من بعد المغيب وحتى مطلع الفجر، فمضت تسير عبر دروبها الملتوية، مع أن طفلها كان يبكي في حجرتها من أجل الحليب. لم يتبعها آيوسو خشية أن لا تكشف المتاهة الأجوبة التي كانت زوجته تتحرّق إليها باستماتة في حضوره. وإنما ظلّ يترقّب أمام المتاهة طوال الليل. وحين خرجت آلبا أخيرًا، رأى آيوسو على وجهها أنها لم تعثر على ما تبحث عنه.

وعلى مدى الاثني عشر شهرًا التالية، ظلّت آلبا تعود إلى المتاهة كل شهر، في ليلة اكتمال القمر، ولكنها لم تجد بين جدران المتاهة إلّا الصمت، فظل حزنها يشتدّ أكثر فأكثر. حتى جاءت ليلة لا قمر فيها من ليالي نوفمبر، حين أصيبت آلبا بمرض عضال. وماتت قبل أن يكتمل القمر مرة أخرى. لفظت آلبا النفس الأخير، وما هي إلّا ساعة حتى أرسل آيوسو خمسة من جنوده إلى كوخ الساحرة روثيو، فجرّوها عبر الغابة جرًا، ومضوا بها إلى بركة الطاحونة، مع أن الطحّان قد توسّل إليهم لئلّا تحلّ بطاحونته لعنةٌ بسبب فعلة من هذا القبيل. اقتضى الأمر ثلاثة رجال لإغراقها. ثم تركوا الجثة هامدة وسط أوراق الزنابق حتى تلتهمها الأسماك.

مكتبة ياسين

وبعد مضي خمسة عشر عامًا، دخل ابن ايوسو إلى المتاهة وهو يتمنّى لو عثر على أمّه هناك. غير أنه لم يَر مرة أخرى قطُّ.

أما نبوءة العرافة فاستغرقت مئتين وثلاثًا وعشرين سنة أخرى كي تتحقّق، إذ كشفت المتاهة اسم أمّه الحقيقي عندما طافت بدروب المتاهة العتيقة مرةً أخرى وقد عادت إليها فتاةٌ تُدعى أوفيليا.

مكتبة ياسين

10

الشجرة

كانت أوفيليا قد توغّلت في عمق الغابة حين سمعت أصوات جيادٍ آتيةً من الخلف. غير أن الجياد لم تكن مُتجهة إليها، وسرعان ما صار حفيف الأشجار أعلى من وقع الحوافر. مضت أوفيليا تقرأ كلمات الكتاب الذي أعطاها الفاون إياه وهي سائرة. كانت الكلمات أشدّ وأشدّ سحرًا تحت الأشجار، بينما راحت تقرؤها مرة تلو أخرى، وإن لم يسهل عليها السير ممسكةً بالكتاب المفتوح:

«في مرّة من المرات،

بينما الغابة لا تزال في ريعان الشباب،

كانت موطنًا لكائنات

ملأى بالسحر والعجب...»

مضت قدما أوفيليا على وقع الكلمات التي جاءت وكأنها ترسم دربًا خفيًا.

«كانت الكائنات تحمي بعضها بعضًا

وتنام في ظلّ تينةٍ عملاقة

طلعت فوق تلّةٍ قرب الطاحونة»

رفعت أوفيليا رأسها عن الكتاب، وهناك وجدت التلة. لم تكن حادة الارتفاع، إذ يمكن لأوفيليا أن تتسلّقها بخطوات قليلة، ولكن الحاجة تقتضي خمسة رجال لمعانقة الشجرة القائمة فوقها. كان الجذع مشطورًا، كما أظهر لها الكتاب على وجه التحديد.

«أما الآن، فها هي ذي الشجرة تحتضر

بفرعيها اليابسَين،

وجذعها القديم الملتوي».

مكتبة ياسين

رفعت عينيها ناظرةً إلى فرعين هائلين يبرزان من الجذع، يخلوان من الأوراق، كلاهما ملتوٍ وكأنهما قرنا الفاون.

ما زالت هناك كلمات أخرى في الكتاب. همست أوفيليا بالكلمات وعيناها تتابعان الحبر البني الباهت على الصفحات.

«بين جذور الشجرة، سكن علجوم وحشي
وأبى أن يسمح لها بالازدهار.
يجب عليكِ
أن تلقي الأحجار السحرية الثلاثة
في فم العلجوم».

فتحت أوفيليا الجراب الذي أعطاها الفاون إياه، فسقطت منه ثلاثة أحجار صغيرة في يدها. ثم جاء في الكتاب سطران آخران:

«استردّي المفتاح الذهبي من بطنه.
عند ذاك وحسب تزهر التينة مرة أخرى».

«من بطنه»... أغلقت أوفيليا الكتاب ونظرت إلى صدع الشجرة المفتوح. في الداخل، خيّم الظلام حالكًا. دسّت أوفيليا الأحجار الثلاثة في الجراب وخطت نحو الشجرة خطوةً، فانتبهت مذعورةً إلى أن الوحل قد غطّى حذاءها الجديد. في كتبها، كتب الحكايات الخرافية، لم يشغل الأبطال بالهم بشأن أحذيتهم أو ثيابهم قطّ. أما أوفيليا، فخلعت منزرها الأبيض وثوبها الأخضر الجديد وعلّقتهما على فرع، فلها أن تتخيّل جيدًا مدى استياء أمّها لو أتلفتهما أوفيليا. ثم خلعت حذاءها واقتربت من الشجرة. كانت الأرض باردة تحت قدميها الحافيتين، وجعلتها الريح تقشعرّ في ثوبها الداخلي الخفيف. كان الصدع مرتفعًا بما يسمح لها بالمرور، وإن

مكتبة ياسين

ضاق النفق الفمتدّ إلى ما وراء الصدع بشدّة حتى اضطرّت أوفيليا إلى الزحف على يديها وركبتيها.

وفي الخارج نزعت الريح شريط الثوب الجديد.

«**احذري**»، همس الشريط.

«**احذري يا أوفيليا**»، ترنّم.

ولكن أوفيليا مضت تزحف عبر النفق، خلال الأمعاء الخشبية الرطبة للشجرة المحتضرة. سرعان ما غطّى الوحل اللزج يديها وركبتيها، كما تشبّع به ثوبها الداخلي الذي اصطبغ بلون الأرض. طؤقتها جذور الشجرة من كل جانب، الجذور التي تضافرت في التربة المبلّلة واخترقت الأرض وكأنها مخالب كائن خشبي عملاق. زحفت قملات الخشب الضخمة كالفئران على ذراع أوفيليا، بينما غاص الوحل أسفل يديها وكأنما الأرض تتوق إلى التهامها.

بدا النفق ومتاهة الجذور بلا نهاية، ولكن أوفيليا أبت أن تتراجع. يجب عليها إنجاز المهمة التي كلّفها بها الفاون قبل اكتمال القمر، لو أرادت أن تثبت صدق الفاون له ولنفسها، لو أرادت أن تثبت أنها: موانا. الأميرة التي ينتظرها أبوها، وإن جعلها الموت تحسب أنها قد فقدته. لو لم تكن موانا، فمن تكون؟ ابنة الذئب الذي سرق قلب أمّها كاتبًا بعينيه حروف «القتل». توقّفت أوفيليا للحظةٍ منصتةً إلى أصوات الأرض وخفقات قلبها الذي يدقّ بعنف. ثم غاصت بيديها مرة أخرى في الوحل، مستمرةً في الزحف عبر النفق الذي لا ينتهي.

مكتبة ياسين

11

كائنات الغابة

لم يستغرق بيدال ورجاله طويلًا في العثور على بقايا نار المعسكر التي أرسلت الدخان الواشي إلى السماء. كان الدخان لا يزال يتصاعد من الأفرع حين ترجّل من جواده وجثا إلى جوارها على ركبتيه. استطاع أن يحسّ بالدفء حين خلع قفازه ليضع يده العارية فوق الجمرات.

أجل. كانوا هنا منذ أقل من عشرين دقيقة.

لا بدّ أن الفتمرّدين قد سمعوا صوتهم وهم قادمون. ذلك شيء مؤكّد. حدق بيدال إلى الأشجار وهو يتمنّى لو كان قادرًا على الصيد في صمتٍ كالذئب. لو تهيّأ له ذلك لكان قد مزّق أجسادهم ولعق دماءهم المسفوكة على الأعشاب المغطّاة برماد نيرانهم.

ركع غارثيس على ركبتيه إلى جوار الكابتن. أحبّ بيدال الإخلاص في عينَيه.

كان غارثيس ينصت إلى كل كلمة آتية من بين شفتيه بإخلاص كما يقرأ خادمُ الهيكل الكلمات على شفتي الكاهن الذي يرفع القدّاس.

- «دزينة من الرجال. لا أكثر». تعلّم بيدال من جدّه كيف يقتفي الأثر. أما أبوه فلم يعلّمه إلّا شيئًا واحدًا: أن أفظع الوحوش تسير على قدمين.

- «ماذا لدينا هنا؟»، نحّى بعض أوراق الأشجار الذابلة جانبًا. كانت عبوة صغيرة قد استقرّت وسط الأحجار المحيطة بموقد النار. من المؤكّد أنهم قد غادروا على عجل. تراءت له القوارير الزجاجية الثلاث، التي غُلّفت بالورق البنّي بعناية، مألوفةً. نهض بيدال واقفًا على قدميه. ورفع إحدى القوارير

مكتبة ياسين

تاركًا أشعة الشمس تتساقط على السائل الرائق. مضادات حيوية. ما يعني أن في صفوف المتمرّدين جريحًا، على الأقل. جيد.

- «سحقًا، انظر إلى هذا!»، التقط غارثيس قطعة صغيرة من الورق ملقاة على الأرض. «لقد فقدوا بطاقة يانصيب!».

ضحك.

ولكن بيدال أسكته بإشارة من يده. ثم خطا إلى الأمام خطوة وهو يرهف السمع. ما زالوا هناك. بيدال قادر على الإحساس بذلك. إن أولئك المتمرّدين، أبناء العاهرات، يراقبونهم! خطا خطوة أخرى، غير أنه لم يسمع إلّا أصوات الغابة. اللعنة!

- «اسمعوا!»، صرخ في الأشجار، ممسكًا بالقارورة. «لقد تركتم هذا خلفكم! وماذا عن بطاقة اليانصيب؟ لماذا لا تعودون لاستردادها؟ ومَن يدري؟ ربما كان هذا يوم حظكم».

لم يتلقَّ ردًا سوى تغريد أحد الطيور.

وحفيف الأوراق في مهبّ الريح.

كانت الغابة تسخر منه.

مرة أخرى.

كلا. دار بيدال على عقبَيه. لن يجعل من نفسه أضحوكةً بمطاردة أولئك الأوغاد عبْر تلك المتاهة الغادرة المؤلّفة من الأشجار. بل إنه سوف يترقّب أن يذهبوا إليه، لأنه يملك الطعام والدواء. والقوارير دليل على احتياجهم إليه.

كان بيدال على حقّ.

أخذت الفريسة تراقب.

في حين امتطى الجنود جيادهم ومضوا في أثر الكابتن عائدين إلى الطاحونة، والأشجار تلقي

مكتبة ياسين

عليهم ظلالها وتصبغ ثيابهم العسكرية بالأسود. بينما تخفّت دزينة من رجال يرتدون ثيابًا مهترئة فوق تلة مشرفة على موقد المعسكر المهجور. أخذوا يراقبون صائديهم الذين انطلقوا مبتعدين على صهوات جيادهم. في الوقت الراهن.

كاد بيدال يعثر عليهم في هذه المرة.

ولسوف يعثر عليهم مرةً أخرى.

مكتبة ياسين

12

العلجوم

تخلّت أوفيليا عن دفع قملات الخشب بعيدًا عن وجهها وذراعيها اللتين غطّاهما الوحل الثخين. شعرت بأنها سوف تزحف عبر أمعاء الأرض إلى الأبد. ها هي ذي الأميرة المفقودة -لو صدق الفاون- تبحث عن مملكتها السفلى. وجدت مشقّة أكبر فأكبر في التنفُّس، بينما لم يكشف النفق حتى الآن إلّا عن الظلمة. الظلمة، والجذور، والتربة المبلّلة، وجحافل من قملات الخشب. مَن كانت تخدمه؟ ما كادت أوفيليا تسأل نفسها ذلك السؤال حتى سمعت شيئًا يتحرّك خلفها، شيئًا ثقيلًا، هائل الضخامة.

نظرت من فوق كتفها المغطّاة بالوحل، فرأت علجومًا عملاقًا على بعد أقدام قليلة. كان جسده الذي تكسوه البثور ضخمًا كالبقرة، حتى إنه سدّ النفق بالكامل. صوّر كتاب الفاون ذلك الكائن على أكمل وجه، وإن بدا في الرسم أصغر كثيرًا!

- «مـ... مرحبًا»، تلعثمت أوفيليا. «أنا الأميرة موانا، وأنا...». التقطت نفسًا عميقًا. «أنا لست خائفةً منك».

لم تكُن تلك هي الحقيقة، بطبيعة الحال، ولكنها تمنّت أن يكون العلجوم عاجزًا عن قراءة الوجه البشري. من المؤكّد أن أوفيليا عجزت عن قراءة وجهه. انسلّ من جسده المنتفخ نقيق ممزوج بالتجشُّؤ، كما طرفت عيناه الذهبيتان، وكأن الوحش العملاق عاجز عن التصديق بأن كائنةً لا فراء لها، في غاية الهشاشة، قد زحفت قاطعةً تلك المسافة كلها وصولًا إلى عرينه.

أبقت أوفيليا عينيها على الكائن وهي تفتح الجراب وتترك الأحجار الثلاثة تتسلّل إلى راحة

مكتبة ياسين

يدها. انتشرت قملات الخشب في الوحل من كل جانب.

- «ألا تخجل؟»، سألته بصوت يرتجف أشدّ مما ترتجف ركبتاها الملتهبتان. «ألا تخجل من العيش هنا في الأسفل، حيث تلتهم كل هذه الحشرات وتسمن أنت بينما تموت الشجرة؟»، ضربت قملة كانت على ذراعها، في حين زحفت أخرى على خدّها.

وإذا بالعلجوم يردُّ سريعًا، مُطلِقًا لسانه العملاق اللزج الذي لطم به خدّ أوفيليا. التقط القملة بلسانه تاركًا لعابه يسيل على خدّ أوفيليا. ولكن الأدهى من ذلك أن أصابعها قد أفلتت أحجار الفاون!

ردّ العلجوم لسانه إلى فمه الفاغر، بينما راحت أوفيليا تفتّش عن الأحجار في الوحل باستماتة.

ضاق العلجوم كثيرًا بتلك الكائنة التي لا فراء لها.

كان مُتأكّدًا أن الشجرة هي التي أرسلَتها. زمجر العلجوم في غضب فاتحًا فمه، مُطلقًا على الدخيلة وابلًا من ذلك المخاط السام الذي يأكل قلب الشجرة الخشبي. أوه، أجل. من المؤكّد أنه سوف يأكل لحم تلك الزائرة المُتطفِّلة التي لا فراء لها. كان العلجوم في غاية الرضا عن نفسه.

لم تستسلم أوفيليا، على الرغم من المخاط السام الذي ألهب وجهها وذراعيها. وإنما فتحت يدها المرتجفة ورأت أنها قد التقطت من الوحل بعض قملات الخشب مع الأحجار، فراحت القملات تطوي أجسادها وتفردها في راحة يد أوفيليا. كانت تبدو أشبه بالأحجار إذا انطوت على نفسها.

- «أنت!»، نادته ممسكةً بالحشرات المُتلوِّية. لم تملك سوى الأمل في أن يلتقط العلجوم الأحجار والقملات التي جعلها الوحل تبدو كلها متشابهة.

مكتبة ياسين

مسح العلجوم شفتيه بلسانه، محدقًا بعينيه الذهبيتين إلى يدها الممدودة.

وأخيرًا!

ها هي ذي الدخيلة تُظهر شيئًا من الاحترام، على الأقل! كان في غاية الرضا، مع أن عطاياها متواضعة. راق للعلجوم أن يلتهم خُدّامه. ووجد لذة كبيرة في صوت القرمشة التي تصدر عن قملات الخشب عندما يسحقها بلثته الخالية من الأسنان.

أجل، سوف يقبل التقدمة.

لم تتحرّك أوفيليا عندما شقّ اللسان العملاق طريقه في الهواء كالسوط، ولف يدها بإحكام، حتى صارت على يقين من أن العلجوم سوف ينتزع يدها. وإن ظلّت يدها في مكانها حين سحب لسانه. ألقت أوفيليا نظرة على أصابعها التي يسيل منها اللعاب، فوجدت القملات والأحجار قد اختفت.

استغرق العلجوم لحظةً حتى يبتلع فريسته ويهضمها، وإن طالت اللحظة حتى تأكّد لأوفيليا أنها قد أخطأت في الأحجار، أو أن هدية الفاون قد أخفقت.

وإذا بالعلجوم يفغر فمه.

أوسع فأوسع.

أوه، كم احترقت أمعاؤه بشدة!

وكأنها مترعة بسمّ العلجوم نفسه!

وجلده... تموّج جلده وكأن القملات الخادمة كلها راحت تأكله وهو على قيد الحياة! أوه، كان يجب عليه أن يشنق تلك الكائنة ذات البشرة الشاحبة بلسانه! الآن وحسب أدرك لماذا جاءت. لقد رأى دوافعها في عينيها الواشيتين. جاءت من أجل كنزه الذهبي! غير أن ذلك الإدراك جاء بعد فوات الأوان.

مكتبة ياسين

وبآخر أنفاسه المحتضرة، لفظ معدته التي كانت كتلةً من اللحم النابض بلون الكهرمان. وإذا بجسده العملاق ينكمش كالمنطاد المفرَّق، فلم يترك إلّا كومًا من الجلد الذي لا حياة فيه.

زحفت أوفيليا إلى كتلة اللحم، على الرغم من الغثيان الذي أورثها إياه المشهد والرائحة. وإذا به هناك! كان المفتاح الذي طلب منها الفاون أن تحضره ملتصقًا بأمعاء العلجوم ومعه عشرات من قملات الخشب المرتجفة. جذبت أوفيليا المفتاح، فتمدّد المخاط الذي يغطّيه وكأنه خيوط عنكبوت بزّاقة، ثم انفلت المفتاح أخيرًا.

كان طويلًا، أطول من يد أوفيليا، رائع الجمال. قبضت عليه طوال طريق العودة من خلال النفق الذي لا ينتهي، وإن لم يسهُل عليها الزحف بيدٍ واحدة. وعندما خرجت من جوف الشجرة المشطورة أخيرًا وهي تتعثّر في خطاها، كانت السماء قد أظلمت، وانهمرت الأمطار من خلال ظلّة الأوراق. كم غابت أوفيليا؟

تلاشت كل سعادتها بإتمام مهمتها وحصولها على المفتاح! العشاء! ثوبها الجديد!

تعثّرت في سيرها إلى الفرع الذي علّقت فوقه الثوب.

ولكن الثوب قد اختفى، وكذلك المئزر.

أما الخوف الذي وخز قلبها عند ذاك، فكاد يضاهي ذلك الذي شعرت به في نفق العلجوم. راحت تنشج وهي تفتّش أرض الغابة، وقد ضمّت إلى صدرها المفتاح الذي جعله الوحل والمطر باردًا. عثرت على الثوب أخيرًا، في موضع لا يبعد عن الشجرة كثيرًا، وإن غرق الثوب الأخضر في الوحل، وتلوّث المئزر الأبيض إلى الحدّ الذي كاد يخفيه عن الأنظار في

مكتبة ياسين

الظلام. وفوق رأسها، أحدثت الأفرع صريرًا في مهبّ الريح، فخُيّل إلى أوفيليا أنها تسمع قلب أمّها ينفطر.

الآن هطلت الأمطار بشدة بالغة، حتى أزالت أكثر الوحل عن وجه أوفيليا وأطرافها. وكأنما الليل يحاول أن يواسيها. وفي غمرة اليأس، رفعت أوفيليا الثوب والمنزر عاليًا تحت الأمطار المنهمرة، ولكنهما لن يسترذا الخضرة والبياض مرةً أخرى ولو سقطت عليهما مليون قطرة من قطرات المطر الباردة.

مكتبة ياسين

13

زوجة الخياط

كاد بيدال يكره المطر بقدر ما كره الغابة. ذلك أن المطر يلامس جسده، وشعره، وثيابه، ويورثه شعورًا بأنه هشٌّ. إنسان.

أمر جنوده بالاصطفاف منذ قرابة ساعة، وإن تأخّر المدعوون جميعًا، فبدا رجاله الفصطفُون وكأنهم فزّاعات تتساقط منها قطرات الماء. أجل. مضى بيدال يحدّق إلى ساعته. لقد تأخّروا. أخبره وجه الساعة المكسور بذلك، وبأشياء أخرى: أخبره بأنه في المكان الخاطئ، وبأن ظلّ والده ما زال يخيّم عليه ويجعله خفيًا كالرجال الذين يتصيّدهم، وبأن الغابة والمطر سوف ينتصران عليه.

كلا. مضى يحدّق إلى الباحة، حيث انعكسَت صورة القمر المتزايد على بِرَك المياه الضحلة. كلا، وإن لؤث المطر ثوبه العسكري الذي لا تشوبه شائبة وغطّى بيادته اللامعة بالوحل، لن يسمح لهذا المكان بأن ينتصر عليه. وعندما اخترقت الليلَ أشعة المصابيح الأمامية الآتية من سيارتَين مقبلتَين شعر وكأنها إجابة مُرسلة من إلهٍ فتجهّم يحبُّ الرجال الذين ضلّوا الطريق وحادوا عنه كما فعل بيدال. انطلق رجاله مسرعين لوقاية المسافرين من المطر بالمظلات. حضروا جميعًا، كل من يعدُّ نفسه ذا شأن في هذا المكان التعيس: الجنرال وواحد من ضبّاطه؛ والعمدة وزوجته؛ وأرملة ثرية كانت عضوًا في الحزب الفاشي منذ عام 1935؛ والكاهن؛ ودكتور فيزيرا. أجل، دعا بيدال الطبيب الصالح أيضًا. وإن لم يدعه من دون سبب. قذم بيدال مظلته إلى زوجة العمدة وأرشدها إلى داخل البيت.

مكتبة ياسين

أحضرت مرثيديس أمّ أوفيليا بالكرسي المتحرّك. كانت كارمن تبدو لمرثيديس وكأنها فتاة لُقّنت ألّا تسيء إلى والدها، وها هي الآن تفعل الشيء نفسه من أجل زوجها، فصارت تصغُر من شأن نفسها، حتى عندما لا تجلس على الكرسي المتحرّك.

- «هل فتّشت عنها في الحديقة؟»، همهمت كارمن بينما راحت مرثيديس تدفعها إلى داخل الحجرة التي حوّلتها الخادمات مرةً أخرى من مقرّ حربي إلى حجرة عشاء.

- «نعم، سنيورة».

فتّشت مرثيديس عن أوفيليا في كل مكان، في مخزن الغلال، والإصطبل، وحتى في المتاهة العتيقة. رأت الخوف في عينَيّ المرأة الأخرى، التي لم تخَف على طفلتها، كلا. بل خافَت أن تزعج زوجها الجديد. أيقن كل من في الطاحونة أن بيدال لم يتزوّجها إلّا من أجل ذلك الطفل الذي لم يُولَد بعد. لقد رأت مرثيديس الاعتقاد نفسه باديًا على وجوه مدعويه.

- «هلّا قدّمتَ إليكم جميعًا زوجتي، كارمِن؟».

عجز بيدال عن إخفاء شعوره بالخزي منها. كانت المرأتان المدعوتان أكثر أناقةً بكثير، أما الحلي التي تزيّنتا بها فلقد جعلت أقراط أمّ أوفيليا تبدو وكأنها لعب أطفال بخسة. أخفت زوجة العمدة شعورها بالاحتقار خلف ابتسامة مشرقة، ولكن الأرملة لم تبذل مثل هذا الجهد.

«انظروا إليها»، قال وجه الأرملة. **«أين عثر عليها؟ إنها سندريلا صغيرة، أليس كذلك؟»**.

تبادل دكتور فيرَيرا ومرثيديس نظرة خاطفة قبل أن يجلس إلى المائدة. كان خائفًا، كما استطاعت أن تقرأ على وجهه. خاف أن يكون قد دعي إلى

مكتبة ياسين

هذا العشاء لأن بيدال يعرف، وابتهلت مرثيديس كيلا يفتضح أمرهما بسبب خوفه. لم تدر إلى من تبتهل الآن، إلى الغابة، إلى الليل، إلى القمر...؟ من المؤكّد أنه لم يكُن الرّب الذي يبتهل إليه الحضور ممن يأخذون مقاعدهم حول المائدة الآن، ذلك الذي تخلّى عنها مرات أكثر مما ينبغي.

- «واحدة فقط»، أخذ الكاهن بطاقة تموين من الحزمة التي ناوله بيدال إياها ثم مزّرها إلى الآخرين.

- «كابتن، لستُ مُتأكّدًا إن كان هذا يكفي»، قال العمدة. «يواجهنا كثير من الاستياء بسبب النقص المُستمِرّ حتى في الغذاء الأساسي».

- «لو توخّى الناس الحرص لكانت بطاقة تموين واحدة كافية»، قال الكاهن وقد هبّ لمساعدة بيدال على عجل.

يحبّ الكاهن أن يرضي الجيش. بل إن الخادمات الأخريات اللاتي ما زلن يذهبن إلى الكنيسة كل أحد قد أخبرن مِرثيديس كيف يسبّح الكاهن بالطاعة والنظام من المنبر، وكيف يدين الرجال الذين في الغابة ويصفهم في عظاته بالوثنيين الشيوعيين الذين لا يختلفون عن الشيطان في شيء.

- «الآن لدينا وفرة من الطعام، بالطبع»، قال بيدال. «ولكن يجب علينا أن نتوخّى الحرص لئلّا يحصل أحدهم على ما يكفي لإطعام المُتمرّدين. إنهم يتراجعون، وفي صفوفهم جريح».

مسح دكتور فيرَيرا فمه بالمنديل مداريًا اختلاجة طفيفة سرت في شفتيه.

- «جريح؟»، سأل بصوت عفوي. «كيف لك أن تكون مُتأكّدًا من ذلك سيدي الكابتن؟».

مكتبة ياسين

- «لأننا أوشكنا على الإيقاع بهم اليوم. وعثرنا على هذا». رفع بيدال إحدى القوارير التي عثر عليها في الغابة.

نظرت مرثيديس إلى فيرَيرا نظرة أخرى خاطفة. ثم فردت شعرها وحاولت بأفضل ما تملك أن توحي له بالأمان، فطمست كل أمارات القلق من وجهها، وإن أحسّت بمذاق خوفها كالخلّ في فمها.

- «عسى أن يحفظ الرّبّ أرواحهم الضالة. أما أجسادهم، فهو يكاد لا يكترث لما يحدث لها». أغمد الكاهن شوكته في حبة بطاطس مُحفّرة.

- «كابتن، سوف نساعدك بكل ما نملك»، قال العمدة. «نعرف أنك لم تأتِ إلى هنا باختيارك».

استقام بيدال في مقعده، تلك اللفتة المعهودة فيه كلّما أخذ شيئًا على محمل الإساءة، وتأهّب للهجوم.

- «ولكنك مخطئ يا سيدي»، قال بابتسامة متخشّبة. «لقد اخترتُ أن أكون هنا لأنني أريد لابني أن يولد في إسبانيا جديدة، نظيفة. وأعداؤنا...»، تمهّل ناظرًا إلى مدعويه، واحدًا تلو الآخر. «أعداؤنا مخطئون في اعتقادهم بأننا قد خُلِقنا كلنا سواء. ولكن الفارق بيننا كبير: لقد خسروا الحرب. أما نحن فلقد انتصرنا. ولو دعت الحاجة إلى قتلهم حتى آخر فرد منهم كي نثبت ذلك بوضوح، فلسوف نقتلهم. حتى آخر فرد منهم». رفع كأس النبيذ. «نخب الاختيار!».

رفع ضيوفه كؤوسهم. وانضمّ إليهم دكتور فيرَيرا، قابضًا على كأسه بقوة.

- «نخب الاختيار!»، تردّد صدى أصواتهم في أرجاء الحجرة. بينما شعرت مرثيديس بالارتياح لأنها لم تعُد تسمع أصواتهم بعدما انسلّت إلى خارج الحجرة وعادت إلى المطبخ.

مكتبة ياسين

- «جهِّزن القهوة»، أمرت الخادمات الأخريات. «سأُحضر المزيد من الحطب»، أردفت وهي تجذب سترتها المُعلّقة بالمشجب المُثبّت في باب المطبخ.

راقبنها جميعًا في صمت بينما هي تضرم الكشّاف، وعود الثقاب في يدها يرتجف بصورة ظاهرة للعيان، ثم خرجت تحت المطر.

تجاوزت السيارتين والجنود الذين يحرسونهما خافضةً رأسها، على أمل أن تبقى خفيةً عن أعينهم كالمعتاد، وهي التي لا تعدو أن تكون خادمة. ولكنها وجدت صعوبة بالغة في الامتناع عن السير بخطوات مسرعة. «**لأننا أوشكنا على الإيقاع بهم اليوم**».

توقّفت مِرثيديس حين وصلَت إلى حافة الغابة. وألقت نظرة خاطفةً أخرى من فوق كتفها، لتتأكّد أن الأغصان تحجبها عن أنظار الحرس، وعند ذاك رفعت الكشّاف وحرّكت يدها أمام شعاع الضوء صعودًا وهبوطًا: مرة، مرتين، ثلاثًا. لقد نجحت تلك الإشارة في كل مرة حتى الآن، فعادةً ما يكلّف شقيقها رجلًا بمراقبة الطاحونة لعلّ مِرثيديس تحمل رسالة أو خبرًا من أجلهم. لم تنتبه إلى ذلك الخيال الضئيل وسط الأشجار إلّا حين خفضَت الكشاف ودارت على عقبَيها سائرةً إلى البيت. كان الخيال في غاية الضآلة، يرتجف بشدّة في الثياب المُبلّلة.

- «أوفيليا؟».

كان جسد الفتاة باردًا كالثلج، بينما اتّسعت عيناها السوداوان قلقًا. وإن تراءى في عينَيها شيء آخر: الكبرياء والقوة اللتان تفتقر أمُّها إليهما. مضت أوفيليا مُتشبّثةً بشيء، ولكن مرثيديس لم تسألها ماذا يكون ذلك الشيء، أو أين كانت الفتاة. ومن

مكتبة ياسين

أدرى منها بالأسرار التي يحسن أن يكتمها المرء في سريرته؟ لفّت كتفي أوفيليا المرتجفتين بذراعها، ومضت عائدةً بها إلى الطاحونة، وهي تأمل ألّا تكون أسرار الفتاة خطيرة شأن أسرارها.

*

- «وكيف التقيتما إذن؟»، ابتسمت زوجة العمدة، ونسيت أمُّ أوفيليا أمارات الاحتقار المرتسمة على وجوه باقي المدعوين. كان يجدر بها أن تعلم. التزام الصمت والخفاء آمن كثيرًا متى شعر المرء بالضعف والضآلة. ولكن تلك هي الحكاية الخرافية الخاصة بكارمن، التي تمنّت بكل ما تملك أن تنتهي نهاية سعيدة.

- «كان والد أوفيليا يصنع الثياب العسكرية من أجل الكابتن».

- «أوه، فهمت!».

لم تدرك كارمن أن ذلك كل ما تحتاج زوجة العمدة إلى معرفته. زوجة خياط... سبق لها الزواج. تخشّبت الوجوه حول المائدة. ولكن أمّ أوفيليا لم تزل تائهة في حكايتها الخرافية. «**في مرة من المرات...**».

برقّةٍ، اتّكأت كارمن بيدها على يد بيدال.

- «بعد أن رحل زوجي، عملتُ في المتجر، وحدي...».

خفضت كلٌّ من المرأتين الأخريين عينيها إلى صحنها. يا له من اعتراف! في عالمهما الخاص لا تعمل المرأة ما لم تكن فقيرة، مضطرّة إلى كفالة عائلتها. ولكن أمّ أوفيليا ما زالت مؤمنة بأن الأمير قد خلّصها من تلك الأشياء كلها: الفقر، والخزي، والعجز... نظرت إلى بيدال وقد أشرقت عيناها حبًا.

مكتبة ياسين

- «وقبل أكثر من عام بقليل...»، كانت يدها لا تزال مُتكئةً على يده. «التقينا مُجدّدًا».

- «أي شيء جدير بالفضول!». التمعت اللآلئ التي لفّتها زوجة العمدة حول عنقها، وكأنها قد سرقت من السماء بضع نجوم. «أن يجد كلٌ منكما الآخر ثانيةً هكذا...».

لاحت في صوتها لمحةٌ من الدفء. زوجة الخياط والجندي ... الجميع يحبُ الحكايات الخرافية.

- «جدير بالفضول. أوه، أجل، أجل، جدير بالفضول جدًا»، قالت الأرملة الثرية وهي تزمّ شفتيها. لم تؤمن إلّا بتلك الحكايات الخرافية حيث يعود البطل إلى البيت مُحمّلًا بأكوام من الذهب.

- «أرجو أن تلتمسوا لزوجتي العذر». أطلق بيدال يده مُتناولًا كأسه. «تظنّ أن تلك الحكايات السخيفة تلقى اهتمام الآخرين».

خفضت كارمن كاردوسو عينيْها شاخصةً إلى صحنها في خجل. كانت هناك حكايات خرافية تصف ولائم عشاء كهذه. ربما كان يجب على ابنتها أن تنبّهها إلى من حسبته أميرًا كان ذا لحية زرقاء؟

(7)

وقعَت عينا مِرثيديس على كتفَي كارمِن المنكمشتيْن حين دخلَت إلى الحجرة مرة أخرى، وسعدت لأنها قد جاءت تهمس في سمع كارمن بخبر سارّ.

- «أرجو منكم المعذرة»، همهمت كارمن كاردوسو. «ابنتي، إنها...». لم تنه العبارة.

لم ينظر إليها أحد عندما سحبت مرثيديس كرسيها الفتحرك بعيدًا عن الطاولة.

- «كابتن، هل أخبرتك بأنني قد التقيتُ والدك؟»،

مكتبة ياسين

سأل الجنرال بينما راحت مرثيديس تدفع الكرسي المتحرك إلى الباب. «كلانا حارب في المغرب. كان لقاءً عابرًا، ولكنه ترك في نفسي أثرًا عظيمًا».

- «حقًّا؟ لم تكن لديّ أدنى فكرة».

استطاعت مرثيديس أن تلمس في صوت بيدال أنه لم يحبّ السؤال.

- «طبقًا لما قال جنوده...»، تابع الجنرال حديثه، «فلقد حطّم الجنرال بيدال ساعة جيبه الفضية بحجر وهو يحتضر في ساحة المعركة، حرصًا منه على أن يعرف ابنه الساعة والدقيقة التي مات فيها بالتحديد. وحتى يُظهِر لابنه كيف يموت الرجل الشجاع».

- «لغو فارغ!»، قال بيدال. «لم تكن لأبي ساعة جيب قطّ».

استحوذَت على مِرثيديس رغبة في انتزاع ساعة الجيب من سترته كي تريهم جميعًا الأكذوبة المحطّمة التي كانها كابتن بيدال. ولكنها مضَت تدفع الكرسي المتحرك إلى خارج الحجرة بدلًا من ذلك. كانت الفتاة تنتظر. إذ تركَت مِرثيديس أوفيليا في الطابق العلوي، حيث راحت تغتسل بالماء الدافئ لتطرد البرد من جسدها. حاولَت أن تغسل الثوب ولكنه قد تلف.

تجنّبت أوفيليا عينَي أمّها حين دفعَت مِرثيديس الكرسي المتحرك إلى الحمام. كانت لمحة الكبرياء لا تزال باديةً على وجه الفتاة، فضلًا عن التمرّد الذي لم يسبق أن انتبهت إليه مرثيديس من قبل.

راق لها ذلك أكثر كثيرًا من الحزن الذي كان يتبع أوفيليا كظلّها حين وصلت إلى الطاحونة. وإن لم تشعر أمّها بالشيء نفسه. التقطت الثوب التالف الملقى على الأرضية المبلّطة، ومزرت يديها على

مكتبة ياسين

القماش المُتسخ.

- «إن ما فعلت يؤلمني يا أوفيليا».

تركتهما مرثيديس وحدهما، بينما غاصت أوفيليا أعمق وأعمق في الماء الحار. ما زالت تحسّ بقملات الخشب تزحف على ذراعيها وساقيها، ولكنها أنجزت مهمّة الفاون الأولى. ولا شيء سوى ذلك يهمّ، ولا حتى وجه أمّها الممتعض.

- «عندما تفرغين من الاغتسال، سوف تذهبين إلى الفراش من دون عشاء يا أوفيليا»، سمعتها تقول. «أتنصتين إلى ما أقول؟ أحيانًا أفكّر أنكِ لن تتعلّمي كيف تحسنين السلوك أبدًا».

ظلّت أوفيليا تتحاشى النظر إليها. بينما انعكسَت صورتها على الرغوة الطافية فوق صفحة الماء، على ألفِ من الفقاعات اللامعة. الأميرة موانا.

- «إنك تخذلينني يا أوفيليا. وتخذلين أباكِ أيضًا».

لم يذر الكرسي المُتحرّك بسلاسة على البلاط. وحين رفعت أوفيليا رأسها، كانت أمّها عند الباب.

أبوها... ابتسمَت أوفيليا. كان أبوها خياطًا. ومَلِكًا.

وفي تلك اللحظة، حين أوصدَت أمّها باب الحمام وراءها، سمعت أوفيليا رفيف جناحَين رقيقًا. وإذا بالجنيّة تجثم على حافة المغطس وقد عادت إلى جسد الحشرة مرة أخرى.

- «لقد حصلتُ على المفتاح!»، همست أوفيليا. «خذيني إلى المتاهة!».

مكتبة ياسين

مکتبة یاسین

الطاحونة التي فقدَت بِركتها

في مرة من المرات، حين لم يكُن السحر يتخفّى عن أعين البشر كليًا مثلما يتخفّى اليوم، كانت طاحونةٌ تتوسّط غابة، قيل عنها إنها قد أصابتها لعنةٌ بسبب موت الساحرة التي أغرقها جنود أحد النبلاء في بِركة الطاحونة.

وفي ذكرى موت الساحرة، صار الطحين الذي تنتجه الطاحونة يصطبغ باللون الأسود في كل عام. حتى القطط التي تطرد الفئران بعيدًا عن الذرة المملوكة للمزارعين كانت تأبى الاقتراب منه، ولذا كان خابيير الطحّان يتخلّص من الطحين المعطوب في الغابة، فيختفي الطحين صبيحة اليوم التالي في كل مرة، وكأنما الأشجار تلتهمه بجذورها.

استمرّت الحال سبعة أعوام. كانت الساحرة قد ماتت في يوم ضبابي من أيام نوفمبر. ثم أشرق فجر الذكرى الثامنة لموتها وقد اكتست الأرض المترامية خلف الطاحونة بالثلج الطازج وصارت بيضاء اللون. أما الطحين الذي ألقاه الطحّان في الغابة الفثلْجة، فبدا أشدّ وأشدّ سوادًا مما كان في العام السابق، تراءى قاتم السواد حتى وكأن الليل قد سقط من السماء مُفسخًا للنهار مكانًا.

وكما جرت العادة، اختفى الطحين صبيحة اليوم التالي، ولكن آثار قدمين بدت مُصطبغةً بقليل من بقايا الطحين الأسود في تلك المرة. تتبّع الطحّان آثار القدمين وصولًا إلى بِركة الطاحونة. هناك حيث كانت طبقة الجليد الرقيقة التي اكتست بها البِركة قد انكسرت، وتناثر الطحين الأسود على صفحة الماء كالرماد.

امتلأ قلب الطحّان بخوفٍ بارد كالجليد المُنكسر، وكاد يتعثّر بقدميه وهو يتراجع مبتعدًا عن البِركة.

مكتبة ياسين

كان الطحّان قد شهد غرق روثيو قبل ثمانية أعوام. حاول أن ينتشل جثتها الهامدة إلى الضفة بعد أن غادر جنود النبيل، ولكن أعشاب البركة قد تكاثفت وكأنها شعر ملّاحٍ أخضر، وظلّت متشبّثة بجثة المرأة بقوة. وحين جذف الطحّان بقاربه لانتشالها، كانت الجثة قد غاصت في قاع البركة. **«ماذا لو أنها ما زالّت هناك؟»**، سأل نفسه. ماذا لو جاءت روثيو لتثأر منه لأنه لم يخلّصها من أيدي قاتليها مع أنه قد عرفها منذ الطفولة، ومع أنها قد داوت زوجته من حمّى شديدة ذات مرة؟

خطا الطحّان مقتربًا من الماء، على الأقل حتى يلمح الكائن الذي تبدو آثار قدميه بشرية، تلك الآثار التي سؤدها الطحين الملعون. **«حذار يا خابيرا»**، همست الأشجار بأغصانها اليابسة. **«إن ما في غمرة الماء قد تربّى على القتل والقسوة. آثام البشر لا تُنسَى. بل إنها تؤتي ثمارًا مسمّمة»**.

ولكن البشر لا ينصتون إلى ما تتكلّم به الأشجار. لقد نسوا كيف ينصتون إلى الكائنات البرية. وهكذا خطا الطحّان خطوة أخرى نحو البركة. حيث تحرّك شيء تحت طبقة الجليد. شيء فضيٌ مثل القمر الذي كان من عادة روثيو أن ترقص تحته.

تراءى الوجه الذي انبثق من الماء أنثويًا، رائع الجمال، إلى حدٍّ جعل الطحّان يخطو خطوةً أخرى إلى الأمام. كانت عينا تلك الكائنة أشبه بعيني علجوم ذهبيتين، بينما امتدّت الأغشية بين أصابع يديها الممدودتين إلى الطحّان. ولكن الطحّان لم يُلقِ بالًا. وإنما تلهّف إلى لمسة من هاتين اليدين أكثر مما اشتاق إلى حضن زوجته وأكثر مما اشتاق إلى أي شيء في أي وقت مضى. خاض الطحّان ماء البركة معانقًا الجسد البرّاق وإن أحسّ به كالثلج

مكتبة ياسين

بين ذراعيه. اكتست شفتا الكائنة بالطحين الأسود، وحين طبع الطحّان قبلةً على شفتيها أحسّ بقلبه يغدو فضيًا باردًا مثل قلبها، غير أنه لم يملك الفكاك منها، فغرق كلاهما في البركة، وقد اتّحد كلٌ منهما بالآخر في عناق جامح.

وحين لم يغد زوجها حتى وقتٍ مُتأخّر من ذلك اليوم، خرجت امرأة الطحّان مُفتّشة عنه. تتبّعت خطّين من آثار الأقدام، أحدهما لزوجها، فتوغّلت في الغابة وصولًا إلى البركة، حيث مضت تنادي اسمه فوق صفحة الماء الداكن. وحين لم تتلقّ ردًا، هرولت إلى القرية حيث يعيش أبواها، وانطلقت في السوق صائحةً بأن ساحرة البركة قد التهمت زوجها.

ما لبث أن توجّه حشدٌ من الغاضبين إلى البركة وقد تسلّحوا بالشباك والمعازق والهراوى. توقّفوا على الضفة، هناك حيث تلاشت آثار قدمَي الطحّان. وفي أعماق البركة، تألّق شيء يبدو وكأنه كنز غارق من الفضة، فنسي القرويون دموع امرأة الطحّان. وما عادوا يملكون سوى التفكير في الفضة. وحين عجزت شباكهم عن انتشال ذلك الشيء، أضرموا النيران في هراويهم، وفي كل الأغصان التي أمكنهم العثور عليها فوق الأرض المُتلّجة، ثم تركوها طافية على صفحة الماء حتى اكتست البركة بألسنة اللهب، وبات الماء دخانًا أبيض.

حافظ القرويون على النار مضرمة حتى قطعوا وأحرقوا الأشجار المحيطة كلها، ولم يبق في البركة إلّا السمك النافق والحصى المغطّى بالسخام. أما الكتلة الفضية المُمذدة وسط كل هذا فكانت أشبه بعاشقين انصهر كلٌ منهما في الآخر حتى صارا واحدًا.

تراجع القرويون، بينما انطلقت امرأة الطحّان

مكتبة ياسين

صارخة وسقطت على ركبتيها حين تعزفت قسمات زوجها في أحد الوجهين اللذين انصهرا في قبلةٍ واحدة. لم يجرؤ أحد على لمس الفضة، في حين رجعت الزوجة والآخرون إلى القرية، إلى غير عودة.

ومن ذلك الوقت فصاعدًا، ظلّت الطاحونة مهجورة، فما نفغ الطاحونة من دون بركةٍ؟ وبعد قرابة تسعين عامًا، انتقل إلى هناك رجلٌ قالت عنه الشائعات إنه كان صانع ساعات شهير ذات يوم في مدينة مدريد العظيمة البعيدة. انطلقت كلابه تطارد كل رجل وكل امرأة وكل طفل يقترب من الطاحونة. حتى إن بعض الناس قد ادّعوا أن قطيعًا من الذئاب آكلة البشر تحرسه. وفي مرة من المرات، استطاع صائد أرانب أن يختلس نظرة عبر النافذة من دون أن يُمزّق جسده أشلاءً، بينما كان يبيع الأرانب التي اصطادها إلى أحد الجزّارين، فأذاع الصائد أن مالك الطاحونة الجديد قد انتشل الفضة من البركة الميتة وصهرها حتى يصنع منها الساعات.

مكتبة ياسين

14

احتفظي بالمفتاح

ظلّ قلب المتاهة يبدو كالمعهود، ذلك المكان الذي راح أدراج النسيان في قاع العالم منذ أمدٍ بعيد. ومع ذلك، كانت أوفيليا أكثر تردّدًا في نزول الدرج المفضي إلى العمود في هذه المرة. أن تعثر على الشيء أيسر من أن تواجه ما قد عثرت عليه، في كثير من الأحيان.

انتشرت المقصورات في الجدران المفتدّة بحذاء الدرج. وإن لم تنتبه إليها أوفيليا في زيارتها الأولى. كانت تبدو وكأنها مذابح نذورٍ في انتظار القرابين المقدّمة إلى إله منسي، أو نوافذ سُدّت بالطوب في برج غارق. تحدّث كل ما في المتاهة عن أشياء منسية... ولكن لعلها لم تُنس، فربما كانت محفوظة.

ظهر حماس الجنيّة للعودة بوضوح، فمضت تدور وترفّ بجناحيها كالمبتهجة بعودتها إلى البيت. وبينما هما تنتظران الفاون، ألقت أوفيليا نظرةً أقرب إلى العمود. رأت على الحجر نقشًا يصوّر فتاة تحمل طفلًا. كانت بلا وجه، إذ طمس الزمن قسماتها. أما ذلك الذي وقف خلفها، واضعًا يده ذات المخالب على كتف الفتاة، فبدا من الواضح أنه الفاون، الذي يحميها، ويمسك بها، أو يشلّ حركتها.

ما كادت أوفيليا تلمس وجه الطفل المتآكل حتى ظهر الفاون آتيًا من الظلال. بدا مختلفًا. أصغر عمرًا. أشدّ قوةً. أكثر خطورةً.

- «لقد حصلتَ على المفتاح»، قالت أوفيليا مزهوةً بنفسها وهي ترفع المفتاح.

وإن اكتفى الفاون بإيماءة من رأسه. توقّعت أوفيليا أكثر من ذلك قليلًا، وهي التي واجهت

مكتبة ياسين

علجومًا عملاقًا وأنقذت التينة على الرغم من كل شيء، دع عنك الإساءة إلى أمها! ولكن الفاون قد تحمّس أكثر كثيرًا للشيء الذي راح يلتهمه. لم تتبيّنه أوفيليا جيّدًا، لم تر سوى أنه دامٍ، نيّئ، ربما كان طائرًا ميتًا أو قارضًا.

نهش الفاون قضمة بأسنانه الحادة البارزة، وخطا بضع خطوات وثّابة نحو الفتاة.

- «هذا أنا!»، أشار إلى العمود. «أما الفتاة، فأنتِ».

نهش قضمة أخرى من وجبته الدامية.

- «وماذا عن الطفل؟».

تجاهل الفاون سؤالها.

- «إذن، فلقد استعدتِ المفتاح»، قال، وانحنى أمامها حتى استطاعت أوفيليا أن ترى صورتها في عينيه الزرقاوين الشاحبتين «يسعدني هذا».

ثم استقام رافعًا يده إلى الجنيّة التي جثمَت برشاقة على إصبعه الممدودة، فضحك الفاون مبتهجًا عندما التهمَت الجنيّة قضمة شرهة من لحمه.

- «لقد آمنت بكِ من البدء. انظري إليها! ما أسعدها!». رفّت الجنيّة بجناحَيها مُحلّقةً، والفاون يتتبّعها بعينيه في حنان، كالأب الذي يراقب طفله الشقي. «إنها في غاية الحماس لأنك نجحتِ في المهمة!».

انطلق ضاحكًا، ولكن أوفيليا رأت أمارات الجدية على وجهه حين التفت إليها.

- «احتفظي بالمفتاح. قريبًا جدًا تحتاجين إليه». رسمت يده الطويلة تحذيرًا في جوف الليل. لطالما شدّد على الكلمات بأصابعه التي تمتدّ وتشير وترسم علامات خفية يبدو أنها تكشف أكثر مما ينطق

مكتبة ياسين

به لسانه. «وإليك هذا»، ناول أوفيليا قطعة من الطبشور الأبيض. «سوف تحتاجين إليه أيضًا! ما زالت أمامك مهمتان، وقريبًا يكتمل القمر».

اقشعرّت أوفيليا رغمًا عنها حين ربّت على وجهها بأصابعه ذات المخالب.

- «تحلّي بالصبر يا سموَ الأميرة»، قرقر مبتسمًا لها. «قريبًا نتمشّى في حدائق قصرك الدائرية السبع، ونجوب دروبها الملتوية المرصوفة بالعقيق والمرمر...».

تجلّى في عينيه الخليقتين بالقطط شيء شقي. لم تدرِ أوفيليا على وجه اليقين إن كان ذلك الشيء هناك في لقائهما الأول، أو لعلّها لم تنتبه إليه.

- «كيف أعرف إن كان ما تقول حقيقة؟».

هزّ الفاون رأسه ذا القرنين وكأنها قد أساءت إليه بشدّة.

- «ولماذا يخبركِ بالكذب فاون مسكينٌ تافه مثلي؟».

رسم الفاون بيده مسارَ دمعةٍ خفية على وجنته ذات الأشكال، وإن تراءت عيناه كعيني القطّ الرابض، المتأهّب للانقضاض.

تراجعت أوفيليا وقلبها يخفق بشدة. لم يكن خوفًا. كلا. بل أسوأ من ذلك. نظرت إلى المفتاح الذهبي في يدها. هل كان كنزًا؟ أم عبئًا؟ وفجأةً شعرت بأنه لا أحد أهل للثقة، لا أحد في العالم. لقد خانتها أمُّها كي ترضي الذئب، فكيف لها التفكير في أن الفاون أهل للثقة؟

مكتبة ياسين

15

دماء

لم يكُن المفتاح الذي استخدمه بيدال في إغلاق مخزن الغلال من الذهب. ولكن الكنز الذي يفتح ذلك المفتاخ بابه أعظم كثيرًا في أنظار القرويين الفترقُبين أمام البوابات البالية. كان الوقت مُبكرًا، ولكنهم قد اصطفُوا عبر الباحة التي حضر إليها كثيرٌ منهم برفقة صغارهم. كان الجوع ضيفًا معتادًا على موائدهم، وكأنه فرد من أفراد الأسرة، حتى صارت كلمات «الخبز» و«الملح» و«الفاصوليا» و«البطاطس» أشدَ سحرًا من أي كنز جاء وصفه في حكايات طفولتهم الخرافية. نصْب بيدال اثنين من الجنود لحراسة أبواب مخزن الغلال، بينما جلس جنديٌ ثالث إلى طاولةٍ جيء بها من البيت ليتفحّص بطاقات حصص التموين.

- «أعدّوا بطاقاتكم للفحص!»، نبح الملازم أثنار، الذي عُهِد إليه بتوزيع بطاقات التموين، بتلك الثقة التي لا يمنحها للمرء سوى الزي العسكري. لم يدرِ بماذا يشعر أولئك الفصطفون لفجرّد أن يملؤوا معداتهم الخاوية. جاء من عائلة جزّار، فتراءت له تلك الأجساد المتهالكة ذات الوجوه المتعبة والظهور المحنية من سلالة أدنى منزلةً. من المؤكّد أنهم لا ينتمون إلى جنسه.

- «أسرعوا!»، انطلق ينبح على رجل عجوز، وينتزع البطاقة من يده الممدودة. «اسمك. واسم عائلتك». لم يكُن والده الجزّار يشبه ذلك العجوز في أي وقت. كم يبدو مُتعبًا، وكم تبدو عليه آثار الحياة!

- «نارتيسو پينيا سوريانو... في خدمتك»، قال الرجل العجوز. كانوا جميعًا في خدمتهم. مدى

مكتبة ياسين

الحياة.

أشار إليه أثنار بالدخول إلى مخزن الغلال.

- «اسمك!»، صاح، ومضى الطابور في صمت.

أقبلت مرثيديس وخادمتان أخريان مُحمّلات بسلال ملأى بالخبز الطازج، فالتقط الملازم ميديم، الذي أحضر هذا الكنز إلى الطاحونة، أحد الأرغفة من سلة مرثيديس.

- «هذا هو خبزنا اليومي في إسبانيا فرانكو!»، دوّى صوته عبر الباحة. «يُحفظ الخبز آمنًا في هذه الطاحونة. بينما يكذب الخفر عندما يقولون لكم إننا نترككم تتضوّرون جوعًا...».

تسلّلت كلمات ميديم إلى الحجرة التي اشتركت فيها أوفيليا وأمّها، فأيقظتها من نومها الذي أثقلته أحلامٌ رأت فيها الفاون والعلجوم والمفتاح الذي سوف يفتح... ماذا؟ لم تدر أوفيليا على وجه اليقين إن كانت ترغب في اكتشاف ذلك.

ظلّت الكلمات تتسلّل آتيةً من الخارج.

- «... في إسبانيا المُتّحدة، لا يخلو بيتٌ واحد...».

انسلّت أوفيليا من الفراش بهدوء لئلّا توقظ أمها. «**البيت ...**».

- «... لا يخلو بيت واحد من النار أو الخبز!».

«**الخبز**». أورثتها الكلمة جوعًا. جوعًا شديدًا. وهي التي أُرسلت إلى الفراش من دون عشاء بعد مغامرة مرهقة جدًا.

- «... لا يخلو بيت واحد من النار أو الخبز». حتى أوفيليا عرفت أنها أكذوبة، وإن قالها مُذيعٌ بثقة بالغة. متى يدرك الأطفال أن الكبار يكذبون؟

هل كان الفاون يكذب؟ لقد بدا لأوفيليا أكثر وأكثر شؤمًا في أحلامها. «**كيف أعرف إن كان ما تقول**

مكتبة ياسين

حقيقة؟». راحت أمّها تئنّ في نومها، وبدا وجهها لامعًا من شدة العرق، مع أن الشمس ما زالت لم تدفئ البيت بعد. لم تستيقظ حين ذهبت أوفيليا إلى الحمام سائرة على أطراف أصابعها فوق ألواح الأرضية المغبرة التي تناثر عليها ضوء الصباح. وعلى الرغم من ذلك، أوصدت أوفيليا الباب قبل أن تجذب كتاب الفاون من خلف المدفأة. مرة أخرى، كانت صفحاته بيضاء كالثلج.

- «هيّا!»، همست أوفيليا. «ماذا يحدث بعد ذلك؟ أرني!».

وامتثل الكتاب.

عند ذاك ظهرت نقطة حمراء في الصفحة اليسرى، بينما تسرّبت نقطةٌ أخرى إلى الصفحة اليمنى. وأخذت كلتا النقطتين تتمدّدان بسرعة كما ينتشر الحبر على الورق المبلّل. أحمر. سرى الأحمر في الصفحتين البيضاوين حتى ملأ الفجوة بينهما وسال على قدمي أوفيليا الحافيتين.

عرفت ما الذي يعنيه ذلك من فورها، وإن لم تدرِ لذلك سببًا. رفعت عينيها عن الكتاب مُحدّقةً إلى الباب، الذي كانت أمّها نائمةً خلفه. وإذا بصرخة مكتومة تنسلّ من الصفحات التي اصطبغت بالأحمر.

أسقطت أوفيليا الكتاب وهرولت إلى الباب، ثم دفعته فوجدت أمّها تنحني على مسند السرير بشدة، ضاغطة بيدها على بطنها. وثياب نومها مضرجة بالدماء.

- «أو... أوفيليا!»، تلعثمت بصوتٍ أجشّ، رافعةً يدها في توسّل، وقد اصطبغت أصابعها بحمرة دمائها. «ساعديني!».

وانهارت على الأرض.

مكتبة ياسين

*

كان بيدال في الباحة، يتحقّق من ساعته، مداريًا وجهها المكسور بقفازه الأسود. كم يستغرق إطعام أولئك القرويين! يا للوقت الطويل الذي يُهدر لفجرّد أنه لا يمكن الوثوق بهم! كان بيدال ليراهن على زيّه العسكري بأن بعضهم سوف يأخذون الإمدادات إلى الغابة على كل حال، لإطعام قريب أو عشيق انضمّ إلى صفوف الخونة. كم تمنّى لو استطاع أن يحطّمهم ويقتلهم كما فعل بصائدي الأرانب!

- «كابتن!».

التفت.

هل فقدت الفتاة عقلها؟ جاءت تركض إليه بثياب النوم. من عادتها أن تتخفّى منه كما يليق بكائن يعرف أن الأفضل له أن يبقى خفيًا عن الأنظار. لم تصغِ أمّها حين اقترح عليها أن تترك الفتاة مع جدها وجدتها حينًا. إن تلك الابنة نقطة ضعفها، والأمر الوحيد الذي تجرؤ أمّها على أن تخوض شجارًا مع بيدال من أجله، ولكنه لا ينوي أن يربّي ابنة خياط ميت.

سار بيدال إلى الفتاة بخطًى مُتيبّسة من فرط الغضب، ولكنه حين وقف أمامها أدرك أنه لم يكُن هو السبب في ذلك الخوف الذي تجلّى على وجه أوفيليا.

- «تعال سريعًا!»، صرخت. «أرجوك!».

عند ذاك وحسب انتبه بيدال إلى الدماء التي لوّثت ثوبها. بدا من الواضح أنها لم تكُن دماء الفتاة. اضطرب الخوف في أعماق قلبه، الخوف والغضب معًا. تلك المرأة الحمقاء. سوف تخذله هو والصغير الذي منحها إياه. صاح بيدال في سيزانو حتى

مكتبة ياسين

يُحضر الطبيب.

*

هطلت السماء وأغرقت العالم بالمطر مرة أخرى. إنه الطقس الأنسب للمزاج الذي استحوذ على دكتور فيرَيرا وهو يقطع الباحة ليدلي بتقرير عن مريضته.

وجد بيدال واقفًا أمام مخزن الغلال، مُحدّقًا إلى الخيام والشاحنات التي جاء بها إلى الطاحونة. كانت تبدو في عيني دكتور فيرَيرا وكأنها ألعاب مهجورة قرب أشجار التنّوب المُشرفة عليها. كان يرتدي معطفه الذي اصطبغت أكمامه بشيء من الدماء.

- «زوجتك في حاجة إلى راحة مُستمِرّة. يجب عليها أن تبقى تحت تأثير المُهدِّئات معظم الوقت إلى حين الولادة».

ثم أردف في ذهنه: «**ما كان يجدر بك أن تأتي بها إلى هنا قطّ. ما كان يجدر بك أن تجعل ابنتها تراها وهي على تلك الحال قطّ**». ولكنه اكتفى بقوله:

- «يجب على الفتاة أن تنام في مكان آخر. سوف أبقى هنا حتى يُولد الطفل».

ظلّ بيدال مُحدّقًا إلى الباحة.

- «اجعلها تتحشن»، قال من دون أن يحوّل عينيه عن المطر. «لا يهمّني كم يكلّف ذلك، أو ما الذي تحتاج إليه».

وعندما التفت إلى فيرَيرا أخيرًا، كان وجهه مُتيبّسًا من فرط الغضب. ممّ غضب؟ تساءل فيرَيرا. من الحياة؟ من نفسه، لأنه قد جاء بزوجته الحبلى إلى هنا؟ كلا. لأن رجلًا مثل بيدال لا يلقي باللائمة على نفسه أبدًا. يُرجّح أنه كان غاضبًا من أمّ ابنه الذي

مكتبة ياسين

سوف يُولد مُستقبلًا لأنها قد أثبتت أنها في غاية الوهن.

- «اجعلها تتحشن»، ردّد بيدال. «داوها».

كان أمرًا. وتهديدًا.

مكتبة ياسين

16
أغنية مهد

كانت للعلية نافذة مستديرة في الجدار تبدو وكأنها وجه القمر المكتمل، تلك العلية التي طلبَت مرثيديس من الخادمات أن يجهزنها لتكون حجرة نوم أوفيليا. كانت الحجرة نفسها أكثر وأكثر وحشة من تلك التي شاركت فيها أمّها، إذ امتلأت أركان العلية كلها بالصناديق المُخزّنة وقطع الأثاث المُغطّاة بالملاءات الشبحية التي صبغها الزمن والإهمال باللون الأصفر.

- «أتريدين تناول العشاء؟»، سألَت مِرثيديس.

- «كلا، أشكرك»، هزّت أوفيليا رأسها.

أحضرَت مِرثيديس خادمةً أخرى لتغطّي الفراش بالملاءات النظيفة والوسائد. تراءت الأقمشة البيضاء كالثلج على خشب السرير الداكن. كانت جميع قطع الأثاث في الطاحونة مصنوعة من ذلك الصنف من الخشب. وللحظة، تخيّلَت أوفيليا الأشجار المحيطة بالطاحونة وهي تنهض وتجتاح جدارها انتقامًا للإخوة الذين اجتثّوا من الأرض لصنع الأسرّة والطاولات والمقاعد.

- «لم تأكلي شيئًا»، قالت مِرثيديس.

كيف لها أن تأكل؟ وهي مُتخمة بالحزن. في صمتٍ وضعت أوفيليا كتبها على الطاولة المجاورة للفراش وجلست فوق الغطاء. أبيض. من الآن فصاعدًا، صار كل شيء أبيض اللون يُذكّرها بالأحمر.

- «لا تشغلي بالك»، ذهبت مرثيديس إلى الفراش ولمست كتف أوفيليا. «قريبًا تتحسّن أمُك. سترين. إن ولادة طفل شيء مُعقّد».

- «إذن فأنا لن أنجب أبدًا».

مكتبة ياسمين

لم تبك أوفيليا منذ وجدت أمها مضرجة بالدماء، ولكن صوت مرثيديس الرقيق جعل الدموع تنهمر على وجنتيها غزيرة كما جرت الدماء على صفحات كتاب الفاون. لماذا لم يحذُرها الكتاب في الوقت المناسب؟ لماذا يُريها شيئًا يجري في ذلك الوقت على كل حال؟ «**لأن الكتاب قاسٍ**»، همس في نفس أوفيليا شيءٌ، «**قاسٍ مثل سيّده الماكر. حتى الجنيّة قاسية**».

أجل، كانت الجنيّة قاسية. اقشعرّ بدن أوفيليا حين تذكّرت الجنية وهي تنشب أسنانها في وجبة الفاون الدامية. في كتبها، لا تملك الجنيّات أسنانًا كتلك، أليس كذلك؟

جلست مرثيديس إلى جوارها وربّتت على شعر أوفيليا، الذي كان فاحمًا مثل شعر أمّها. سواد الفحم، وبياض الثلج، وحمرة الدم...

- «إنك تساعدين أولئك الرجال الذين في الغابة، أليس كذلك؟»، همست أوفيليا سائلةً.

سحبت مرثيديس يديها.

- «هل أخبرتِ أحدًا؟».

رأت أوفيليا أن مرثيديس لا تجرؤ على النظر إليها.

- «كلا، لم أخبر أحدًا. لا أريد أن يقع لكِ أي مكروه».

اتكأت برأسها على كتف مرثيديس وأغمضت عينيها. أرادت لو تختبئ بين ذراعيها، من العالم، من الدماء، من الذئب، من الفاون. لم تكُن هناك مملكة سفلى يمكنها أن تهرب إليها. كلها أكاذيب. لم يكُن هناك إلّا عالم واحد، عالم مظلم.

لم تألف مرثيديس معانقة الأطفال، مع أنها ما زالت شابة قادرة على الإنجاب. وحين طوّقت الفتاة

مكتبة ياسين

بذراعيها أخيرًا، شعرت بخوف من تلك الرقّة التي اختلجت في قلبها. إنه لشيء خطير أن تكون رقيقًا في هذا العالم.

- «وأنا أيضًا لا أريد أن يقع لك أي مكروه!»، أجابت هامسة وهي تأخذ أوفيليا بين ذراعيها، مع أن جزءًا منها ما زال يحذُرها من ذلك العطف الذي منحت أوفيليا إياه. تمنّت مرثيديس أن تكون لها ابنة ذات مرة، ولكن الحرب قد أنستها ذلك. كما أنستها أشياء كثيرة.

- «أتعرفين أغنية مهد؟»، همهمَت أوفيليا سائلةً.

هل كانت تعرف؟ نعم...

- «واحدة فقط. ولكني لا أذكر الكلمات».

- «لا يهمُّني. ما زلتُ أرغب في سماعها». نظرَت إليها أوفيليا مُتوسّلة.

أغمضت مرثيديس عينَيها. وبينما راحت تهدهد ابنة امرأة أخرى بين ذراعيها برقّةٍ، بدأت تدندن أغنية المهد التي غنّتها أمُّها ذات مرة لها ولأخيها. وإذا النغمة الخالية من الكلمات تملؤها هي والفتاة بعذوبة الحبّ، وكأنها أول أغنية تُغنّى لأول طفل يُولد على وجه الأرض. كانت أغنية عن الحبّ والألم الذي يجرّه الحبّ. وعن القوة، الكامنة حتى في أعمق الظلمات.

مضت مرثيديس تدندن أغنية المهد للفتاة ولنفسها.

فأغرقت مخاوفهما في سبات.

ولكن السلام لن يدوم.

مكتبة ياسين

17
أخ وأخت

بقيت مرثيديس مع أوفيليا حتى استغرقت الفتاة في النوم، أخيرًا، برغم القلق الذي استحوذ عليها بشأن أمّها، برغم الخوف الذي ملأ الطاحونة العتيقة مثل غبار الطحين الأسود.

كان البيت غارقًا في الصمت عندما تسلّلت مرثيديس نزولًا على الدّرج. استغرق الجميع في النوم، عدا الحرّاس الذين كانوا يراقبون الغابة في الخارج، فلم يروها وهي تجثو على أرضية المطبخ وتمسح الرمال عن قطع البلاط حتى استطاعت أن ترفع واحدة من مكانها. ما زالت حزمة الرسائل التي أخفتها هناك، وكذلك علبة الصفيح الملأى بالأشياء التي نحتتها جانبًا من أجل الرجال المختبئين في الغابة. كانت تضع كل شيء في حقيبتها، وإذا بخطوات على الدّرج تجمّدها مكانها.

- «هذا أنا يا مِرثيديس»، همس دكتور فيرَيرا.

نزل على الدّرج ببطء وكأنه مُتردّدٌ في تنفيذ ما خطّط له مع مرثيديس طوال أيام.

- «هل أنت مُستعِدّة؟». سألته.

«**قُلْ نعم، أرجوك**»، توسّلت مرثيديس بعينَيها. «**فأنا لا أستطيع أن أفعلها وحدي**».

أومأ فيرَيرا.

*

قادت مرثيديس المسيرة، فسارت عبْر الغدير حتى لا تترك خلفها أثرًا، ونور القمر يتسلّل من خلال الأشجار جاعلًا من الماء فضةً ذائبة.

- «إنه محض جنون»، تمتم فيرَيرا والماء البارد

مكتبة ياسين

يملأ حذاءه. «لو اكتشف ماذا نفعل، لقتلنا جميعًا». كان كلاهما يعرف عمن يتحدّث، طبعًا. «ولكني أظنّك قد فكّرت في الأمر؟».

هل فكّرت في أمرٍ سواه؟

أرهفت مرثيديس السمع في قلب الليل.

- «أتخاف منه إلى هذا الحدّ؟».

ابتسم فيرَيرا رغمًا عنه. كانت رائعة الجمال، تتحلّى بالشجاعة وكأنها عباءة ملكية تنسدل على كتفيها.

- «كلا. ليس خوفًا»، أجاب صادقًا. «على الأقل، فأنا لا أخاف على...»، سكت في تلك اللحظة، عندما وضعت مرثيديس إصبعها على شفتيها مُحذِّرة.

كان شيء يتحرّك في الغابة.

أطلقت مرثيديس تنهيدة ارتياح عندما برز شابٌّ من خلف شجرةٍ في صمت كالأشباح التي رسمها القمر المتزايد على الأرض المفروشة بالعشب. كان يعتمر قبعة داكنة. بينما وشت ملابسه بأنه قد أمضى في الغابة حينًا، بصورة واضحة. لم ترفع مرثيديس عينَيها عنه وهو ماضٍ نحوهما من خلال السراخس. لم يكُن أخوها يصغرها إلّا بأعوام قليلة، ولكن تلك الأعوام صنعت فارقًا كبيرًا في طفولتهما.

- «پيدرو!»، لمست وجهه المُحبّب إليها بعطف عندما وقف أمامها. لطالما نسيت مرثيديس كم هو فارع القوام.

عانقها أخوها طويلًا. في وقت من الأوقات، لم يكُن يحتاج إلى حمايتها إلّا من قبضة أمّهما الحازمة، أو من طيش نفسه. أما في هذه الأيام، فلقد صار أمرًا أشدّ خطورة بكثير أن تكون مرثيديس أختًا حنونًا.

مكتبة ياسين

في بعض الأحيان، يتمنّى بيدرو لو كانت أخته أقل شجاعة، وأكثر حرصًا على نفسها. بل إنه طلب منها ألّا تمدّهم بالمزيد من المساعدة، ولكنها لا تلقي بالًا إلى ما يأمرها به أو ينهاها عنه الآخرون. لقد صنعت أخته القواعد الخاصة بها. ولطالما فعلت مرثيديس، حتى في الطفولة. كان يحبّها حبًا جارفًا.

مكتبة ياسين

صانع الساعات

في زمنٍ بعيد، بعيد، عندما كان أغلب البشر يحسبون أيامهم بقياس أشعة الشمس، حكم مدريد ملك مهووس بالزمن والساعات. كان يطلب الساعات الرملية وساعات الحائط وساعات اليد والمزاول(8) من ضنّاع الساعات المشاهير في كل أنحاء العالم. وكان الملك يبيع رعيته جنودًا أو مزارعين بأجر بخسٍ لملوكٍ آخرين حتى يؤدّي ثمن الآلات المرهفة. امتلأت ردهات قصره بصوت الرمال التي تنساب داخل الساعات الرملية العملاقة، وحتى المزاول كانت تحسب الساعات وفقًا للظلال التي تلقيها في حدائقه الشاسعة. امتلك ساعات حائط تحاكي الطيور الأثيرة إلى نفسه، وساعات أخرى يبرز منها فرسان وتنانين مُصغّرة إعلانًا عن مرور ساعة كاملة. حتى في أبعد أركان العالَم، كان الناس يطلقون على قصره الملكي في مدريد: «El Palacio del Tiempo»، أي «قصر الزمن».

أما زوجة الملك الجميلة، أوليبيدو(9)، فلقد أنجبت له ابنًا وابنة، وإن لم يُسمَح لهما باللعب والضحك شأن باقي الأطفال. بل كانت أيامهما محسوبةً ومحكومةً بالساعات التي أعطاهما الملك إياها، الساعات التي نظّمت مواعيد الاستيقاظ والطعام واللعب والنوم من أجلهما، بعقاربها الفضية والذهبية.

ذات يوم، تجرّأ الفهرّج الأثير عند الملك وقال مازحًا أن سيّده مهووس بالساعات لفجرّد أنه يخاف الموت ويتمنّى لو أبقاه بعيدًا عنه بقياس الوقت.

لم يكُن الملك بالرجل الذي يغفر بسهولة. وفي اليوم التالي، شدّ جنوده وثاق الفهرّج إلى تروس

مكتبة ياسين

أكبر ساعات الملك الذي راح يراقب بلا أدنى أثرٍ للرحمة بينما التروس تسحق كل عظمة في جسد مُهرّجه الأثير السابق. عجز الخدم عن مسح كل الدماء السائلة عن التروس، مهما بذلوا من جهد في سبيل ذلك، وهكذا أُطلق عليها «الساعة الحمراء» من ذلك الوقت فصاعدًا، وتهامس الناس بأن دقّاتها تردّد اسم المُهرّج القتيل.

مرّت السنون، وكبر الأمير والأميرة، وصارت مجموعة الساعات الخاصة بالملك مثارًا للغيرة في كل أرجاء العالم. وذات يوم –قرب ذكرى إعدام المُهرّج العاشرة– تلقّى القصر هدية مجهولة المصدر: ساعة جيب جميلة في صندوق من الزجاج. كانت العلبة الفضية مفتوحة، فظهرت الحروف الأولى من اسم الملك منقوشة على غطاء الساعة، في حين مضى العقربان الفضيان يتنقّلان من دقيقة إلى دقيقة بدقّات مرهفة وكأنها وقع خطوات اليعسوب.

التقط الملك الساعة من الصندوق، فوجد تحتها ورقة مطوية ومختومة بعناية، وإذا هو يمتقع حين قرأ الرسالة المكتوبة بخطّ محكم جميل:

جلالة الملك،

متى توقفْت هذه الساعة، فارقتْ أنتَ الحياة. إنها تعرف الساعة والدقيقة والثانية التي تموت فيها على وجه الدقة، فأنا قد حبستُ موتَك في داخلها. لا تحاول كسرها، وإلّا عجّلتَ بإنهاء حياتك.

صانع الساعات

حدّق الملك إلى الساعة في يده شاعرًا وكأنما العقربان يطعنان قلبه بكل ثانية يحسبانها. عجز عن الحركة. ولم يغد قادرًا على الأكل أو الشرب أو النوم. وما هي إلّا أيام حتى سرى الشيب في شعر

مكتبة ياسين

رأسه ولحيته، ولم يغد يملك سوى التحديق إلى الساعة.

أرسل الأمير جنود أبيه للعثور على المرسال الذي سلّم الهدية المميتة، فعثروا عليه في قرية قريبة، غير أنه لم يدر ما اسم صانع الساعات. أقسم أنه قد تلقّى الصندوق في طاحونة مهجورة تقع في الغابة العتيقة. ومضى بجنود الملك إلى الطاحونة، فلم يجدوا إلّا مشغلًا مهجورًا، حيث خلت الأرفف ومكاتب العمل إلّا من تمثال فضي صغير يصوّر فهرّجًا راقصًا، يقف في طشت من الدماء. سارع الجنود بالعودة إلى القصر للإفادة بما عثروا عليه. غير أنهم جاؤوا بعد فوات الأوان. إذ فارق الملك الحياة وهو لا يزال جالسًا على العرش، قابضًا على ساعة الجيب بيده الباردة. توقّفت العقارب في تمام الساعة والدقيقة والثانية التي مات فيها الفهرّج بالتحديد.

عند ذاك وحسب، تذكّر الأمير أن الفهرّج كان له ابن أيضًا.

مكتبة ياسين

18

المهمة الثانية

في تلك المرة لم تستيقظ أوفيليا على طنين جناحي الجنيّة في الظلام. للحظةٍ، جعلها الصوت الذي اخترق أحلامها تتساءل إن كانت الغابة قد اقتحمت غرفتها. ولكنها استقامت في جلستها، فوجدت الفاون يقف عند قاعدة السرير، بأطرافه التي أحدثت صريرًا وكأنها أغصان شجرة عتيقة في مهب الريح.

- «لم تنفُذي المهمة الثانية بعد»، قال ممتعضًا.

مرة أخرى، بدا الفاون مختلفًا. أشدّ قوةً. أصغر عمرًا... فتراءى لأوفيليا وكأنه أسد منزعج بشدة، عيناه خليقتان بقط، وأذناه مستديرتان تمامًا، وشعره أصفر شاحب طويل، بدا أقرب وأقرب إلى لبدة الأسد. أسد، تيس، بشر، إنه كل ذلك، ولا شيء من ذلك. إنه... الفاون.

- «لم أستطع!»، دافعت أوفيليا عن نفسها. «أمي مريضة! مريضة للغاية!».

- «ليس هذا عذرًا للإهمال!»، زمجر الفاون، ويداه تسطران غضبه في الليل. «حسنًا...»، أردف بعد وقفة. «سوف أغفر لك في الوقت الحالي. كما جئت إليك بشيء سوف يساعد أمك».

كان الجذر الشاحب الفتكتل الذي أمسكه أكبر من قبضة يده، فتراءى لعيني أوفيليا وكأن له ذراعين وساقين ملتويتين. كجنين تجفد وهو يطلق صرخة الولادة.

- «إنه جذر ماندريك»، أوضح لها الفاون وهو يمدّ ذلك الشيء العجيب إلى أوفيليا. «نبات حلم بأن يكون بشرًا. ضعيه تحت فراش أمك، في وعاء من

مكتبة ياسين

الحليب الطازج، وأطعميه قطرتين من الدماء كل صباح».

كرهت أوفيليا رائحة الجذر بقدر ما كرهت شكله العجيب في بشريته. كان أشبه بوليد خلا وجهه إلّا من الفم، لا يدان له ولا ساقان.

- «والآن، لا مزيد من التأخير. فلا يوجد وقت لإهداره!»، صفّق الفاون بيديه. «قريبًا يطلع القمر المكتمل فوق رؤوسنا. آه، أجل!». خلع حقيبته الخشبية. «كدتُ أنسى! سوف تحتاجين إلى كائناتي الأليفة كي ترشدك».

سمعت أوفيليا صوت الجنيّة تزقزق وهو يضع الحقيبة فوق غطائها.

- «أجل. أنتِ ذاهبة إلى مكان في غاية الخطورة». رفع الفاون إصبعًا مُنذِرة، بينما الخطوط المرتسمة على جبينه تدور وكأنها دوامات في نهرٍ بلا قرار.

- «أشدّ خطورة بكثير من ذلك الذي ذهبتِ إليه في المرة الأخيرة. ولذا، كوني حذرة!».

للحظةٍ جاء صوته ينمّ عن قلق صادق بشأنها.

- «إن الشيء الذي يغفو في ذلك المكان...»، هزّ رأسه ذا القرنَين وتجهّم باشمئزاز. «ليس بشريًا، مع أنه قد يشبه البشر. إنه شديد القِدَم، مفعم بالدهاء والقسوة – والجوع المفرط».

التقط ساعة رملية ضخمة من الهواء وألقاها على فراش أوفيليا.

- «إليك. سوف تحتاجين إلى هذه أيضًا. ستَرين مائدة فاخرة، ولكن لا تأكلي ولا تشربي شيئًا. لا شيء!». في هذه المرة، رسمت كلتا يديه علامة تحذير في الليل. «لا شيء مطلقًا!».

نظرت أوفيليا إلى الأشياء المتراصّة على غطائها:

مكتبة ياسين

جذر الماندريك، الحقيبة، الساعة الرملية. ثلاث هدايا... كتلك الهدايا التي يتلقّاها أبطال حكاياتها الخرافية في كثير من الأحيان. ولطالما ثبت أن تلك الهدايا نافعة للغاية، ما لم يفقدها المرء أو يسيء استخدامها.

- «لا شيء مـــطـــلـــقـــًا»، ردّد الفاون، وأصابعه ذات المخالب تخترق الليل. «حياتك رهن بذلك».

وقبل أن تتمكّن أوفيليا من سؤاله عن المزيد، كان الفاون قد رحل.

مكتبة ياسين

19

كهف في الغابة

اتُخذ المتمرّدون لأنفسهم ملاذًا في كهف على مسيرة نصف ساعة من الطاحونة، تحجبه الأشجار عن الأنظار جيدًا، وفيه متّسع لدزينة من الرجال ومتعلقاتهم: بضع حزم من الثياب البالية، وكوم من الكتب المهترئة، وأغطية أرقّ كثيرًا من أن تقيهم البرد، وآخر بقايا الحياة التي تركها أولئك الرجال خلفهم لأنهم رفضوا أن يقولوا «نعم» للبيادات الزاحفة ولإسبانيا فرانكو النظيفة.

لاختيار الحرية ثمنٌ باهظ.

- «لقد أحضرتُ بعضًا من شراب الأوروخو»، أخرجت مرثيديس من جرابها قنينة من الشراب الروحي المفضّل عند بيدال. «وبعضًا من التبغ والجبن. كما أحضرتُ رسائل أيضًا».

أما الرجال الذين تلقّوا الرسائل فلقد تناولوا الأظرف بأيدٍ مرتجفة. وبينما هم سائرون إلى خلفية الكهف لقراءة الرسائل التي كتبها أحباؤهم، مضى آخرون يتشمّمون الجبن الذي سرقته مرثيديس باشتياق. ردّتهم الرائحة إلى زمن أفضل من هذا، عندما كانوا يصنعون الجبن بأنفسهم من حليب عنزاتهم، حين لم تكن الحرية ترفًا يُدفع ثمنه بالخوف والبؤس.

كان المريض الذي أحضرت مرثيديس دكتور فيزيرا من أجله مستلقيًا على غطاء عتيق، يقرأ كتابًا مهترئًا، وهو مستند برأسه إلى حقيبة نوم. أطلق عليه الآخرون فرينتشي، وكانت نظارته أثمن قطعة استطاع أن يحتفظ بها من مقتنياته السابقة. لم يرفع عينيه عن كتابه حين مال دكتور فيريرا على

مكتبة ياسين

ساقه المُضمّدة.

- «كيف حال ساقي؟»، طرح سؤاله على فيرَيرا. «سوف أفقدها، أليس كذلك؟».

خلع الطبيب معطفه مُشمّرًا عن ساعديه.

- «دعنا نرى».

كان فيرَيرا يستمدُّ الشعور بالارتياح من مهنته في تلك الأوقات القاتمة: أحبّ أن يكون شافيًا، في حين اعتنق أكثرُ الباقين التخريب، ولكن حتى شفاء المرضى أصبح مهمة مميتة. إن ذلك الرجل الذي جاء الطبيب لمساعدته قد حكم على نفسه بالموت بانضمامه إلى رجال الغابة، كما عرف فيرَيرا أنه قد ارتضى الحكم نفسه بمساعدة المُتمرّدين.

تردّد لحظةً قبل أن ينزع الضمادة المضرجة بالدماء. حتى بعد كل هذه الأعوام، ما زال لا يملك الاعتياد على تلك الحقيقة، حقيقة أنه قد يُضطَرّ إلى أن يؤلم أحدهم حتى يقدّم إليه المساعدة. تمكّن فرينتشي من كتمان آهة، بينما اقشعرّ بدنه عندما سقطت الضمادة. تساءل فيرَيرا كم من رجال الغابة قد ندم على خوضه قتالًا يبدو أقرب فأقرب إلى القضية الخاسرة.

أحضرت مرثيديس جريدة، فأخذ تارتا، صديق پيدرو، يصرف أذهانهم جميعًا بقراءة الجريدة بصوت مسموع. لم يدر أحد السبب الذي أعجز لسان تارتا عن نطق الكلمات من دون أن يقسمها إلى مقاطع(10). من خلال تجربة فيرَيرا، كان التلعثم شهادة على حساسيةٍ أشدَ من أن تسمح لصاحبها بالتصدّي لظلمة العالم. ويُصاب به الأشخاص الذين يتميّزون بالرقّة ورهافة المشاعر، أولئك الذين لا يملكون إلّا رؤية كل شيء، والشعور بكل شيء. ما زال تارتا يبدو كالصبي، بوجهه الرقيق الذي تتجلّى

مكتبة ياسين

فيه لمحةُ من الشجن الدائم، وعينيه الداكنتين الشاخصتين إلى العالم في تعجُب ودهشة.

- «إنزال القوات البريطانية والكـ... كـ... كندية على شاطئ صغير في شمال فـ... فر...».

- «فرنسا أيها الأبله»، صاح فيه آخز وهو يجذب الجريدة، ويحجب مخاوفه من الأخبار الواردة فيها خلف قناع من القسوة والغضب.

- «أكثر من مئة وخمسين ألف جندي يمنحوننا الأمل»، قرأ.

الأمل... نظر فيزيرا إلى ساق فرينتشي المحطّمة. تلك التي أصابتها رصاصة، طبعًا. الآن باتت إصابات الرصاص مألوفة جدًا عند الطبيب، ولكن هذه الإصابة تبدو مُروِّعة. من حسن الحظّ أن العجوز لم يتمكّن من رؤية الضرر. «**العجوز**»؟ سخر فيزيرا من نفسه. إذ يُرجّح أن يكون فرينتشي في مثل عمره.

- «تحت إمرة الجنرال دوايت د. أيزنهاور...».

شهق فرينتشي في تلك اللحظة، حين لمس فيزيرا ساقه.

- «هل الوضع بالسوء الذي أظنّه؟».

- «أنصت يا فرينتشي»، جاء صوت فيزيرا رقيقًا، يشي بالعطف. خلع نظارته في محاولة عبثية ليرى الأشياء أقل وضوحًا للحظة.

- «لا توجد طريقة واحدة لإنقاذ هذه الساق».

امتلأ الكهف بالصمت. وبخوف الرجل الجريح.

طوّق الآخرون فرينتشي، بينما أخذ فيزيرا يفتح حقيبته. على الأقل، كان فيزيرا يحمل أدواته، لأنه يعالج الجنود الذين ارتكبوا هذه الفعلة أيضًا. وإن لم يكُن لديه عقار مُخدّر.

ولكن مرثيديس جعلت فرينتشي يشرب نصف

مكتبة ياسين

قنينة الشراب الروحي الخاص بكابتن بيدال. لم يجد في الشراب عزاءً كبيرًا، وهو الرجل الذي أوشكت ساقه أن تُبتر.

- «سأفعلها بأسرع ما أستطيع، وبأقل عدد ممكن من الجروح». تمنّى فيرَيرا لو كان يستطيع أن يقطع وعدًا أقل إثارة للشفقة.

أومأ فرينتشي متشبثًا بيد مرثيديس. لم تكُن أمًا، وعلى الرغم من ذلك لعبت مرثيديس دور الأمّ للمرة الثانية في ليلة واحدة: أولًا من أجل أوفيليا، والآن من أجل رجل تكاد لا تعرفه. أمَ، أخت، زوجة... كانت مرثيديس هي المرأة الوحيدة التي لم يرَ رجال الغابة سواها منذ أمدٍ بعيد، وصارت تشغل عند بعضهم تلك المواقع كلها. أغمضَت عينيها، كما فعل أكثر الرجال، عندما ضغط فيرَيرا بمنشار العظام على ساق فرينتشي المفتوحة.

- «انتظر لحظة، دكتورا لحظة واحدة!».

حدّق فرينتشي إلى ساقه مرةً أخرى. سيغدو عاجزًا بسبب اختياره أن يقاتل البيادات الزاحفة. تساءل فيرَيرا كيف جعله ذلك يشعر حيال القرار الذي اتُخذه. تنفّس فرينتشي عميقًا، وزمّ شفتَيه بإحكام، وكأنه بذلك سوف يكتم الصرخات في داخله، الصرخات، واليأس، والخوف... ثم أومأ برأسه مرةً أخرى.

وفي تلك المرة، كان فيرَيرا هو الذي اضطرّ إلى أن يلتقط أنفاسه، ويلملم شتات نفسه، من أجل المجزرة التي يوشك أن ينفّذها. في بعض الأحيان، حتى أولئك الذين يداوون الناس تجعلهم ظلمةُ هذا العالم من الجزّارين.

مكتبة ياسين

20

الرجل الشاحب

في علية أوفيليا، لم تُضطرّ إلى إخفاء كتاب الفاون. بل إنها وضعته على الطاولة المجاورة لفراشها، حيث برز وسط باقي الكتب نظرًا إلى حجمه. أشفقت عليها الخادمات لأنها قد أُبعدت إلى العلية، الأمر الذي كانت أوفيليا تراه باديًا على وجوههن كلّما أحضرن لها الطعام. ولكنها لم تأبه لذلك في واقع الأمر. إذ بات النوم أصعب وأصعب بجوار أمّها التي صارت أنفاسها الثقيلة ومعاناتها سببًا لكي تغضب أوفيليا بشدة من أخيها الذي لم يُولد بعد، حتى إنها صارت تضفي عليه وجه أبيه كلّما حاولت أن تتخيّل ملامحه.

في البدء كادت لا تقوى على فتح الكتاب بأصابعها. إذ استحوذت عليها ذكرى الدماء التي سالت من صفحاته، ولكن رغبتها في أن تعرف المهمة التالية كانت أقوى من الخوف. لقد لقّنها الفاون أول دروسه: وصارت تعرف بأمر شجاعتها منذ قطعَت نفق العلجوم اللامتناهي زحفًا. وفي هذه المرة، التحفت بمعطفها حرصًا منها على ارتداء ثياب تدفئ جسدها، ولا تتلف في حال تلوّثت، تأهُّبًا لمهمتها التالية.

كشف الكتاب أسراره بسرعة أكبر مما فعل في المرة السابقة، فامتلأت الصفحة اليسرى أولًا بخطوط مرهفة كشفت جسدًا كالهيكل العظمي، جسد رجلٍ شاحب، لا أنف له ولا شعر، فوق فمه الفاغر شقّان بدلًا من العينين. رسم الحبر البني جنيّةً، ثم بابًا. وأخذت الصور تتشكّل بتفاصيل أكثر فأكثر، بينما قرأت أوفيليا الكلمات التي ظهرت في

مكتبة ياسين

الصفحة اليمنى:

«ارسمي بالطبشور بابًا في أي موضع بحجرتك».

الطبشور. دسّت أوفيليا يدها في جيب معطفها مفتّشةً عن قطعة الطبشور التي أعطاها الفاون إياها. للحظة خافت أن تكون قد فقدتها، ولكن أصابعها عثرت عليها أخيرًا. ما زالت الصور ترتسم في الكتاب، حيث ظهرت الفتاة ذات الفستان الأخضر والمئزر الأبيض في مكان أسفل الرجل الشاحب. بدت ثيابها نظيفة وكأن أوفيليا لم تتلفها في الغابة قطَ. كانت الجنيّات الثلاث إلى جوارها. ابتسمت الفتاة لأوفيليا، ثم جثت على ركبتيها ممسكةً بالطبشور، ورسمت بابًا على الجدار، فتبدّت كلمات أخرى في الكتاب:

«حالما ينفتح الباب، اقلبي الساعة الرملية، ودعي الجنيّات يرشدنك إلى الطريق...».

تحت الذراع اليمنى للرجل الشاحب، ارتسم باب مفتوح يعلوه قوسٌ حجري قائم على عمودَين.

«لا تأكلي أو تشربي أي شيء وأنتِ هناك».

حذّرتها الكلمات الظاهرة على الصفحة اليمنى.

«وعودي قبل أن تسقط حبة الرمل الأخيرة».

أخذت صورٌ أخرى تتشكّل، ولكن أوفيليا وجدتها الآن أكثر مما يسعها حفظه، فأقفلت الكتاب وجثت على ركبتيها ممسكةً بالطبشور كما فعلت الفتاة في الرسم. كان جدار العلية غير مستوٍ، وانتشرت فيه خيوط العناكب، ومع ذلك ترك الطبشور على الجصّ خطًا واضحًا. وإذا الخطَ يستحيل رغوةً بيضاء، ويصدر عنه فحيح خافت، حتى أصبح إطار باب محفور في الجدار، انفتح عندما ضغطت عليه أوفيليا بيدها وكأنه بوابة مقبرة قديمة. كانت

مكتبة ياسمين

فتحة الباب من الضيق بحيث اضظرّت أوفيليا إلى أن تحني ظهرها لتلقي نظرةً من خلال الباب. نظرت إلى أسفل فوجدت روافًا فسيحًا، يرتفع سقفه عاليًا فوق رأسها، أما الأرضية فكانت تنخفض عن مستواها بما لا يقل عن سبعة أقدام. تراصّت الأعمدة بطول الجدران القانية كالدماء الجافة. ومن خلال النوافذ الصغيرة، تساقطت أشعة الضوء على البلاط الذي يشبه رقعة الشطرنج، بلونيه الأبيض والأحمر الضارب إلى البنّي.

كانت الأرض أشدّ انخفاضًا مما يسمح لها بالقفز، فجاءت أوفيليا بمقعد من العلية وأنزلته عبر الفتحة.

ثم علّقت جراب الفاون على كتفها ووضعت الساعة الرملية أرضًا، على مقربة من فراشها. ما كادت تقلبها أوفيليا حتى بدأت حفنة صغيرة من الرمال ذات اللون الأحمر الشاحب تنساب وتملأ الجزء السفلي من الزجاج بسرعة تبثّ القلق في النفس.

حلّ المقعد محلّ السلّم بكفاءة. قفزت أوفيليا من المقعد على بلاط الشطرنج، فسمعت أزيزًا آتيًا من بعيد... وكأن أحدهم يتنفّس بعمق في نومه. امتزج الصوت بوقع خطواتها التي تردّدت أصداؤها في المكان، بينما قطعت أوفيليا روافًا بدا أنه ينعطف وينعطف كمجرى النهر، والأعمدة تلقي ظلالها على البلاط كما لو كانت صفًا لا ينتهي من الأشجار الفتحجُرة. شعرت أوفيليا وكأنها قد أمضت ساعات في السير عبر الرواق الذي أفضى بها فجأةً إلى حجرة معتمة، خالية من النوافذ.

للحظة تساءلت أوفيليا إن كانت قد تاهت في الزمن، وعادت إلى ماضٍ ذهب في أدراج النسيان

مكتبة ياسين

منذ أمدٍ بعيد. تراءت الحجرة موغلة في القدم تحت السقف ذي الرسوم، ولكن أوفيليا لم تنظر إلى الرسوم الباهتة فوق رأسها. ولم تر إلّا مائدة مُمتدّة تتوسّط الحجرة، تراصّت فوقها الصحون الذهبية والأطباق التي امتلأت إلى حافتها بالفاكهة والكعك واللحوم المُحمّرة. ولكن وحده الكرسي الذي استقرّ في أقصى طرف المائدة كان مشغولًا. هناك جلس الرجل الشاحب، وقد ألقت عليه ألسنة اللهب وهجها بينما هي تتراقص في المدفأة الواقعة خلفه.

لم يتحرّك عندما اقتربت أوفيليا من المائدة. بل إنه كان يبدو وكأنه لم يتحرّك منذ قرون في واقع الأمر، في حين تراءى الطعام طازجًا وكأنما قد أُعِدّ لتوه. لم تقوَ أوفيليا على رفع عينَيها عن كل هذا الكعك والحلوى واللحم المُحمّر المُزيّن بالفاكهة والأزهار التي يمكن أكلها، والصحون الذهبية التي انعكس بريقها على الكؤوس البلورية الملأى بالنبيذ الأحمر. أحمر وذهبي... امتلأت الحجرة كلها بهذين اللونين، حتى ألسنة اللهب ردّدت أصداءهما. ويا للروائح الفاتنة! تلك التي أنسَت أوفيليا كل شيء، وأنسَتها حتى الكائن المخيف الجالس أمام صحنه في صمت مطبق على بعد أقدام قليلة منها.

لم تذكره إلّا حين بلغَت طرفه من المائدة، فشهقَت حين رأته عن كثب. كان عاريًا، كما صوّره الكتاب على وجه التحديد، بينما تهدّل جلده الشاحب كالكفن المُترهّل. كان مشهدًا بشعًا، ولكن الأدهى من ذلك وجهه. أو غياب وجهه.

كان وجه الكائن خواءً صارخًا، يخلو إلّا من منخارَين وفم رفيع كحدّ الشفرة –لا يعدو أن يكون شقًّا مُلطّخًا بالدماء تحيط به طبقات ثقيلة من الجلد المُتهدّل- بينما استقرّت يداه اللتان تنتهيان

مكتبة ياسين

بالمخالب قرب الصحن بلا حراك، بأطرافهما المدبّبة السوداء التي يتّصل بها لحم مخضّب بالدماء.

ولمّا لم يحرّك الوحش ساكنًا، تزوّدت أوفيليا بالشجاعة. ألقت نظرة على الصحن الذي استقرّ بين يديه المروّعتين، والفضول يدفعها إلى التساؤل عن سبب وجود كريتين زجاجيتين في الصحن، وإذا هي تتراجع مسرعةً حين اكتشفت أن هاتين الكريتين عيناه. عند ذاك وحسب ألقت نظرة أقرب على رسوم السقف التي كشفت عن أشياء جعلت أوفيليا تتراجع مبتعدةً عن المائدة رغم كل الأطعمة الشهية المتراصّة فوقها: إذ كشفَت الرسوم التي كانت فوق رأسها عن حرفة الرجل الشاحب.

صوّرت بعض الرسوم أطفالًا يرفعون أيديهم متوسّلين، طالبين الرحمة. بينما ظهر الوحش في رسوم أخرى وهو يغمد في أجسادهم السكاكين والسيوف، أو يمزّق أوصالهم، أو يغذّي جوعَه الذي لا يشبع بلحومهم. كانت الرسوم نابضة بالحياة حتى خيّل إلى أوفيليا أنها تسمع صرخات الضحايا. كان ذلك أكثر مما ينبغي! ولكنها حين خفضَت عينَيها هربًا من الصور الرهيبة، لم ترَ إلّا مئات الأحذية الصغيرة وقد تراكم بعضها فوق بعض قرب الجدار.

كادت أوفيليا لا تقوى على مواجهة الحقيقة، ولكنها قد تجلّت هناك. كان الرجل الشاحب آكل أطفال.

أجل، كان آكل أطفال.

«ولكن، ما دام يأكل الأطفال... فلمَ كل هذا الطعام؟»، تساءلت أوفيليا. **«لمَ الوليمة الفاخرة؟»**.

لم يمكنها العثور على إجابة لا في الصور المروّعة فوق رأسها ولا وسط الصحون الذهبية. ذكّرت نفسها بنصيحة الكتاب، كل ما يجب عليها أن تبقى

مكتبة ياسين

بمنأى عن المائدة، وأن تسمح للجنيّات بمساعدتها. حيّتها الجنيّات الثلاث بتغاريد مبتهجة حين فتحت الحقيبة، بينما تجاهلن المضيف الرهيب الجالس إلى المائدة، وضربن بأجنحتهن مُحلّقات إلى يسار الحجرة، حيث استقرّت أعلى الجدار ثلاثة أبواب صغيرة مُطوّقة بنقوش تصوّر أفواهًا فاغرة، وعيونًا مُحدّقة، وألسنة من اللهب، تراءى تحتها نقشٌ آخر يصوّر متاهة.

كانت الأبواب أكبر من يد أوفيليا قليلًا، يختلف كلٌّ منها عن الآخر قليلًا. ولكن الجنيّات الثلاث أشرن إلى الباب الأوسط، الذي كان جميلًا، بزاقًا، مُغطّى بالذهب.

أخرجت أوفيليا مفتاح العلجوم من جيبها، وفجأةً تذكّرت ما علّمتها إياه الحكايات الخرافية الواردة في كتبها: «**متى واجهتِ ثلاثة اختيارات، فانتقي أقلّها وضوحًا، وأكثرها تواضعًا، دائمًا**».

- «أوه، أنت مخطئة!»، همست للجنيّة. «ليس هذا الباب الصحيح!».

ومن دون أن تلقي بالًا إلى تغريداتهن المنزعجة، جرّبت أوفيليا المفتاح في ثقب الباب الأكثر تواضعًا، المصنوع من الخشب الريفي والمسامير الحديدية. انسلّ المفتاح بلا جهد، فرمقت أوفيليا رفيقاتها المُجنّحات بنظرة انتصار قبل أن تفتح الباب الصغير. تحلّقت الجنيّات حولها منصتات إلى صوت الرمال الحمراء التي انسابت عبر الساعة الزجاجية، وأخذن يستعجلنها.

كانت الفجوة خلف باب الخزانة عميقة، شديدة العمق، حتى كادت أوفيليا تعجز عن بلوغ الشيء المُخبّأ في جوفها. وأخيرًا، لمست بيدها نسيجًا ناعمًا ومعدنًا باردًا. كان الشيء الذي استخرجته

مكتبة ياسين

مغلّفًا بالمخمل الأحمر. وإن كادت أوفيليا تفلته من يديها حين أدركت ما ذلك الذي أمسكت به.

كان خنجرًا، له نصل طويل فضي كنور القمر، ومقبض ذهبي نُقشت عليه صورة فاون.

وطفل.

ومرة أخرى، تحلّقت الجنيّات حول أوفيليا ومضين يستعجلنها، ولكنها وجدت صعوبة بالغة في تذكُّر الرمال المنسابة عبر الساعة وهي في تلك الحجرة العتيقة، هناك حيث تراءى كل شيء مُجمّدًا في الزمن، حتى آكِل الأطفال ذو الجلد الشاحب. اقتربت إحدى الجنيّات من وجهه البشع حتى كاد جناحاها يلامسان جلده، لتتحقّق من أنه ما زال جامدًا، فظلّ آكِل الأطفال مكانه بلا حراك، وكأنه تمثالُ نفسِه، وكأنه نصبُ تذكاري لكل الأشياء الفرُوعة التي ارتكبها.

وضعت أوفيليا الخنجر في حقيبة الفاون، وسارت عائدةً إلى المائدة بينما هي تحاول أن تُبقي عينَيها على الرجل الشاحب. بدا الطعام كله شهيًا. لم تذكر آخر مرة رأت فيها كعكًا أو فاكهة طازجة كتلك. «**لم ترَها قط**». كانت جائعة. «**جائعة بحق**»، همس قلبها وهي ترفع يدها. «**لا تأكلي أو تشربي أي شيء!**». ولكن أوفيليا رأت العنب والرمان والأطعمة التي لم تعرف حتى اسمها، فوعدها كل ما رأت بمذاق حلو شهي، حتى إنها لم ترغب في سماع التحذيرات التي زقزقت بها الجنيّات.

كلا. أبعدتهن أوفيليا بيدها. حبة عنب واحدة – واحدة فقط. من المؤكّد أن أحدًا لن ينتبه إليها وسط هذه الوليمة العامرة. ومن يفتقد حبة عنب واحدة صغيرة؟ بحذر، التقطت حبة عنب ووضعتها في فمها. بينما دفنت الجنيّة التي قابلت أوفيليا في

مكتبة ياسين

الغابة وجهها بين يديها في يأس.

لقد انتهى أمرهن.

وإذا الرجل الشاحب تدبّ فيه الحياة، وتنتفض أطراف أصابعه السوداء المدبّبة كالأشواك، ويلتقط فمه الفاغر نفسًا مُعذّبًا، وتمتدّ يده اليمنى لتجذب إحدى عينيه من صحنه، بينما التوت يده اليسرى فاردةً أصابعها كزهرة بشعة. استقرّت العين في ذلك الشقّ الفاغر في الراحة اليسرى على أكمل وجه، وعندما استقرّت العين الثانية في الراحة اليمنى -تلك العين التي كانت حدقتها حمراء كحبة العنب التي أكلتها أوفيليا- رفع الرجل الشاحب كلتا يدَيه إلى وجهه الخالي من العينَين حتى يكتشف مَن ذا الذي أيقظه من سباته.

لم تنتبه أوفيليا إلى ما فعلَت. إذ كان سحر المائدة أشدَ مما ينبغي. لم تقوَ الجنيّة التي أرشدَتها إلى المتاهة على منعها من التقاط واحدة أخرى من حبّات العنب الغادرة.

أوه، يا لها من فتاة!

لماذا جعلَت مساعدتها شيئًا بالغ الصعوبة إلى هذا الحد؟ كم سيغضب سيّدهن ذو القرنَين! رفّت الجنيّة بجناحيها قريبًا من وجه الفتاة لتكسر السحر، بل إنها استطاعَت أن تجذب حبة العنب من بين إصبعيها. ولكن هل كانت الفتاة مُمتنّة لذلك؟ أوه، كلا. لقد غضبت أوفيليا. «**ألا يفهمن؟**»، فكّرت مُتسائلةً وهي تنتزع حبة العنب من الجنيّة مرةً أخرى. لم تشته إلّا أن تُغرق نفسها في حلاوة المذاق، وأن تجعل الفاكهة تنسيها كل شيء: كل المرارة، كل الألم، كل المخاوف التي ملأت حياتها.

قام الرجل الشاحب عن مقعده. وجاء من خلف المائدة سائرًا بساقين مُتخشّبتين وكأنهما قد نسيتا

مكتبة ياسمين

كيف تحملان جسده الذي يشبه الهيكل العظمي. أبقى يديه مرفوعتين أمام وجهه، والعينان في راحتيه تفتّشان عن اللصّ الذي أيقظه وسرق الطعام من مائدته.

عثرت عيناه على الجنيّات أولًا.

ثم أوفيليا.

التي ما زالت لم تنتبه إلى ما فعلت.

أوه، كم صرخت الجنيّات الآن! وإن لم تكن أصواتهن أعلى من صرير الجداجد إلّا قليلًا. قضمت أوفيليا حبة عنب أخرى، بينما الرجل الشاحب يقترب، وجلده يتهدّل على أطرافه الضامرة كثيابٍ من اللحم. تحلّقت الجنيّات حول رأس آكِل الأطفال الفروّع في محاولة مستميتة لصرف انتباهه عن الفتاة. احتدّت أصواتهن من فرط الخوف حتى اخترقت السحر أخيرًا.

التفتت أوفيليا، ولكن بعد فوات الأوان. إذ راح آكِل الأطفال يحاول الإمساك بالجنيّات بيدَيه الملطّختين بالدماء. في البدء استطعن الإفلات منه، ولكن الرجل الشاحب صائد خبير. قاتلت الجنيتان اللتان أمسك بهما باستماتة من أجل حياتهما، ولكن الصائد ما كان ليفلتهما. اضطرّت أوفيليا إلى مشاهدة الوحش وهو يدسّ الجنيّة الأولى بين فكّيه الخاليين من الأسنان. اقتلع رأسها بلا جهد وكأنه يقتطف زهرةً من ساقها، فسالت دماؤها على ذقنه الشاحب. جاهدت الجنية الثانية عاجزةً في وجه قبضته القاسية، ثم لقيت مصير أختها، وانسحق جناحاها وأطرافها بين شفتيه اللتين لا لون لهما. كان الرجل الشاحب يلعق الدماء التي سالت على أصابعه عندما استطاعت أوفيليا أن تحمل قدميها على الحركة أخيرًا.

مكتبة ياسمين

ركضت إلى الرواق ولكنها ما لبثت أن سمعت وقع الخطوات المختلّة التي يقطعها الرجل الشاحب آتيًا خلفها. وحين نظرت إلى الخلف، رأت هيئته المرؤعة بين الأعمدة، وعيناه في يديه المرفوعتين ترشقان المكان بالنظرات بلا هوادة. «**اركضا!**». أمرت أوفيليا قدميها. «**اركضا!**». وعلى الرغم من ذلك، ارتجفت ركبتاها وزلّت الفتاة وسقطت على بلاط الشطرنج.

أما الجنية الأخيرة، تلك التي نجت بحياتها، فمضت ترفّ بجناحيها إلى جوار أوفيليا. «**لقد قُتِلَت أختاك بسببي!**». فكّرت أوفيليا وهي تتعثّر في طريقها. كلا. لا يمكنها التفكير في هذا الآن. ما زالت لا تستطيع أن ترى نهاية الرواق، بينما الرمال تنساب عبر ساعة الفاون في العلية.

ربما كان شيئًا جيدًا ألّا تستطيع أوفيليا أن ترى مقدار الرمال القليلة المتبقّية. كان قلبها يخفق بشدة حين وصلت إلى آخر منعطفات الرواق. ها هو ذا المقعد يعلوه الباب الذي فتحه الطبشور.

سمعت الجنيّة صوت الرمال تنساب عبر الساعة.

وعندما صارت أوفيليا على بعد خطوتَين من المقعد، بدأ الباب يُوصد ببطء.

- «كلا!»، صرخت أوفيليا. «كلا!».

تسلّقت المقعد لاهثةً، وإن كان الباب قد اختفى إلى غير عودة حين وقفت أوفيليا فوق الكرسي، مع أنها راحت تقرع الجدار بقبضتيها. ما الذي جعل ذهنها المحموم يتذكّر الطبشور؟ ربما ذكّرتها الجنيّة بذلك همسًا؟

فتّشت أوفيليا جراب الفاون.

ولكن لا شيء.

ثم فتّشت جيب معطفها، فكانت أكثر توفيقًا في

مكتبة ياسين

تلك المرة.

تردّد وقع خطوات الرجل الشاحب آتيًا من خلال الرواق أعلى فأعلى، بينما توتّرت أصابع أوفيليا حتى كسرت الطبشور قطعتين. كادت لا تقوى على الإمساك بالقطعة الصغيرة المتبقّية في يدها. وصل الرجل الشاحب إلى المنعطف آتيًا خلفها، رافعًا يمينه ليحدّق إلى أوفيليا. وها هي ذي. أوه، كم يلذّ له أن يحاولوا الهرب! إن عملية الصيد مهمة بقدر القتل.

راحت الجنية تغرّد في رعب، ولكنها لم تبرح مكانها إلى جوار أوفيليا حين تسلّقت مسند المقعد كي تصل إلى السقف.

أقرب. مضى الرجل الشاحب يترنّح أقرب فأقرب، متمايلًا على ساقيه الخليقتين بالهيكل العظمي، وعيناه تبرقان في راحتيه.

وأخيرًا تمكّنت أوفيليا من رسم مربّع على الفسيفساء التي تغطّي السقف. ثم دفعَت الباب بكل ما تبقّى لها من القوة، فانفتح رسم الطبشور أخيرًا. تسلّقت أوفيليا، على أمل أن يفضي بها هذا الباب إلى حجرتها أيضًا، وعند ذاك فقدَت قدماها السيطرة على المقعد. تجاوزتها الجنيّة وهي ترفّ بجناحَيها، بينما جاهدَت أوفيليا لتسحب جسدها إلى الأعلى، بعيدًا عن اليدَين المروّعتَين. لامسَت ساقَيها أظفارُ الرجل الشاحب، الذي عميَت عيناه لأنه قد استخدم يديه في الإيقاع بأوفيليا، وهكذا تمكّنت من رفع جسدها إلى أرضية العلية التي يكسوها الغبار. وردّت الباب السري الذي فتحه الطبشور إلى مكانه حتى لم يتبقّ من الفجوة التي أنقذتها إلّا خيط رفيع من الضوء.

وقفت أوفيليا على قدميها.

وإذا بآهةٍ تتردّد وتخترق الأرضية، آهة جاءت

مكتبة ياسمين

من فمِ جائع مُلطّخ بالدماء. وحين تراجعت أوفيليا إلى الخلف، أحسّت بالرجل الشاحب يدفع ألواح الأرضية. لطالما كانت أسوأ المخاوف تحت أقدامنا، خفية عن الأعين، تهزّ الأرض التي نتمنّى لها أن تكون صلبة آمنة.

جلست أوفيليا على فراشها لترفع قدميها عن الأرض، بينما أرهفت سمعها، مُرتجفة. وحين جثمت الجنيّة على كتفها، وجدت الفتاة في دفء جسد الجنية الصغير ارتياحًا واتهامًا في آن، فعلى الرغم من كل شيء، أسفرَت الإخفاقات التي منيَت بها أوفيليا عن مقتل شقيقتَي الجنية.

جاءت ضربة وحشية أخيرة من الأسفل.

ثم أطبق الصمت... أخيرًا.

مكتبة ياسمين

21

لا اختيار

كان الفجر قد أشرق منذ قليل حين أعاد پيدرو دكتور فيزيرا ومرثيديس إلى الأرض الخالية من الأشجار القريبة من الغدير حيث التقاهما. كان مفعمًا بالثقة، بينما تساقط على وجهه ضوء الصباح والهواء المنعش المحمّل بوعود البدايات الجديدة.

- «قريبًا نتلقّى تعزيزات من خاكا! خمسين رجلًا أو أكثر». جاء صوته خاليًا من الخوف والارتياب، على الرغم من اليأس الذي شهدوه جميعًا على وجه فرينتشي في الليلة الماضية. «ما إن يصلوا حتى نخوض معركة ضد بيدال وجهًا لوجه».

سبق أن رأى فيزيرا ذلك من قبل: الحماسة التي قد يجلبها يوم جديد، حتى بعد الليلة الأشدّ ظلمةً. في بعض الأحيان، تبلغ الحماسة من القوة حدًّا يسمح لها بالاستمرار، ولكنها تخمد بحلول المغيب في أكثر الأحوال. حتى فيزيرا نفسه ما زال لم يتعافَ من بتر ساق فرينتشي. كل الألم واليأس اللذين استحوذا على الرجل الجريح ورفاقه، وعجز فيزيرا...

- «وجهًا لوجه، ثم ماذا؟»، عجز عن كتمان السؤال. «متى قتلت بيدال أرسلوا آخر مثله. ثم آخر...».

لقد شهد فيزيرا خيبات أمل أكثر مما ينبغي في حياته. أحقًّا عاش ثمانية وأربعين عامًا فحسب؟ كان يشعر وكأن عمره ألف عام، ولقد تعب من كل أولئك الشباب الذين يرغبون في القتال، وإن قاتلوا على الجانب الصحيح.

لم يتكلّف پيدرو عناء الإجابة عن سؤاله. وإنما اكتفى شقيق مرثيديس بالنظر إليه، بوجهه الناضر

مكتبة ياسين

الشاب. ماذا رأى؟ الأرجح أنه لم ير إلّا عجوزًا تعيسًا.

- «لا تستطيع أن تنتصر في هذه المعركة!»، صاح فيرّيرا. «أنت لا تملك أسلحة كافية، أو ملاذًا! كلكم سوف تلقون نهاية فرينتشي. أو أسوأ».

جثا فيرّيرا على حافة الغدير حتى يغسل الدماء عن منشاره ومبضعه. من المؤكّد أنه سوف يحتاج إلى هاتين الأداتين مرة أخرى في وقت أقرب مما ينبغي. اندفعت المياه الباردة من بين يديه. المياه الباردة كهذا العالم.

- «لست في حاجة إلى مزيد من الرجال»، قال. «بل إن رجالك في حاجة إلى الطعام! والدواء!».

ظلّ پيدرو ساكتًا، لا ينبس بكلمة واحدة. في حين مضى المُتمرّدون خلفهم يجمعون الحطب، أو أي شيء تمنحهم الغابة إياه.

- «أمريكا، روسيا، إنجلترا... كلهم سوف يقدّمون إلينا المساعدة»، قال أخيرًا. «حالما ينتصرون في الحرب العظمى ضدّ الفاشيين الألمان، سوف يقدّمون إلينا المساعدة حتى ننتصر على الفاشيين في إسبانيا. لقد قدّم فرانكو دعمًا إلى هتلر. أما نحن فدعمنا الحلفاء. ومات كثيرون منا دعمًا للمقاومة. لقد خرّبنا مناجم التنغستن في غاليثيا(11)، تلك التي يحتاج الألمان إليها كي تستمرّ مصانع الأسلحة الخاصة بهم في العمل... أتظنّ الحلفاء سوف ينسون هذا؟».

نهض فيرّيرا واضعًا أداتيه في الحقيبة مرة أخرى. أجل، **سوف** ينسون. تملّكه تعب وغضب كلاهما شديد. ربما كان السبب في ذلك الغضب شعوره بالإرهاق وغياب الأمل في المقام الأول. «**ولا تنسَ الخوف**»، قال لنفسه. الخوف لأن القضايا العادلة لا تنتصر أبدًا، ولأنهم لا يملكون إلّا التصدّي للشر بعض

مكتبة ياسين

الوقت.

- «ماذا عن مرثيديس؟». كلا، لم يستطع أن يترك الأمر، مع أنه هو نفسه قد ضاق بصوته. «لو أنك تحبّها بحق، لعبرت الحدود معها. إن هذه قضية خاسرة!».

خفض پيدرو رأسه، وكأنه ينصت إلى صوت قلبه، لعل جزءًا من قلبه يوافق. ثم نظر إلى فيرَيرا مرة أخرى.

- «دكتور، أنا باقٍ هنا»، قال. «لا أملك اختيارًا».

جاء صوته حازمًا مثل وجهه. بلا أدنى أثر للشكّ أو للخوف.

في مقتبل العمر نشعر وكأننا خالدون. أو لعلّنا لا نبالي بالموت بعد؟

ذهب پيدرو للقاء أخته، بينما تتبّع فيرَيرا الشابّ الفدائي بعينيْه. هل كان فيرَيرا مثله في أي وقت من الأوقات؟ سأل نفسه. كلا. أو ربما، وهو لا يزال صبيًا، عندما كان العالَم لا يزال مُقسّمًا إلى الأبيض والأسود، الخير والشرّ. متى صار العالَم أقلّ بساطة؟ أو لعلّ ذلك ما حدّثه به قلبه المتعب وحسب؟

مضت مرثيديس تقتطف حبّات التوت وشقيقها يتحدّث إلى فيرَيرا. تقدّم الغابة الكثير إلى أولئك الذين يجلّونها. لم تخف مرثيديس من الغابة يومًا، حتى عندما كانت طفلة صغيرة وروت لها أمّها حكايات عن الأشجار الحيّة، و«رجُل الماء»، والساحرات، في محاولة منها لكي تزرع الخوف من الغابة في قلب مرثيديس. لطالما كانت الغابة عندها تعني الملاذ، والطعام، والحياة... ولذا لم تُفاجأ بأن الغابة صارت تشمل أخاها بالحماية الآن. تراءى پيدرو الآن كبيرًا جدًا. وكأنه هو الأخ الأكبر. ربما صار الآن هو الذي يكبرها عمرًا، كما فكّرت

مكتبة ياسين

مرثيديس حين رأته يسير مُقبلًا.

- «يا أختي، يجب عليك أن ترحلي».

وضع يديه على كتفيها. في لفتة وشت بالمشاعر التي استطاع صوته أن يخفيها. دست مِرثيديس يدها في جيبها، ثم ناولته مفتاح مخزن الغلال الذي سرقته البارحة من جارور الكابتن وهي تنظُف حجرته.

- «انتظر بضعة أيام أخرى»، نبّهته. «لو هجمت على مخزن الغلال الآن، فذلك هو الشيء الذي يتوقّعه بالتحديد».

أخذ شقيقها المفتاح بابتسامة نصر. وللحظةٍ، لم يبدُ كبيرًا على الإطلاق، وإنما تراءى كالصبي المُتحمّس الذي تذكره مِرثيديس جيدًا جدًا.

- «لا تقلقي. دعي الأمر لي. سوف ألتزم الحذر». أحاط كتفيها بذراعه طابعًا قبلةً على وجنتيها.

الحذر. لم يلتزم الحذر يومًا. ولم يدرِ للكلمة معنى. تشبّثت مِرثيديس بيده لتمدّ عمر تلك اللحظة الغالية. كان ذلك هو الشيء الذي أبقاهم جميعًا على قيد الحياة: اختلاس اللحظات.

- «أنا جبانة»، همست.

كادت المفاجأة الظاهرة على وجه پيدرو تحملها على الابتسام.

- «كلا، لست جبانة!».

- «بلى، أنا جبانة... لأنني أعيش بالقرب من ذلك الرجل الوحش، وأغسل ثيابه، وأرتّب فراشه، وأطعمه... ماذا لو كان الطبيب محقًا، ماذا لو أننا لا نستطيع الانتصار؟».

سكت پيدرو. ثم أومأ برأسه أخيرًا، وكأنه يقرّ بذلك الاحتمال.

مكتبة ياسين

- «إذن، فعلى الأقل سنجعل الأمر أشدّ صعوبة على ابن العاهرة الشرير ذلك»، قال.

مكتبة ياسين

الشفرة والسكين

في مرة من المرات، عاشت امرأة في كوخ يقع في الغابة العتيقة، امرأة تُدعى روثيو، قال عنها أهل القرى المحيطة إنها ساحرة. كان لها ابن وابنة من رجل غادر بعد أن ضرب الصغيرين بحزامه.

- «ربما اضطررتُ إلى الرحيل عنكما قريبًا»، قالت لهما بعد أن احتفل ابنها بعيد ميلاده الثاني عشر بأيام، عندما كانت ابنتها على وشك أن تبلغ الحادية عشرة بعد شهرين. «لقد رأيتُ موتي في أحلامي ليلة أمس. لا أخاف الذهاب إلى المملكة السفلى، ولكني أشعر بالقلق، فربما كنتما أصغر من مواجهة هذا العالَم وحدكما. ولذا أقدّم إلى كل منكما هدية من شأنها أن تحافظ عليه، في حال تحقّقت أحلامي».

تبادل الصغيران نظرة خائفة، فلطالما تحقّقت أحلام أمّهما.

أمسكت روثيو بيد ابنتها وأطبقت أصابع الفتاة حول مقبض خشبي ناعم، مقبض سكين مطبخ صغير.

- «سوف يحميك هذا النصل من كل أذى يا لويسا»، قالت الساحرة. «بل إنه سوف يفعل أكثر من ذلك، فهذا السكين يخترق أقنعة الرجال ويكشف وجوههم الحقيقية التي كثيرًا ما يحاولون إخفاءها».

اضطرّت لويسا إلى كبح دموعها، وهي التي أحبّت أمّها كثيرًا، غير أنها تلقّت السكين وأخفته بين طيات منزرها.

- «أما أنت يا ميغيل، فعندي لك نصل من صنفٍ اخر»، قالت الساحرة لابنها وهي تطبق أصابعه

مكتبة ياسين

حول مقبض شفرة من الفضة. «سوف تستفيد بهذه الشفرة قدر انتفاع أختك بسكين المطبخ، فمن شأن نصلها الحاد أن يحميك من كل أذى. ومتى كبرت ونمت لحيتك، فلن تحلق هذه الشفرة ذقنك وحسب، بل إنها سوف تزيل عنك الذكريات الأليمة أيضًا، فكلّما استخدمتها جعلت الشفرة قلبك شابًا ناضرًا كالوجه الحليق. ولكن حذار، فمن الذكريات ما يجب علينا الاحتفاظ به وإن ترك في نفوسنا جروحًا غائرة. ولذا، كُن حكيمًا في استخدام هديتي يا بني، ولا تفرِط في ذلك».

في اليوم التالي لم تغد روثيو من تلك الرقعة في الغابة، هناك حيث كانت تجمع الأعشاب الناضرة كل يوم. لم يعرف ابناها إلّا في نهار اليوم التالي أن نبيلًا قد أمر جنوده بإغراقها في بركة الطاحونة التي كثيرًا ما أخذتهما إليها لسؤال الماء عن الماضي والمستقبل.

عجّل ميغيل ولويسا بحزم متاعهما القليل ورحلا عن الكوخ الذي يسمّيانه بيتًا، علمًا منهما أن أبناء الساحرات قلّما يُتركن على قيد الحياة. وجدا كهفًا على الجانب الآخر من الغابة، على مسافة آمنة من الطاحونة حيث قُتِلت أمّهما، فكان الكهف ملاذًا لهما من الأمطار وأنياب الليل الحادة. قدّم إليهما النصلان طعامًا، وقدّما إليهما الحماية من الرجل الشاحب عندما راح يجوب الغابة على مقربة من كهفهما ذات يوم.

كانت للهواء رائحة الثلج حين عثر عليهما مزارعٌ يصطاد الأرانب في الغابة. ولمّا كان المزارع وزوجته عاجزَين عن الإنجاب، فلقد مضى بهما إلى بيته من دون أن يسألهما من أين جاءا. أحبّهما المزارع وزوجته اللذان لا أبناء لهما، وربّياهما كما لو كانا

مكتبة ياسين

ابنيهما. كبرا، فصارت لويسا خادمة مطبخ، وتعلّم ميغيل حرفة الحلاقة، وظلّ النصلان اللذان تلقّاهما الشقيقان من أمّهما يقدّمان إليهما الطعام والحماية.

ظلّ كلٌ من لويسا وميغيل مُعتزًا بهدية أمّه مدى الحياة. وبعد أعوام طوال، حين أورثا الهديتين لأبنائهما، ظلّ السكين والشفرة محتفظين بالحدّة واللمعان كما كانا يوم وضعتهما روثيو في يدي ابنها وابنتها لأول مرة. لم ينجبا سوى البنات، ولذا أورث ميغيل الشفرة لزوج ابنته، صاحب القلب المظلم القاسي، الذي ضغط على عنق زوجته بالنصل ذات يوم، في فورة من الغضب، فلم تُلبّ الشفرةُ رغبته، بل إنها قطعت يده. ومن ذلك اليوم فصاعدا، بدلًا من محو الذكريات الأليمة، صارت الشفرة ترثُ الذكريات الأليمة للرجال الذين يستخدمونها، ويسمّمونها بالظلمة الكامنة في نفوسهم.

مكتبة ياسين

22

ممالك الموت والحبّ

لم ينم بيدال جيدًا، وبينما هو يكشط وجهه المغسول بالشفرة، وجد نفسه يتمنى لو أنها خلّصته من الشّعر الداكن والأحلام المزعجة التي ما زالت تعشّش في الظلال التي رسمها الصباح في الحجرة المغبرة.

سال معجون الحلاقة على الشفرة جاعلًا الماء أبيض كالحليب. لم ذكّره ذلك بابنه الذي لم يُولد بعد، وبزوجته النازفة؟ على مقربة من الإناء، استقرّت ساعة الجيب التي تدقّ ماضيةً بحياته. «**الموتا**»، بدا وكأنما العقارب الفضية تحدُر. ربما كان الموت هو الحب الأوحد في قلب بيدال. قصته الرومانسية العظمى، العصية على المقارنة بما عداها. إنه شيء في منتهى العظمة والكمال، احتفاء بالظلمة، وبالاستسلام التام أخيرًا. ولكن الخوف من الإخفاق يكمن حتى في الموت، طبعًا، خوفه من أن يخمد مغمورًا، دافئًا وجهه في التراب، بلا مجد، والأدهى من ذلك أن تنتهي به الحال كما انتهَت بأمّه، في الفراش، والمرض يأكل جسدها. هكذا تموت النساء. لا الرجال.

حدّق بيدال إلى صورته المنعكسة على المرآة، فجعلت بقايا معجون الحلاقة لحمه يبدو وكأنه قد تعفّن. رفع الشفرة قريبًا جدًا من صفحة المرآة حتى بدا وكأنها تنحر عنقه. هل كان الخوف يسكن عينيه؟ كلا.

أنزل يده بحدّة، مستدعيًا قناع الثقة الذي اتُخذه وجهًا ثانيًا، حازمًا، خاليًا من الرحمة. «الموت» عاشقة يخافها المرء، والسبيل الوحيد إلى التغلّب

مكتبة ياسين

على ذلك الخوف: أن يكون المرء جلّادها.

ربما أحسّ بيدال بأن «الموت» قد حضرت إلى الطاحونة، بينما هو أمام المرآة، في وحدةٍ مطبقة، يتودّد إليها بشفرته. ربما سمع وقع خطواتها الصامتة على الدّرج المفضي إلى الغرفة حيث كانت زوجته الحبلى تسعل بلا هوادة على فراش، غارقة في العرق.

حتى أوفيليا سمعت وقع خطوات الموت. وقفت إلى جوار فراش أمّها، ومضت تربّت على وجهها الذي كان حارًّا وكأنما الحياة في داخلها تحترق وتغدو رمادًا. هل كان أخوها الذي لم يُولَد بعد خائفًا أيضًا؟ وضعت أوفيليا يدها على النتوء البارز في الجسد الضئيل الماثل تحت الأغطية. هل أحسّ الجنين بحرارة الحمّى التي أصابت أمّه تلهب وجهه الصغير؟ تعبت أوفيليا من فرط ما غضبت منه. إن هذا المكان هو الذي أصاب أمّها بالمرض، وليس أخاها. واللائمة تقع على الذئب وحده. في واقع الأمر، وجدت أوفيليا نفسها تتوق إلى رفقة أخيها وحمله والعناية به كما كانت الفتاة المنحوتة على العمود في جوف المتاهة تعتني بالطفل بين ذراعيها. في بعض الأحيان، نحتاج إلى رؤية مشاعرنا حتى نعرف بشأنها.

حضرت أوفيليا إلى حجرة أمّها لتفعل كما قال لها الفاون، فجاءت بوعاء من الحليب ووضعت فيه الماندريك الذي أعطاها الفاون إياه، مع أن الجذر ما زال يصيبها بالغثيان. ما كاد يلمس الحليب حتى بدأ يتلوّى، ويمدّ أطرافه الشاحبة كالطفل حديث الولادة. بدت ذراعاه وساقاه ممتلئتين وكأنهما لطفل صغير. حتى الأصوات التي أصدرها كانت تشبه صرخات وليدٍ مكتومة حادة. بل إن جذر الماندريك

مكتبة ياسين

كان يلتفت إلى مصدر الصوت كلّما تأوهت أمّ أوفيليا في فراشها كصغيرٍ ينصت إلى صوت أمّه.

اضطرّت أوفيليا إلى الابتسام على الرغم من إحساسها بالغثيان. ظلّ يصدر أصواتًا خافتة وهي تحمل الوعاء إلى الفراش. لم يسهل عليها وضع الإناء تحت الفراش من دون أن تسكب الحليب. اضطرّت أوفيليا إلى الزحف تحت الفراش كي تدفع الإناء بعيدًا عن الأنظار. وللحظةٍ خشيت أن يوقظ الماندريك أمّها عندما انطلق يبكي كالطفل. كالطفل الجائع. طبعًا! عضّت أوفيليا إصبعها وضغطت عليها حتى سالت قطرتان من الدماء في الحليب. عند ذاك وحسب سمعت وقع خطوات، بينما هي لا تزال مستلقية تحت الفراش.

جاء أحدهم ووقف إلى جوار الفراش الذي رقدَت فيه أمّها. شعرَت أوفيليا بالارتياح عندما ميّزَت حذاء دكتور فيرَيرا.

ولكن فيرَيرا لم يأتِ وحده.

- «كابتن!»، سمعَته أوفيليا يقول. «لقد انخفضَت حرارتها! لا أدري كيف، ولكنها انخفضَت».

شعر فيرَيرا بارتياح كبير، بعد أن استحوذ عليه القلق منذ وجدَت الفتاة أمّها تنزف خشية أن تغدو أوفيليا يتيمة عما قريب، وأن يفقدوا أخاها الذي لم يُولد بعد. بذل فيرَيرا قصارى جهده لإخفاء ذلك القلق عن أوفيليا، ولكنه رأى الخوف في عينيها السوداوين كعينَي أمّها. لقد عرف أنه لن يستطيع أن يحمي الفتاة من الرجل الذي يقف إلى جواره لو ماتت الأمّ... الفتاة التي استلقت تحت فراش أمّها، بقلبٍ تسارعت ضرباته...

- «إذن؟ ما زالت مُصابة بالحمّى»، لم تلمس أوفيليا في صوت الذئب راحةً ولا انشغالًا. ولا حبًا.

مكتبة ياسين

- «أجل، ولكنها علامة مُبشِّرة»، سمعت الدكتور يقول. «جسدها يستجيب لعلاجي».

أحسّت بأمّها تتحرّك وهي نائمة على الفراش الذي استلقت أوفيليا تحته.

- «أنصتْ إليّ يا فيرَيرا...»، جاء صوت الذئب في غاية البرود. «لو اضطررتَ إلى الاختيار، فأنقذْ الجنين. مفهوم؟».

عجزت أوفيليا عن التنفُّس، بينما انطلق قلبها صارخًا. جاءت كل كلمة نطق بها الذئب وكأنها صفعة على وجه أمّها المحموم.

- «إن ذلك الولد»، تابع حديثه، «سوف يحمل اسمي. واسم أبي. أنقذه. لو أنه...».

وإذا بدويٍّ مفاجئ يُسكِته عن الكلام. تأكّدت أوفيليا أن ذلك الدويّ آتٍ من الغابة. إذ لم يقتصر حضور الموت على داخل الطاحونة.

*

عندما خرج بيدال من البيت يتعثّر في خطاه، وجد جنوده مجتمعين في الباحة، بينما تصاعدَت كرة نار من ظلّة الأشجار راسمةً في السماء دخانًا رماديًا.

سمعت أوفيليا دويّ انفجارَين آخرَين وهي تزحف تاركةً موقعها تحت الفراش. غير أنها لم تُلقِ بالًا. تراءى وجه أمّها هادئًا لأول مرة منذ غرقَت ثياب نومها في الدماء. وبرقّةٍ، وضعت أوفيليا أذنها على بطن أمّها الحبلى.

- «أخي!»، همست. «يا أخي الصغير، لو استطعت أن تسمع صوتي، فاعلم أن الوضع هنا في الخارج ليس جيدًا. ولكن يجب عليك أن تخرج عما قريب».

تعبت أوفيليا بشدة من فرط البكاء. وعلى الرغم من ذلك، ملأت الدموع عينيْها.

مكتبة ياسين

- «لقد جعلت ماما تمرض بشدة».

«**لو اضطررتُ إلى الاختيار، فأنقذ الجنين**»، ردّت لها كلمات الذئب شعورها بالغضب، ولكن أوفيليا لم ترغب في ذلك. من الآن فصاعدًا، سوف يقف ثلاثتهم في وجهه. الأمّ، والأخت، والأخ. كما ينبغي أن يكون.

- «أريد أن أطلب منك معروفًا...»، توسّلت إليه. «... واحدًا فقط، متى جئتُ، لا تؤذها أرجوك».

رسمت دموع أوفيليا نقطًا مُبلّلة على غطاء أمّها، وكأن كل مشاعر الحزن والخوف باتت سائلة.

- «سوف ترى عندما تقابلها»، قالت. «ماما جميلة جدًا، مع أنها تحزن لأيام كثيرة في بعض الأحيان. ولكنها عندما تبتسم... أعرف أنك سوف تحبّها. أنا مُتأكّدة أنك سوف تحبّها!».

لم تتلقَّ ردًا، وإن اعتقدت أوفيليا أنها سمعت قلب أخيها يخفق تحت جلد أمّها.

- «أنصتْ!»، أودعت أوفيليا كلماتها الحمولة التي تليق بالوعد المهيب. «لو فعلتَ كما قلتُ لك، أخذتُك إلى مملكتي، وجعلتُك أميرًا. أعدك بهذا! سأجعلك أميرًا».

وتحت الفراش أطلق الماندريك صيحة خافتة.

مكتبة ياسين

23

الطريقة الشريفة الوحيدة للموت

فجّر المتمرّدون خطوط القطار على التلال، كما فجّروا أحد القطارات التي تقلّ إمدادات الجيش إلى حامية قريبة. اشتبك المحرّك بسيور من الحديد المنصهر، واكتسى جانباه المعدنيان بالرماد والتربة التي غاص فيها عندما حاد عن مساره.

- «لقد أطلقتُ البوق، ولكنهم أبوا أن يتحرّكوا!».

كان قائد القطار يهفو إلى إقناع الجميع بأنه ليس هو المخطئ. مضى يتعثّر في سيره مع بيدال وسيزانو بحذاء عربات القطار المتضرّرة.

- «لقد حاولتُ التوقُّف! أقسم أنني قد حاولت! ولكن بعد فوات الأوان».

أحمق. وحدهم المذنبون يتحدّثون بمثل هذه السرعة. أراد بيدال أن يزجّ به أسفل القطار المحطّم، أو يركله حتى يخمد كالمحرّك. ولكن الأبله قد استرسل أكثر فأكثر في ادعاءاته اللاهثة.

- «قفزتُ أنا ورجل الإطفاء خارج القطار في الوقت المناسب، ولكن انظر إلى الفوضى العارمة التي أثاروها!».

راقب بيدال الخطوط التي نُسفت، والقطار الذي نُسف. وتحطّم. وتعطّل. ذلك ما يريده الأوغاد في الغابة. الفوضى. توقّف أمام عربة تراءت سليمةً نوعًا ما.

- «ماذا سرقوا؟»، سأل أحد الرجال الذين يراقبون المرور.

- «لا شيء سيدي الكابتن. لم يفتحوا سيارة واحدة». أخذ الرجل يمسح السخام عن وجهه. كان

مكتبة ياسين

أهدأ من قائد القطار كثيرًا، لأنه يزفّ أخبارًا سارة.

- «عن أي جحيم تتحدّث؟».

- «كل هذه الفوضى... ولكنهم لم يفتحوا عربة واحدة من عربات القطار. لم يأخذوا شيئًا واحدًا. وحده الرب يعرف ماذا يريدون. فضلًا عن إهدار وقتكم».

راقب بيدال جنوده مُتحلّقين حول القطار المُعطّل كما يحتشد النمل حول العش الذي تعرّض للدهس. «**إهدار وقتنا**». وفي ذهن بيدال، جاء رنين الكلمات مُروّعًا في زيفه. كلا. ما كان المُتمرّدون يهدرون المُتفجّرات الثمينة لمُجرّد إزعاجه. أو تراهم قد يفعلون؟ وقبل أن ينتهي من تلك الخاطرة، جاء الردُّ يرنّ من خلال الغابة.

وإذا بانفجار آخر يحملهم على الالتفات جميعًا. بينما تعالَت كرة لهب من الأشجار، لم يساورهم أدنى شك حيال مصدر الانفجار.

لقد تعرّضوا للخديعة! والأمر برمّته شرَك، حيلة لتشتيتهم!

أما الآن، فهي الحرب.

كان القتال لا يزال مُستمِرًّا حين وصلوا إلى الطاحونة. أطاحَت التفجيرات بالسيارات الجيب والشاحنات وخيام الجنود، في حين ارتمَت الأجساد المضرجة بالدماء في كل أرجاء الباحة. لم يكد بيدال يتعرّف غارثيس الذي أقبل خارجًا من الدخان، مُغطّى بالدماء والسخام.

- «لقد جاءوا من العدم سيدي الكابتن!».

دفعه بيدال جانبًا.

انهمر المطر غزيرًا، وكأن السماء قد حالفت الوحوش المُتمرّدة. أجل، هكذا يطلق عليهم من

مكتبة ياسمين

الآن فصاعدًا. وحوش الغابة. امتزج المطر بالدخان، ولذا شقَّ عليهم أن يعرفوا مصدر الهجمات. لم يخلع بيدال نظارة الشمس، فانعكست صور رجاله على العدسات الداكنة... إنها الصورة التي لم يُرد لهم أن يروا غيرها حتى يسترد السيطرة على مشاعره، لأن القناع يسقط عن وجهه، والغضب والخوف المختبئان وراء القناع تفضحهما العينان أولًا. لقد وقعوا في الشرك كما تقع حفنة من الأرانب في شرك الثعلب... رجاله، معداته، بات كل شيء فوضى من النفايات الغارقة في المطر. استطاع بيدال أن يسمع الغابة وهي تضحك ساخرةً منه، الغابة والجبناء المختبئين تحت أشجارها.

- «لديهم قنابل يدوية سيدي الكابتن!». اتَّسعت عينا غارثيس خوفًا. «لم يكن هناك ما يمكن عمله». عرف الجنود كلهم أن الكابتن سوف يعثر على أحد حتى يلقي عليه باللائمة، ويتَّخذه كبش فداء لما جرى.

عند ذاك وحسب انتبه بيدال إلى أن أبواب مخزن الغلال مفتوحة على مصراعَيها.

كاد يسحق نظارة الشمس وهو يخلعها بيدَيه اللتين يكسوهما القفاز. لم يجرؤ غارثيس على الذهاب إلى مخزن الغلال في أثره. الإمدادات، الدواء... لقد استولى الفتمرُدون على كل شيء، حتى التبغ الخاص به. أما الأبواب، فلم يمسسها ضرر. كما لم يكن هناك أدنى أثر للفتفجّرات. تفحّص بيدال القفل، فلم يجد أثرًا لاقتحام المكان.

- «كابتن!»، هرول سيزانو حتى صار إلى جواره، وقد عجز وجهه عن إخفاء شعوره بالارتياح لأنه لم يكن هو المكلّف بحراسة الطاحونة نهار ذلك اليوم، وإنما غارثيس. «لقد طوّقنا وحدةٌ صغيرة تتّخذ

مكتبة ياسين

ساترًا فوق التل».

التلّ. حسنًا. من شأن ذلك أن يجعل الوحوش أرانب ضعيفة. أصلح بيدال وضع القبعة فوق شعره المبلّل. أجل. لن يدعهم يفلتون بفعلتهم في هذه المرة.

*

لم يكن ذلك الذي هرعوا إليه بالتلّ المرتفع. كما لم يكن للمتمرّدين ساتر غير الأحجار القليلة على القمة.

قاد بيدال الهجوم بنفسه، فمضى يطلق النار وهو يركض من شجرة إلى أخرى. سوف يقتلهم في هذه المرة قبل أن تتمكّن الغابة من إخفائهم مُجدّدًا. وكما هو دأبه كلّما خاض معركةً، مضى يحمل الساعة بيده اليسرى. إنها تميمة حظّه، بوجهها المكسور على راحته، ودقاتها التي تحثّه على المضي قدمًا. في بعض الأحيان، يأتي صوتها كالهمسة المعدنية: «**هيا يا بيدال. لقد شهدتُ موتَ أبيك. والآن أريد أن أشهد موتك أنت. كم تتركني أترقّب؟**».

أمر جنوده بالهجوم على موقع المتمرّدين من كل صوب. وفي تبادل إطلاق النيران، تطايرَت شظايا من لحاء الأشجار حولهم، وإن عرف بيدال أن ذخيرة الأعداء سرعان ما تنفد. الأرجح أن هناك دزينة من الأعداء، أو ربما أقلّ. تفوّقوا عليهم عددًا حتى صار وضع المتمرّدين ميؤوسًا منه.

لم يكن للصيد ذلك المذاق الشهيّ المألوف. لقد سمح بيدال للفريسة بأن تخدعه. وما من انتقام قادر على محو ذلك العار. ولكن في يده أن يحرص على ألّا يعيش أحدهم حتى يحكي القصة، على الأقل. توارى خلف شجرة حتى يعيد تعبئة مُسدّسه. بينما اتُخذ سيزانو ساترًا خلف شجرة على يساره.

- «تقدّم يا سيزانو!»، صرخ بيدال وهو يطلّ من

مكتبة ياسين

خلف الشجرة حتى يطلق بضع رصاصات أخرى. «لا حاجة إلى الخوف، إنها الطريقة الشريفة الوحيدة للموت!».

اتُخذ ساتزا مرة أخرى، والتقط نفسًا عميقًا بينما هو يدسّ الساعة في جيبه. ما زالت تحميه. من الواضح أن أوان موته لم يأت بعد. بضع طلقات أخرى، أخطأته الرصاصات بفارق بوصة واحدة، بينما انطلق جنوده يصرخون من حوله ويتساقطون على ظهورهم، محملقين بعيون خاوية إلى أعلى، إلى الأغصان والأمطار التي لا ترحم. عاود الاختباء خلف شجرة أخرى حتى يعيد تعبئة المسدس برصاصات جديدة، ثم خرج مرة أخرى تحت الأمطار المعدنية، فوق التلّ، هناك حيث مضى يطارد الفريسة ويدفعها إلى الخروج من خلف الأحجار، ويُرغمها على الندم لأنها تجرّأت وجعلَت منه أضحوكة.

اتُخذ بيدال ساتزا للمرة الأخيرة. والمطر يسيل من قمة القبعة إلى عينَيه. وأطراف الجثامين مُمدّدة على الصخور كما لو كانت جذوعًا شاحبة انتُزِعت من الأرض. لم يستمرّ في القتال إلّا اثنان من الفتمرّدين، أصيبا بعدة طلقات حين أمر بيدال بشنّ هجوم جديد، فسقطا وهما يطلقان صرخات مكتومة.

أوه، إنه صمت الموت. الذي لا يشبهه شيء. كثيرًا ما تمنّى بيدال لو أمكنه أن يسجّل صمت الموت وينصت إليه بينما هو يحلق وجهه. لم يكسر صوت الموت إلّا وقع قطرات الأمطار التي انهمرت من خلال الأشجار وتساقطت على الجثث الهامدة، فأغرقت ثيابهم حتى تركتهم وكأنهم قد انصهروا في الأرض.

مكتبة ياسين

قطع بيدال الرقعة الأخيرة من التلّ متبوعًا بجنوده الذين نجوا بحياتهم من الهجوم. كانت خسائرهم تافهة مقارنةً بتلك التي تكبّدها المُتمرّدون. توقّف بيدال قرب أول مُتمرّد، فلم يحرّك الأخير ساكنًا. وعلى الرغم من ذلك، تأكّد بيدال من موته مُطلقًا رصاصتين على وجهه الصامت. أدخل ذلك شعورًا طيبًا إلى نفسه، فكل رصاصة تُبطل بعضًا من السموم التي يضخّها في دمائه عاز الوقوع في الخديعة. ولكنه يحتاج إلى العثور على مُتمرّد ما زال قادرًا على الكلام.

ناداه بيدال حتى يأتي إليه، فجاء سيزّانو يركض، كعهده دائمًا، وكأنه كلب تلقّى تدريبًا جيدًا. عثرا على اثنين آخرين من الأعداء مُمدّدين وسط الصخور على قمة التل. كلاهما مُجرّد صبي، ويُحتمَل أنهما لا يتجاوزان الخامسة عشرة من العمر. كان أحدهما قد لقي مصرعه، ولكن الآخر ما زال يتحرّك ضاغطًا بيمينه على جرح الرصاصة الذي في عنقه، ومسدسه مُلقًى إلى جواره. ركل بيدال المسدس بعيدًا.

- «دعني أرَ»، قال وهو يزيح يد الفتى المضرجة بالدماء عن الجرح. قالها بيدال بما يشبه الرقّة. وهو الذي يلذّ له أن يتحلّى بالهدوء مع الفريسة.

ما زال في نفس الصبي شيء من القتال، وإن كانت إزاحة يده بعيدًا عن الجرح مهمة يسيرة. إذ لم يبق له من القوة شيء، ومن المؤكّد أنه لم يبق له من الحياة الكثير. كان عنقه مضرجًا بالدماء.

- «أتستطيع الكلام؟».

لهث الفتى وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه، مُحدّقًا إلى السحاب الذي أغرق وجهه بالأمطار.

- «سحقًا!»، هبّ بيدال واقفًا واستلّ مسدسه.

مكتبة ياسين

وحين صوّب المسدس إلى وجه الصبي، مدّ الأحمق يده المضرجة بالدماء ليدفع الفوهة جانبًا، بعينين خامدتين ملؤهما التحدّي، وما يشبه السخرية. انتزع بيدال المسدس من قبضته، مُصوّبًا إليه مرةً أخرى. في تلك المرة ضغط الصبي بيده على الفوهة، ولكن الرصاصة اخترقت اللحم والعظم في يسر. ثم أطلق بيدال رصاصة أخرى على رأسه الفتمرّد.

- «لا نفع من هؤلاء. لا أحد بينهم قادرًا على الكلام»، لوّح بيدال مشيرًا إلى الأجساد المتناثرة على الأرض حولهم. «أطلق عليهم النار جميعًا».

راقب سيزّانو مقتل الصبي وقد تملّكه شعور بالضيق. اشتبه بيدال في أن سيزّانو يتخيّل رأسه تحت مسدس الكابتن أحيانًا. من المؤكّد أن مثل هذه الخواطر لم تراود غارثيس، الذي يؤدّي عمله كما تقضي الأوامر.

- «كابتن!»، نادى. «ما زال هذا على قيد الحياة. لم يُصب إلّا بجرح في ساقه».

وقف بيدال إلى جواره. كانت نظرة واحدة إلى الفتمرّد الجريح كافيةً لترسم ابتسامة على وجهه.

- «أجل، هذا يفي بالغرض».

مكتبة ياسين

24

أخبار مشؤومة، أخبار سارة

عادةً ما يطبق الصمت على الجنود في أعقاب المعارك الخاسرة. أما رجال بيدال، فمضوا يتصايحون ويضحكون في طريق العودة من الغابة. عرفت مرثيديس أن شيئًا مروّعًا قد وقع من دون شك. حين جاءت تركض إلى الداخل، كانت الخادمات الأخريات يقفن على أعتاب المطبخ، ويشاهدن الجلبة التي سادت الباحة.

- «ماذا جرى؟»، انقطعت أنفاسها من فرط الخوف حتى كادت تعجز عن الكلام. متى كانت آخر مرة تنفّست فيها بهدوء؟ لم يسعها التذكُّر.

- «لقد أوقعوا بواحد منهم. لقد أوقعوا بواحد منهم على قيد الحياة». جاء صوت روسا شديد الحدّة من فرط الذعر، وهي التي سرت شائعات بأن لها ابن أخٍ في الغابة. «سوف يأخذونه إلى مخزن الغلال!».

عرفن جميعًا ما الذي يعنيه ذلك.

وعندما هرولت عائدةً إلى الخارج، إلى المطر المنهمر، نادتها ماريانا، ولكن مرثيديس عجزت عن التزام الحذر. ليس اليوم. كان الخوف الذي شعرت به اليوم وحشًا يلتهم قلبها.

- «مرثيديس! عودي»، بَحّ صوت ماريانا. بينما تحلّقت الخادمات الأخريات حول الطاهية كما لو كنّ سربًا من الدجاج المذعور. تصلّبت وجوههن خوفًا وأملًا: الخوف من أن يزجّ رجال بيدال بمرثيديس في مخزن الغلال، والأمل في أن تعرف من هذا الذي أوقعوا به.

من هذا الذي أوقعوا به؟

«بهيدروا».

مكتبة ياسين

همست مرثيديس باسم أخيها وقدماها تنزلقان في الوحل.

«پيدروا».

كانت على وشك أن تبلغ مخزن الغلال عندما رأت الجنود يسحبون أسيرهم عبر الباب المفتوح، وساقاه تحرثان الأرض الموحلة وراءه في عجز. قطعت مرثيديس خطوة كي تختلس النظر إلى داخل مخزن الغلال، ولكنها لم تر إلّا الجنود وهم يشدّون وثاق جسد متراخٍ إلى واحد من القوائم الخشبية في الداخل، وعباءات المطر التي يلتحفون بها تتلألأ في الظلام.

- «مِرثيديس؟».

وقف بيدال خلفها، وإلى جواره سيزانو.

- «كابتن»، فوجئت بأن الصوت الذي أطلقته شفتاها كان ذا معنى. كادت لا تملك أن تحوّل عينيْها عن الأسير، الذي تدلّى رأسه، بينما توارى وجهه خلف قبعة داكنة. كان شقيقها يعتمر قبعة كهذه.

- «أحتاج إلى... التحقُّق من الإمدادات في مخزن الغلال».

من المؤكّد أنه قد لمس في صوتها مدى اليأس الذي استحوذ عليها. حتى هي سمعت بأذنيْها صوتها الذي جاء وكأنه لطفلةٍ صغيرة تائهة. من حسن الحظّ أن بيدال كان يتوق إلى الوصول إلى الأسير، حتى إنه لم يعرها أدنى انتباه.

- «ليس الآن يا مرثيديس»، أجابها نافد الصبر. «لا أريد أحدًا في الباحة أو مخزن الغلال. تفقُّدي زوجتي، لو تكرّمت...».

أومأت في طاعة. ولكنها لم تقو على الحركة. بل إنها ظلّت واقفةً هناك، من حيث شاهدت بيدال وهو

مكتبة ياسين

يخلع القبعة عن رأس السجين المتراخي، الذي رفع وجهه ناظرًا إليها.

تارتا.

اتُسعت عيناه وكأنه حملٌ يُساق إلى المجزر. اتُسعت عيناه علمًا بما سوف يأتي قريبًا. أحسّت مرثيديس بنظرته كما لو كانت يدًا ممدودة إلى يدها، ولكن تارتا لم يفضح أمرها. ولم يصرخ طالبًا المساعدة، وإنما زمّ شفتيه عازمًا على أن يتحلّى بالشجاعة، هاتين الشفتين اللتين تكسران الكلمات وكأنها خزفٌ مُحطّم.

كانت مرثيديس لا تزال واقفة تحت المطر عندما أوصد سيزانو باب مخزن الغلال. خجلت من نفسها لأنها شعرت بالارتياح كونهم قد أوقعوا بتارتا وليس پيدرو. وإن لم يستمرّ شعورها بالارتياح سوى لحظة واحدة. لأن تارتا يعرف موقع پيدرو. ويعرف كل شيء عنها هي والطبيب.

يعرف كل شيء.

فُوجئت مرثيديس لأن قدميها وجدتا طريق العودة إلى المطبخ. راحت الأخريات يقطعن الخضراوات لإعداد الحساء الذي سوف يقدّمنه إلى القتلة. «**أما زال أخي على قيد الحياة؟**»، سألت نفسها وهي تنضمّ إليهن في قطع الجذور والبقدونس. وماذا عن الآخرين؟ هل قُتلوا في الغابة جميعًا، وامتزجت دماؤهم بالأمطار؟ «**كلا!**»، قالت لنفسها. «**كلا يا مرثيديس، لو قتل الجنودُ الجميع لما أبقوا على حياة تارتا**».

ببطء، وكأن أصابعها لم تكن لها، وإنما لشخصٍ آخر، مضت تقطع جذرًا آخر إلى قطع شاحبة بالسكين الذي تحتفظ به في منزرها. لم تر إلّا نصل السكين الحاد. ماذا يجري في مخزن الغلال؟

مكتبة ياسين

اضطرّت إلى استجماع كامل قواها لتمنع أفكارها من العودة إلى الفتى الذي اتُسعت عيناه، وتصوُّر الأشياء التي قد يفعلون به.

راحت ماريانا تراقبها، بوجهها المستدير الذي تركت عليه الحياةُ خطوطًا.

- «هذا كثير يا عزيزتي»، قالت عندما أزاحت مرثيديس الخضراوات التي قطعتها على الطاولة ومدّت يدها كي تلتقط جذرًا آخر. أي خطّ ترسمه الحياة في هذه اللحظة على وجوههن؟ خطوط بالغة الكثرة، خطوط الخوف، والأسى... كانت مرثيديس تشعر بالمفاجأة لأنها لم تزل محتفظة بجمالها.

حملت ماريانا صينية الطعام التي حضّرتها من أجل أوفيليا وأمّها.

- «هل أحمل هذا إلى الطابق العلوي؟»، لم يكُن لماريانا أحبّاء في الغابة، وإن كان لها ابنان في عمر تارتا تقريبًا.

- «سأحمله بنفسي»، قالت مِرثيديس وهي تلتقط الصينية من بين يديها – أي شيء لتمنع خيالها من الجموح، ولكنها لم تفلح في ذلك. «**ماذا حدث ليهدرو؟**»، أخذ السؤال يتردّد مع كل خطوة قطعتها وهي تصعد الدرج. «**بمَ يخبرهم تارتا؟**».

كان دكتور فيرَيرا برفقة أمّ أوفيليا. وحين دخلت مرثيديس، رفع عينيه عن قارورة الدواء الذي كان يعدّه.

«**أتذكر تارتا؟**»، كانت تودّ لو سألته. «**أتذكر كيف يعجز عن قراءة الجريدة بسرعة كافية من أجل الآخرين؟ قد يشي الآن بنا جميعًا لو أرغموه على الكلام**».

مكتبة ياسين

لم تنتبه أوفيليا إلى خوف مرثيديس.

كانت أسعد من أن تنتبه إلى ذلك. لقد تحسّنت حالة أمّها اليوم بالقدر الذي يسمح لها بأن تلعب بأوراق اللعب. وعندما ناولها دكتور فيرَيرا قارورة الدواء هزّت رأسها.

- «دكتور، لا أعتقد بأنني في حاجة إليه»، قالت. «أشعر بتحسّن كبير».

- «لهذا أصف لك نصف الجرعة فحسب. وبالفعل، لقد تحسّنت كثيرًا»، أجابها دكتور فيرَيرا باسمًا. «لا أفهم لذلك سببًا، غير أنني سعيد به».

ولكن أوفيليا تعرف. نظرت إلى دورق الحليب الطازج الذي أحضرته مِرثيديس. قريبًا يحتاج إليه جذر الماندريك. وإلى قليل من قطرات الدماء أيضًا. سيكون كل شيء على ما يُرام، مع أنها قد عضت أمر الفاون وتسبّبت في مقتل جنيتَيْه. ما زالت تسمع صراخهما في أحلامها، ولكن أمّها قد عادت إلى الابتسام، كما نفّذت أوفيليا المهمة الثانية وعادت بخنجر الرجل الشاحب، على الرغم من كل شيء.

أجل، سوف يتفهّم الفاون.

عرفت أوفيليا بقلبها أنه لن يتفهّم، ولكنها كانت أسعد من أن تسمح لتلك المشاغل بأن تلقي عليها بظلالها.

مكتبة ياسين

25

تارتا

أخذ بيدال وقته. إن التحقيق مع الأسير عملية مُعقّدة. تشبه الرقصة: خطوة إلى الوراء، فخطوة سريعة إلى الأمام، وتتكرّر الخطى. خطوة بطيئة، تليها خطوة سريعة، فأخرى بطيئة.

مضى أسيزه يرتجف، والعرق يتصبّب من وجهه، مع أنهم لم يعنّفوه إلّا قليلًا. ولكن خوفه قد أنجز معظم العمل حتى الآن، خوفه من الآتي. سوف يسهل كسره.

- «سحقًا، إن هذه السيجارة جيدة. تبغ حقيقي. يصعب العثور عليه»، قرّب بيدال سيجارته من وجه الفتى كثيرًا، حتى أحسّ تارتا بحرارة التبغ المحترق.

مال بوجهه إلى الوراء حين قرّب آسزه السيجارة من شفتي تارتا المرتعشتين.

- «اذ... اذ... اذهب إلى الجحيم!».

- «غارثيس، أتصدّق هذا؟»، التفت بيدال إلى الضابط. «نوقع بأحدهم، فيتّضح أنه يتلعثم في الكلام. سوف نمضي ليلتنا كاملة هنا».

- «سنبقى بقدر ما يستلزم الأمر»، أجابه غارثيس.

شعر تارتا بأن الضابط لم يتلذّذ بالوضع بقدر الكابتن، الذي كان شيطانًا في زيّ عسكري، من ذلك الصنف الذي طالما خاف تارتا أن يلتقيه. وقع تارتا في أيديهم، وعرف ما الذي يمكن لتلك الأيدي أن تفعل.

«لو وقعتَ في الأسر يومًا، فكّر في شخص يجب عليك أن تحميه»، هكذا علّمه پيدرو في أثناء

مكتبة ياسين

التدريب على التزام الصمت حتى تحت التعذيب. «**فكّر في شخص قد تضحّي بحياتك من أجله. ربما لا يساعد ذلك، ولكن لا يهمّ. فكّر في شخص يا تارتا**». من؟ ربما فكّر في أمّه. أجل. مع أن التفكير فيها قد يجعل الأمر أسوأ، فله أن يتصوّر كم ستصرخ أمّه لو أنها فقدته.

خفض تارتا رأسه. ليت أطرافه تكفّ عن الارتجاف! حتى لو كان لنصيحة پيدرو أن تساعد ذهنه على الهرب، فلقد فضح جسده الخوف الذي استحوذ عليه.

- «غارثيس على حقّ»، قال الكابتن. «سنبقى بقدر ما يستلزم الأمر».

فتح قميصه، والسيجارة تتدلّى من بين شفتيه. تساءل تارتا إن كان بيدال سيخلع القميص لئلّا يتلفه بدمائه.

- «خير لك أن تخبرنا بكل شيء. ولكني أحضرتُ بعض الأدوات حتى أتأكّد من ذلك. فجزْد أشياء يلتقطها المرء في الطريق».

التقط بيدال مطرقة. كان قد صفّ أدواته بنظام صارم على طاولة عتيقة من الخشب.

ارتجف تارتا. ألا يقول الناس إن الخوف قد يقتل؟ تمنّى تارتا لو كان يعرف كيف يقتل نفسه خوفًا.

- «في البدء لا يمكنني الوثوق بك»، أخذ الشيطان يزن المطرقة بيده. وتراءى من الواضح فخره بمهارات التعذيب التي يملكها. «ولكن، بعدما أستخدم هذا، سوف تقز بمسؤوليتك عن بضعة أشياء. ومتى وصلنا إلى هذا...»، التقط كلّابة. «ستكون قد نشأت بيننا... كيف أقولها...؟».

رصد تارتا لمحة من الضيق على وجه الضابط

مكتبة ياسين

الآخر، بل إنها ربما كانت لمحة من الرحمة. كان الضابط الآخر ووالد تارتا لهما الشارب نفسه.

- «دعنا نقلها كما يلي...»، مضى الشيطان يفتح الكلّابة ويغلقها. «ستكون قد نشأت بيننا صلة وثيقة... ونصبح كأننا... شقيقان. ومتى وصلنا إلى هذا...». التقط المفك. «سوف أصدّق أي شيء تخبرني به».

انخرط تارتا في النشيج. حاول الامتناع عن ذلك بكل ما يملك، ولكن مشاعر الخوف واليأس والوحدة الكامنة في نفسه قد طغت عليه. وبات من الضروري لها أن تأخذ شكلًا، حتى وإن اقتصر ذلك الشكل على الدموع.

التقط آسِره نَفَسًا آخر من سيجارته، راضيًا عن نفسه. أعاد المفك إلى الطاولة. ثم أمسك المطرقة مرة أخرى واقترب من تارتا.

- «سوف أعرض عليك صفقة»، قال ضاغطًا على كتف تارتا المرتجفة برأس المطرقة الثقيل. «لو استطعتَ أن تعدّ من واحد إلى ثلاثة من دون أن تتلعثم، فلك أن تذهب».

رفع تارتا رأسه ناظرًا إلى مُعذِّبه، رغم علمه بأن عينيه سوف تفضحان كم يتملّى قلبه المُروَّع اليائس أن يلمح ولو بصيص أمل. مضى يفتّش عن بصيص الأمل في وجه غارثيس أيضًا... غارثيس، أجل، هكذا يُدعى. سُرّ تارتا لأن المتمرّدين لا يخبرون بعضهم بعضًا بأسمائهم الحقيقية، وهو الذي يتذكّر الأسماء جيدًا.

خلا وجه غارثيس ذو الشارب من كل تعبير.

- «لا تنظر إليه!»، انفجر الشيطان صائحًا. «انظر إليّ أنا. لا أحد يفوقني مكانةً. غارثيس!».

مكتبة ياسمين

- «أجل سيدي الكابتن».

- «لو قلتَ إن هذا الوغد يمكنه الذهاب، فهل يستطيع أن يخالفني الرأي أحد، كائنًا من كان؟».

- «لا أحد يستطيع، سيدي الكابتن. لو قلت ذلك، فيمكنه الذهاب». بادل غارثيس الفتى المرتجف نظرةً خاطفة. «**هذا كل ما أستطيع أن أفعله من أجلك**»، بدا وكأنه يقول بعينيه. «**أن لا أحوّل عينيّ عنك**».

التقط بيدال نفسًا آخر من سيجارته. أوه، كم يلذُّ له ذلك!

- «تفضّل»، قرّب وجهه من وجه تارتا مرة أخرى. «هيا. عدّ من واحد إلى ثلاثة».

حاولَت شفتا تارتا المرتجفتان أن تُشكّلا الرقم الأول، بينما انكمش جسده خوفًا.

- «واحد...».

- «جيد!».

حدّق تارتا إلى الأرض، وكأنه يحاول العثور على آخر بقايا الكرامة هناك. حاولَت شفتاه مرةً أخرى، ثم لفظ تارتا مقطعي الكلمة إلى الخارج.

- «اثنان».

ابتسم بيدال.

- «جيد! رقم آخر، وتغدو حرًا».

اختلج فم تارتا من فرط الجهد الذي يبذله حتى يتكلّم بوضوح، في محاولة منه ليقدّم كلمات غير مُنكسرة إلى الرجل الذي سوف يكسره. ولكن لسانه أبى أن يطيعه في تلك المرة. ولم ينطق إلّا بحروف متلعثمة «ثـ... ثـ»... وكأنها رجفة الأشياء المُنكسِرة.

نظر إلى الشيطان، وعيناه تتوسّلان الرحمة.

- «خسارة!»، قال بيدال، مُستحضرًا نبرة العطف

مكتبة ياسين

التي تؤج بها أداءه.
وانهال على الوجه الفتوسل بالمطرقة.

مكتبة ياسين

صانع المُجلّدات

في مرة من المرات، كان هناك صانع مُجلّدات يُدعى ألدوس كاراميث، برع في حرفته إلى حدٍّ جعل ملكة المملكة السفلى تعهد إليه بتجليد كتبها كلها من أجل مكتبتها الشهيرة، مكتبة البلّور. كانت حياة كاراميث كلها بين طيات هذه الكتب، لأن الملكة قد طلبت إليه أن يجلّد من أجلها أول كتاب –بما حوى من رسوم صنعتها أمُّها– وهو في مقتبل العمر، بل إنه كان لا يزال في صباه آنذاك.

ما زال صانع المجلدات يذكر كيف ارتجفت يداه وهو يبسط تلك الرسوم المرهفة على مكتب العمل، رسوم الجنيّات، والغيلان، والأقزام، والعلاجيم (التي كانت الملكة الأمّ تشعر نحوها بألفة خاصة)، واليعاسيب، والعثة التي تعشّش في جذور الأشجار التي تنتشر في أسقف القصر وكأنها أستار تتنفّس مؤلفة من الأشرطة. وقع اختيار كاراميث على جلد سحالٍ بلا عينين، تعكس حراشفها أضواء الشموع بزاقة كالفضة، لصنع المجلّدات. كانت تلك السحالي كائنات ضارية، ولكن صائدي الملك يصطادون إحداها بين الحين والآخر، إذا حاولَت أن تفترس طواويس الملكة، فيطالب كاراميث بجلودها في كل مرة حتى يستخدمها في حرفته، وهو يتخيّل أنه إذا حوّلها إلى كتب وهب لها عيونًا. فكرة شديدة السذاجة، ولكنها راقت له.

أحبّت الملكة أول كتاب يصنعه من أجلها إلى حدٍّ جعلها تحتفظ به على الطاولة المجاورة لفراشها، مع كتاب آخر جلّده كاراميث من أجل ابنتها، موانا، قبيل اختفائها بأسابيع. صنع كاراميث مكتبةً كاملة من أجل الأميرة المفقودة، ضمّت مئات من الكتب الأغنى برسوم حيوانات المملكة السفلى وكائناتها

مكتبة ياسين

الخرافية ونباتاتها الإعجازية في كثير من الأحيان، فضلًا عن مناظرها السفلى الشاسعة، وجميع أهلها وحكامها من مختلف المشارب.

لم تكد موانا تتمّ السابعة –أوه، أجل، تذكّر كاراميث تلك الأيام جيدًا جدًا!– حتى طلبت منه كتابًا عن المملكة العليا.

- «آلدوس، أي حكايات يحكون لأطفالهم في الأعلى؟»، سألته. «كيف يبدو القمر؟ أخبرني أحدهم بأنه مُعلّق وكأنه مصباح هائل الضخامة في السماء. وماذا عن الشمس؟ أحقًا أنها كرة نار عملاقة تسبح في محيط من السموات الزرقاء؟ والنجوم... أتشبه اليعاسيب حقًا؟».

تذكّر كاراميث الألم الحاد الذي اخترق قلبه حين طرحت عليه الأميرة الصغيرة تلك الأسئلة. لأن شقيقه الأكبر قد طرح الأسئلة نفسها قبل أعوام طوال، ثم اختفى بعد عام واحد إلى غير عودة. أفضى صانع الكتب إلى الملكة بمخاوفه، فأجابت بقولها:

- «كاراميث، اصنع الكتاب التي طلبته منك وجلّده. واحرص على أن يضمّ الكتاب كل شيء تريد أن تعرفه، فهكذا لن تحاول أن ترى القمر والشمس بعينيها».

ولكن الملك لم يوافق زوجته الرأي. وحظر على كاراميث أن يلبّي رغبة ابنته، فقرّرت الملكة ألّا تخالف قراره، مُضطرّةً إلى الإقرار بأن طلب الابنة قد أورثها شعورًا بالقلق هي أيضًا.

ولكن الأميرة موانا ظلّت تطرح أسئلتها.

- «من أخبرك بأمر المملكة العليا يا أميرتي؟»، سألها كاراميث عندما زارت مشغله مرةً أخرى، وطلبت منه أن يصنع من أجلها ولو كتابًا صغيرًا

مكتبة ياسين

عن طيور المملكة العليا. لم تكن موانا قد رأت طائرًا قط. إذ كانت الوطاويط هي الكائنات الطائرة الوحيدة في المملكة السفلى. والجنيّات.

مدّت الأميرة إلى كاراميث كتابًا لتجيب عن سؤاله. طبعًا! مكتبة أبويها! المكتبات لا تكتم الأسرار، وإنما تبوح بها. أما الكتاب الذي ناولت موانا إياه صانع الفجلّدات، فيضمّ تقارير وضعها أسلاف والدة موانا الذين سافروا في أرجاء المملكة العليا طويلًا.

- «احتفظ به»، قالت موانا حين عجّل كاراميث بإخفاء الكتاب خلف ظهره. «لست في حاجة إلى الكتاب. يكفيني الإنصات إلى جذور الأشجار، فهي تعرف كل شيء عن المملكة العليا!».

كانت تلك آخر مرة تحدّث فيها صانع المجلدات إلى الأميرة قبل أن تختفي. ما زال كاراميث يتذكّر صوتها، وإن جاءت عليه أيام عجز فيها عن تذكُّر وجه الأميرة. بين الحين والآخر، كان يجد نفسه وهو يصنع من أجل موانا كتابًا حافلًا بحكايات أخبرته بها الجنيّات، أو بقصص تهمس في جلود السحالي التي لا عيون لها.

ربما سمع الفاون بأمر تلك الكتب، فهو لم يتعوّد الذهاب إلى مشغل كاراميث. لم يؤمن الفاون بالكتب. كان أكبر عمرًا بكثير من أقدم مخطوط في مكتبة الملكة، ويحقّ له القول بأنه يعرف عن العالم أكثر كثيرًا من مجمل صفحات الكتب الصفراء. ولكن في يوم من الأيام، وقف فجأةً على أعتاب الباب المفضي إلى مشغل صانع المجلدات. كان كاراميث يهاب الفاون قليلًا. ولم يتأكّد له قط إن كان في وسعه الوثوق بهاتين العينين الزرقاوين الشاحبتين. بل إنه ما كان ليفاجأ لو عرف أن كائنات الفاون تأكل ضنّاع الفجلّدات في واقع الأمر.

مكتبة ياسين

- «أريدك أن تجلّد كتابًا من أجلي يا كاراميث»، قال الفاون بنعومة. كان صوته قادرًا على الانسياب ناعمًا كالمخمل، أو الانطلاق حادًا كأنياب السحالي.

- «أي صنف من الكتب يا سيدي ذو القرنين؟»، سأل كاراميث بانحناءة إجلال.

- «كتاب يضمّ كل ما أعرفه، ولكنه لا يكشف إلّا عما أمره به».

قطّب كاراميث جبينه، ولم يدر على وجه اليقين إن كانت فكرة هذا الكتاب تروق له.

- «إن هذا الكتاب سوف يساعد الأميرة موانا لتجد طريق العودة»، أردف الفاون.

طبعًا. كان يعرف كم أحبّ كاراميث الأميرة المفقودة، ذلك أن الفاون يعرف كل شيء.

- «سأبذل قصارى جهدي»، أجاب صانع المجلّدات.

أومأ الفاون برأسه ذي القرنين، وكأن هذا كل ما يطلب، ثم ناوله حزمة من الصفحات.

رمقها كاراميث مُتفاجئًا.

- «ولكنها صفحات خاوية!»، قال.

- «كلا، ليست خاوية»، أجاب الفاون بابتسامة غامضة. «لقد صُنعت هذه الأوراق من الثياب التي تركتها الأميرة موانا، أما الغراء الذي أُضيف إليها فيضمّ كل ما أعرف عن المملكة العليا».

مدّ أصابعه ذات المخالب والتقط رقًا من الجلد البني من الهواء.

- «أما هذا الجلد، فلقد سُلخ عن جسد وحشٍ تغذّى على الحقيقة، وعلى كثير من الرجال الذين لا يهابون شيئًا»، قال الفاون. «أريد منك أن تستخدمه في تجليد الكتاب. وبذلك يمدّ الجلدُ الأميرة بالشجاعة كلّما لمسته».

مكتبة ياسين

فرد كاراميث الجلد على مكتب العمل، وفرك الصفحات الخاوية بأصابعه. كان كلاهما من أفضل الخامات. ومن شأنهما أن يؤلّفا كتابًا جميلًا، مع أن الصفحات ما زالت تبدو له خاوية.

- «ابدأ في العمل فورًا»، أمره الفاون. «لقد عرفت لتؤي أنني ربما احتجت إلى هذا الكتاب عما قريب».

لبّى كاراميث الأمر. وشرع في العمل من فوره. ولكنه أضاف مُكوِّنًا لم يخبر الفاون بأمره: فمزج قليلًا من دموعه بالغراء الذي استخدمه في التجليد، يقينًا منه بأن الأميرة لن تحتاج إلى المعرفة والشجاعة فحسب كي تعثر على طريق العودة، ولكنها سوف تحتاج إلى الحبّ أيضًا.

مكتبة ياسين

26

حبّتان من العنب فقط

في تلك المرة أفاقت أوفيليا على ضحكة، ضحكة خافتة خشنة ترددت أصداؤها في الظلام الذي غمر حجرتها كالحليب الأسود.

- «أرى أن أمّك صارت أفضل حالًا بكثير يا صاحبة السموّ»، بدا الفاون في غاية الرضا عن نفسه. «لا بدّ أنك تشعرين بالارتياح!».

بدا الآن أصغر عمرًا، وإن ظلّت ساقا التيس تحدثان صريرًا مع كل خطوة يخطوها صوب فراش أوفيليا. على الرغم من الأشكال العتيقة التي اكتسى بها جبينه ووجنتاه، كان جلده في غاية النعومة، حتى انعكس عليه نور القمر الذي أوشك أن يكتمل.

- «أجل، أشكرك»، أجابت أوفيليا، وهي تلقي نظرة خاطفة مُتوثِّرة على حقيبة الفاون البارزة أسفل غطائها. «ولكن، لم تجرِ الأمور على ما يرام. أعني، لم تجرِ الأمور كلها على ما يرام».

- «آه؟ كلا؟»، اتّسعت عينا القطّ الزرقاوان في مفاجأة.

كانت أوفيليا على يقين من معرفته بما حدث. وأصبحت تعتقد بأنه يعرف كل شيء عن هذا العالم، أو أي عالم سواه.

- «لقد... وقعت لي حادثة»، همهمت وهي تناوله الحقيبة، حيث كانت الجنيّة الباقية على قيد الحياة تغرّد في الداخل. لم تجرؤ أوفيليا على السماح لها بالخروج، خشية أن تتأذّى هي أيضًا.

- «**حادثة؟**»، ردّد الفاون الكلمة باستنكار واضح.

مكتبة ياسين

ثم فتح الحقيبة مزمجرًا.

رفّت الجنيّة بجناحيها جاثمةً على كتفه. أخذ وجه الفاون يزداد شؤمًا كلّما أطال الإنصات إليها، حتى كشّر عن أسنانه المدبّبة أخيرًا ومضى يهدر غاضبًا.

- «لقد خرقتِ القواعد!»، زمجر مشيرًا إلى أوفيليا بأحد مخالبه.

- «لم آكل إلّا حبّتين من العنب فقط!»، صاحت، وسرعان ما سحبت الخنجر المغلّف بالمخمل من تحت وسادتها وناولته إياه. «فكّرتُ أن أحدًا لن ينتبه إلى ذلك!».

انتزع الفاون من يدها الخنجر، وهزّ رأسه في غضب.

- «لقد ارتكبنا خطأ!».

- «خطأ؟»، كادت أوفيليا لا تسمع صوتها.

- «لقد أخفقتِ!»، صاح الفاون وهو يطلّ عليها من ارتفاع هائل. «لا يمكنكِ أن تعودي أبدًا!».

شعرَت أوفيليا وكأن الليل يفتح فمه ويبتلعها.

- «ولكنها حادثة!».

- «كلا!»، زأر الفاون مرة أخرى، وضاقت عيناه غضبًا وازدراءً. «لا يمـــكـــنـــكِ أن تـــعـــودي! أبدًا!»، ارتطمَت كل كلمة بأوفيليا وكأنها حجر. «بعد ثلاثة أيام يكتمل القمر! أما روحكِ فستبقى وسط البشر أبدًا».

مال على أوفيليا حتى كاد وجهه يلامس وجهها.

- «سوف تكبرين كما يكبرون، وتموتين كما يموتون! وكل ذكرى لك...»، قال وهو يخطو متراجعًا، رافعًا يده وكأنه يؤكّد على النبوءة. «سوف تتلاشى في الزمن. ونحن...»، أشار بأصابع الاتهام إلى الجنيّة وإلى صدره. «ونحن سوف نتلاشى

مكتبة ياسمين

معها. ولن تعودي إلى رؤيانا أبدًا!».

وإذا بجسده يذوب في الليل، وكأن عصيان أوفيليا قد جعل الفاون والجنية مُجرّد ظلّين ذوّبهما نور القمر المتزايد. بينما جلست أوفيليا على فراشها، وراحت تملأ الصمت الذي تركاه خلفهما بنشيج يائس.

مكتبة ياسين

27

منكسر

ما إن طرق غارثيس بابه حتى عرف دكتور فيزيرا لماذا يحتاج إليه بيدال. للحظة، أغوته فكرة التظاهر بأنه لم يسمع الطرقات. ما الذي جاء به إلى هذه القاعدة اللعينة؟ تساءل فيزيرا وهو ماضٍ في أثر غارثيس تحت المطر: القدر أم القرارات التي اتُخذها بنفسه؟ ظلّ المطر ينهمر طوال الليل، وجاء النهار مُبشّرًا بأن يستمرّ تساقط المطر تحت السماء الباكية.

كما يليق.

كان بيدال واقفًا أمام مخزن الغلال، حيث أخذ يغسل يديه في طست الماء. لم يُفاجأ فيزيرا برؤية الدماء على أصابعه. أجل، فذلك ما توقع بالتحديد. رجل آخر مُنكسِر.

- «طاب صباحك يا دكتور». ومرة أخرى، اتُخذ بيدال وقفة رجولية. في بعض الأحيان، كان من الصعب ألّا يضحك المرء على ذلك المشهد، ولكن بيدال رجل أشدّ مهابةً من أن يسمح المرء لنفسه بزلّةٍ من هذا القبيل أمامه.

- «أعتذر عن إيقاظك في وقت مبكر كهذا»، قال وهو يفرد أكمامه. «ولكني أعتقد بأننا في حاجة إلى مساعدتك».

كان قميصه في غاية النظافة. الأمر الذي طالما حرص عليه بيدال. للمظهر أهمية بالغة عند أولئك الذين قلّما يخلعون أقنعتهم. أما فيزيرا، فلم ير بيدال من دون قناعه يومًا. كيف كان يبدو في طفولته؟ هل كانت نظراته خالية من العواطف شأنها الآن؟ هل اعتبر أحدهم صديقًا له في أي وقت من

مكتبة ياسين

الأوقات؟ ما كان القناع ليفصح عن ذلك.

وبينما هو ماضٍ في أثر غارثيس تحت المطر، حاول فيزَيرا أن يعدّ نفسه، فراح يتخيّل ما فعلوا بالأسير. وإن خذلته المخيلة. كاد لا يتعرّف الفتى الذي سبق أن حاول قراءة الجريدة في كهف الغابة.

لم يستطع فيزَيرا أن يكفّ يديه عن الارتجاف وهو يفتح حقيبته إلّا بمشقّة. استحوذت عليه مشاعر جارفة، مشاعر غضب وحزن ونفور عاجز، بينما هو يُخرج الضمادات والفطهّر حتى ينظّف الجراح التي تركتها أدوات بيدال. كان الفتى جالسًا على الأرض، وقد استند بظهره إلى القائم الذي شُدّ وثاقه إليه، وضمّ يده إلى صدره، لو كان ما زال من الممكن أن تُسمّى تلك يدًا. سالت الدماء من فمه، وتورّمت إحدى عينَيه بشدة، حتى لم يتأكّد لفيزَيرا إن كانت العين لا تزال هناك.

تارتا... أجل، ذلك هو اللقب الذي ناداه به الآخرون. تأوّه حين أمسك فيزَيرا ذراعه برفق حتى يلقي نظرة على اليد المحطّمة. سُحقت الأصابع، كلها، حتى صارت إحداها مُجرّد بقايا دامية.

- «يا إلهي، ماذا فعلتم به؟»، أبَت الكلمات أن تبقى في فمه، على علم فيزَيرا أن البوح بتعقيب كهذا ليس من الحكمة في شيء. ولكن ما رآه يجعل الحكمة مُجرّد حماقة، وتلهية بلا طائل عن قسوة البشر.

- «ماذا فعلنا به؟ لم نفعل به الكثير»، جاء صوت بيدال تتجلّى فيه نبرة زهو جليّة. «ولكن الأمور تتحسّن».

مشى بيدال إلى حقيبة فيزَيرا وجذب منها قارورة كتلك التي عثر عليها قرب موقد الفتمرّدين. لم ينتبه إليه فيزَيرا. إذ لم ير إلّا وجه الفتى الفتورّم، الفتى

مكتبة ياسين

الذي مضى يراقبه بعينه الوحيدة المفتوحة الفلبَدة بالخوف والألم.

- «يروقني أن تكون رهن إشارتي يا دكتور، فلهذا الأمر مزايا»، قال بيدال، وهو يقف خلفه.

كان فيرَيرا أكثر انشغالًا مما يسمح له بسماع نبرة السخرية في صوته. انكسرت أربعة من أضلاع تارتا، يُرجَح أنها قد انكسرت ركلًا. سمع الطبيب بيدال وهو يأمر غارثيس بأن يعود إلى البيت برفقته.

«**جيدا ارحلا!**»، فكّر فيرَيرا عندما غادر الآخران وتركاه وحيدًا مع الفتى المنكسر. «**قبل أن أنعت كليكما بحقيقته، لو وجدتُ لذلك اسمًا**»

- «لقد تكلّمتُ»، همهم تارتا. «لم أتكلّم كثيرًا. ولـ... ولـ... ولكني تكلّمتُ».

راحت عين الفتى الظاهرة الوحيدة تطلب المغفرة، الأمر الذي مزّق قلب فيرَيرا إلى نُسالات وكأنه قطعة مهترئة من الثياب. أي ظلام حالك! ظلام أشدَ مما ينبغي.

- «أنا آسف يا بني»، همس. «أنا آسف بشدة».

ومرة أخرى، حاولت الشفتان المضرجتان بالدماء صياغة الكلمات. لم يسهُل التعذيب تلك المهمة على شفتيه، ولكن الحروف تشكّلت أخيرًا.

- «اقتلني!»، توسّل الفتى. «اقتلني الآن. أرجوك».

أشدَ مما ينبغي.

مكتبة ياسين

28

ليس للسحرِ وجود

في أحد جوارير مكتبه، احتفظ بيدال بالقوارير التي عثر عليها قرب موقد النار في الغابة. وعندما صعد إلى حجرته ليقارن بينها وبين تلك القارورة التي أخذها من حقيبة دكتور فيرَيرا، لم يُفاجأ بالتطابق بينهما.

- «ابن العاهرة»، أطلق فحيحًا هامسًا.

لقد سمح لتلك الرقّة البادية على وجه الطبيب الصالح بأن تخدعه. خطأ آخر. ولكن في يده أن يصلح هذا الخطأ.

كان فيرَيرا لا يزال برفقة تارتا عندما وضع بيدال القوارير في جارور مكتبه.

جثا الطبيب على ركبتيه قرب الفتى المُعذَّب وهو لا يعلم أن خيانته قد افتضح أمرها. كان السائل الذي سحبه بالحقنة ذهبيًا كالمفتاح الذي أخذته أوفيليا من العلجوم. أغمض تارتا عينه الوحيدة التي لم يمسسها بيدال بأذى، وإن ظلّ فمه فاغرًا. كان كل نفس يلتقطه مأثرةً من مآثر الشجاعة، إذ جاءت أنفاسه مصحوبة بألم شديد. وحين تردّد فيرَيرا في وخزه بالإبرة، جذب تارتا ذراعه بيده الوحيدة السليمة، حرصًا منه على أن تعثر الحقنة على لحمه. رفع رأسه مُلقيًا نظرة خاطفة أخيرة، في لفتةِ شُكرٍ بغير كلمات، من فتى عاش حياةً ملعونة بلسان كان يعصي أوامره ثم جعله يخون الأصدقاء الذين لم يعرف سواهم قطّ في خاتمة المطاف.

- «من شأن هذا أن يسكّن الألم، سترى»، أما التحدُّث إلى الفتى وكأنه مريض معتاد، فلقد أدخل إلى نفس فيرَيرا بعض السلام، على الأقل. أغمض

مكتبة ياسين

تارتا عينيه مرة أخرى والدماء تسيل على وجهه آتيةً من تحت شعره الأسود.

- «أجل، لقد أوشكت النهاية»، قال الطبيب برقّة.

قالها لنفسه. وقد ألقى الموت عباءة الرحمة على كتفي تارتا.

*

لم يفهم بيدال أولئك الرجال من أمثال فيزَيرا. لم يكُن لديه أدنى شك في قدرة الرجل الذي يمدّ يد العون إلى المتمرّدين على أن يقتل ابنه الذي لم يُولد بعد أيضًا، بطبيعة الحال.

كانت أوفيليا تحت فراش أمّها، تتفقّد الماندريك، حين جاء بيدال يحثّ الخطى على الدَّرَج ليتحقّق من أن ابنه لا يزال على قيد الحياة. أما خطواته الحثيثة، فلقد ملأت الطاحونة بأصداء خوفه. ولكن أوفيليا لم تسمعها. إذ كانت في غاية الانشغال بأمر الماندريك. لم يغد الجذر يتحرّك، مع أنها قدّمَت إليها حليبًا طازجًا وقطرات أخرى من الدماء.

- «هل أنت مريض؟».

كانت تميل على الإناء، وإذا هي تحسّ بيدَين تجذبان ساقَيها، يدين يكسوهما قفاز. جذب الذئب كاحليها بوحشية، فوجدت أوفيليا نفسها تتزلّج على الأرض في عجز، وتخرج من تحت الفراش.

- «ماذا كنت تفعلين أسفل الفراش؟»، مضى يجذبها ويهزّها بعنف شديد، حتى أحسّت أوفيليا بمذاق الكراهية كالشراب المسمّم في فمها.

عثر على الإناء، طبعًا. تشمّم بيدال الحليب، فانكمش نفورًا منه.

- «أي شيء لعين هذا؟».

اكتفت أوفيليا بهزّ رأسها، فهو لن يتفهّم.

مكتبة ياسين

انطلقت صائحةً عندما أخرج الماندريك من الإناء، وحاولت أن تخلّصه من قبضته، ولكن بيدال قد رفع الجذر بعيدًا عن متناول يدها، فسال الحليب على ذراعه، بينما لم تفلت يدُه الأخرى أوفيليا.

أيقظت صيحات أوفيليا أمّها.

- «ماذا تفعل؟ إرنستو، اتركها»، قالت أمّها في وهن، وهي تزيح الأغطية. «اتركها وشأنها، أرجوك!».

دفع الذئب جذر الماندريك الذي يقطر حليبًا قرب وجهها.

- «انظري إلى هذا الشيء!»، تناثر الحليب على ثياب نوم كارمن حين وضع الجذر بين يديها. «ما رأيك في هذا؟ ها؟ كانت تخفي هذا الشيء تحت فراشك!».

لم تحتمل أوفيليا النظر إلى وجه أمّها الذي امتقع نفورًا.

- «أوفيليا؟!»، قالت، وعيناها تتوسّلان إليها حتى تقدّم تفسيرًا لهذا. «ماذا كان هذا الشيء يفعل تحت فراشي؟».

سار الذئب مُتْجِهًا إلى الباب وقد تيبّسَت خطواته من فرط الغضب.

- «إنه جذر سحري!»، نشجَت أوفيليا. «الفاون أعطاني إياه».

- «كل هذا بسبب تلك النفايات التي تسمحين لها بأن تقرأها»، وقف الذئب على أعتاب الحجرة، ولكن أوفيليا ما زالت تحسّ بوخزات أصابعه حول ذراعها.

- «اتركنا أرجوك! سوف أتحدّث إليها يا حبيبي!».

كرهت أوفيليا ذلك العطف الذي يتجلّى في صوت أمّها، ولهفتها لإرضاء رجل يكاد لا ينظر إليها.

ينتبه الأطفال إلى تلك الأشياء، فليس في أيديهم

مكتبة ياسين

سوى المراقبة، والاختباء من العواصف التي يثيرها الكبار. العواصف والشتاءات.

- «كما تريدين»، قال بيدال وهو يذكّر نفسه بأن هناك أمورًا أخرى ليعتني بها، أهمّ من تلك الأرملة الوحيدة التي دلّلت ابنتها. ولكن ما إن يولد ابنه حتى تتبدّل الأمور.

كانت أوفيليا ترتجف عندما تركها وحدها مع أمّها أخيرًا. أي غضب عارم! في البدء غضب الفاون، والآن غضب الذئب. لم تدرِ أيهما يخيفها أكثر من الآخر.

- «لقد أخبرني بأنكِ سوف تتحسّنين!»، صاحت. «ولقد تحسّنتِ!».

- «أوفيليا!»، أسقطت أمّها جذر الماندريك على الفراش، وربّتت على وجهها. «يجب عليكِ الإنصات إلى والدكِ! يجب عليك التوقُّف عن كل هذا!».

«والدها». أوه، كم شقَّ على أوفيليا ألّا تكرهها لأنها تطلق عليه «والدها»، ولأنها أضعف من أن تشملها بالحماية! طوّقت أوفيليا أمّها بذراعيها، ودفنت وجهها في كتفها. كانت لثياب نوم أمّها رائحة تشبه رائحة المكان الذي تعوّدت كلٌّ منهما أن تسمّيه «البيت»، هناك حيث شعرَت بالأمان والسعادة.

- «أرجوك، خذيني بعيدًا عن هنا!»، توسّلَت إليها. «دعينا نذهب وحسب، أرجوك! أرجوك!»، وإن كانت تلك هي الكلمات الخاطئة.

تحرّرت أمّها من عناق أوفيليا.

- «الأمور ليست بهذه البساطة يا أوفيليا»، والآن بات صوتها خاليًا من العطف. بل إنه جاء حادًا يشي بنفاد الصبر. «إنك تكبرين. وقريبًا ترين أن الحياة لا تشبه حكاياتك الخرافية».

مكتبة ياسين

جذبت جذر الماندريك وسارت إلى موقد النار. كانت كل خطوة من خطواتها أليمة في بطنها.

- «العالم مكان قاسٍ يا أوفيليا. ويجب عليك أن تتعلّمي هذا الشيء. حتى لو كان مؤلمًا».

ثم ألقت بالماندريك إلى النار.

- «كلا!»، حاولت أوفيليا أن تمدّ يدها إلى الجذر الفتلوي، فأخذت أمُّها بكتفيها.

- «أوفيليا! ليس للسحر وجود!»، نبَح صوتها من فرط الإرهاق والغضب من أجل كل أحلامها التي لم تتحقّق. «ليس له وجود عندكِ، أو عندي، أو أي شخص غيرنا!».

دوّت صرخةٌ حادة من النار. إنه الماندريك، الذي راح يحترق ويتلوّى في ألم، صارخًا وكأنه طفل وليد، بينما النار تلتهم أطرافه الشاحبة.

وقفت كارمن في وجه النار. وللحظةٍ، كانت أوفيليا لتقسم أن أمّها استطاعت أن ترى السحر أمام عينيها، وتسمع الصرخات، وتشاهد الجذر يتلوّى...

ولكن كارمن شهقت فتشبّثتْ بمسند الفراش. ثم خارت ساقاها، وسقطت أمُّ أوفيليا أرضًا. اتّسعت عيناها استنكارًا وذعرًا، بينما ظلّ الماندريك يصرخ بحدّةٍ وسط ألسنة اللهب.

دماء. تدفّقت الدماء بين ساقَي كارمن، فلطّخت بشرتها وثياب النوم والأرض.

- «ماما!»، سقطت أوفيليا على ركبتيها بجوار أمّها.

- «النجدة!»، صاحت. «النجدة!».

وفي المطبخ بالأسفل، سقطت السكاكين من أيدي الخادمات. كنّ جميعًا منشغلات بأمر أمّ أوفيليا والطفل الذي لم يولد بعد. «**سوف يساعدها الطبيب**». قرأت كل منهن الخاطرة نفسها على وجه

مكتبة ياسين

الأخرى.

ولكن دكتور فيرّيرا كان في مخزن الغلال، جاثيًا على ركبتيه بجوار فتى ميت، وفي يده حقنة خاوية.

مكتبة ياسين

29
رجلٌ من صنف آخر

نهض فيزيرا واقفًا على قدميه حين سمع وقع خطوات تقترب من خلال المطر. دخل أول مَن دخل إلى مخزن الغلال غارثيس، النحيل، الجامد، القادر على أن يبقي آلام الآخرين على مسافة مريحة من قلبه. حدّق إلى الفتى المُعذَّب الذي تراءى وجهه المُشوَّه هادئًا، وقد خيّم عليه السلام في الموت، بينما تجمّع باقي الجنود أمام باب مخزن الغلال، مُتّقين المطر المنهمر بمظلاتهم، تلك الأداة الغريبة في وداعتها، بعكس ثيابهم العسكرية.

كان بيدال آخر الواصلين. جثا على ركبتَيه إلى جوار تارتا ليتفحّص الجثة الهامدة، بينما أعاد دكتور فيزَيرا الحقنة إلى حقيبته التي راح يقفلها بهدوء رجلٍ أدّى واجبه.

- «لماذا فعلتَها؟»، نهض بيدال واقفًا على قدمَيه.

- «إنه الشيء الوحيد الذي استطعت أن أفعله».

- «ماذا تعني؟»، جاء صوت بيدال تشوبه نبرة مفاجأة. مفاجأة، فضول... «كان في يدك أن تطيعني!».

سار مُتجِهًا إلى فيزَيرا ببطء، كالكائن المفترس الذي يلاحق فريسته، وتوقّف أمامه مباشرة. لم يسهل على فيزَيرا الوقوف والاكتفاء بالنظر إليه. ولكن للشجاعة صنوف كثيرة. لقد أمضى فيزَيرا زمنًا طويلًا وهو يخاف ذلك الرجل -الذي شهد فيزَيرا مجازره، وداوى الجراح التي أحدثها- شعر بالارتياح لأنه لم يغد مُضطرًا إلى التظاهر بأنه يقف في صفّه.

- «أجل، حقًّا، كان في يدي أن أطيعك»، قال

مكتبة ياسمين

بهدوء. «ولكني لم أفعل».

تفحّص بيدال وجه فيزَيرا وكأنه حيوان عجيب لم يسبق له أن رآه قطّ.

- «كان الأفضل لك أن تطيعني. وأنت على علم بذلك. لماذا لم تفعل؟».

كادت نبرة خوفٍ تتجلّى في صوته، وفي الطريقة التي زمّ بها شفتيه الرفيعتين. في مملكته، مملكة الظلام، كلٌّ يستسلم للخوف، فلماذا لا يفعل ذلك الرجل الرقيق ذو النظارة الذي يكاد لا يجرؤ على الكلام في حضوره؟

- «الطاعة...»، انتقى فيزَيرا كلماته بعناية. «الطاعة هكذا، لفجرّد الطاعة، من دون سؤال... هذا شيء لا يقدر عليه سوى أمثالك، يا كابتن».

التفت مُتناولًا حقيبته، ثم خرج إلى المطر. كان على علمٍ بما سوف يحدث، طبعًا، ولكن لماذا لا يغتنم اللحظة، لحظة التحرّر من الخوف أخيرًا؟ أحسّ بالمطر البارد على وجهه وهو يسير مُبتعِدًا عن مخزن الغلال. أي خطوات ثمينة، وأي حرية، وأي سلام بينه وبين نفسه!

ألقى نظرة خاطفة من فوق كتفه، وفي تلك اللحظة خرج بيدال من مخزن الغلال، بخطوات واسعة حازمة تليق بالصائد، فلم يلتفت فيزَيرا أو يتوقّف حين استلّ بيدال مسدسه. بل إنه مضى قدمًا. وحين أصابت الرصاصة ظهره، خلع فيزَيرا النظارة وفرك عينيه، على علمه بأن الضباب الذي امتلأت به عيناه ما هو إلّا أنفاس الموت. خطوتان أخريان. ثم انهارت ساقاه، ولم يغد هناك إلّا الوحل والمطر الفتلاشي. استطاع فيزَيرا أن يسمع صوت أنفاسه. أحسّ بالبرد. البرد القارس. لم تحضره ذكرى واحدة، أو كلمات مُطمئنة. بل إنه، لسبب لا تفسير

مكتبة ياسين

له، لم ينتبه إلى شيء سوى عنكبوت مختبئ بين أحجار جدار يقع على بعد أقدام قليلة، فتراءى الكائن الصغير لعينيه كالمعجزة: واستطاع فيزيرا أن يرى كل مفصل، كل حويصلة، كل نتوء من الكيتين. معمار العنكبوت، رشاقته، جماله، وجوعه، بدا الأمر برمّته وكأنه يمتزج ليغدو شيئًا واحدًا: وإذا هو آخر الكائنات الحية. تنشّق فيزيرا وشرب الماء الموحل. حاول أن يلفظه سعالًا، ولكن قلبه توقّف وهو يسعل.

طلقة واحدة نظيفة.

اقترب بيدال من الجسد الممدّد، وسحق النظارة الملقاة إلى جواره تحت البيادة. ما زال لم يفهم السبب الذي جعل ذلك الأحمق يأبى طاعته، وإن شعر بارتياح غريب لأن الطبيب الصالح قد مات، ولأنه لم يعد مضطرًا إلى النظر إلى عيني الطبيب الرقيقتين المستغرقتين في تأمّل عميق مرةً أخرى.

- «كابتن!».

وقفت اثنتان من الخادمات أمام مخزن الغلال، وقد امتقع وجهاهما من فرط القلق. أغمد بيدال المسدس في حزامه وهو يكاد لا يفهم لما تقولان معنى. لم تكُن زوجته على ما يُرام، ذلك ما فهم من ثرثرتهما المذعورة، وابنه آتٍ في الطريق. أما الطبيب الذي كان يُفترض به أن يساعد في الولادة، فارتمى ميتًا وراءه، في الوحل.

مكتبة ياسين

مكتبة ياسين

حين وقع الفاون في الحبّ

في غاليثيا غابةٌ موغلة في القدم، حتى إن أشجارها تذكر زمنًا كان للحيوانات فيه شكل البشر، وكانت للبشر أجنحة وفراء. تتهامس الأشجار قائلة إن بعض البشر قد تحوّلوا إلى أشجار سنديان ومران وغار، ضاربين بجذورهم في أعماق الأرض، حتى نسوا أسماءهم. ومن بين الأشجار تبنة بعينها، تحب سائر الأشجار أن تروي حكايتها متى جعلت الريح أوراقها تهمس. طلعت التبنة على تلّ في قلب الغابة. هناك حيث يسهل على الناظر أن يلمحها، بفرعيها الرئيسيين الملتويين وكأنهما قرنا تيس، وجذعها المشطور كما لو كانت الشجرة قد ولدت شيئًا نما تحت لحائها.

«**أجل!**»، تهمس الغابة. «**لهذا انشطر جذع الشجرة كالجرح المفتوح. لأنها قد ولدَت، هذه الشجرة التي كانت امرأةً ترقص وتغنّي تحت ظلّة أشجاري. كانت تقتطف ثمراتي، ثمرات التوت، وتجدل شعرها بأزهاري. وذات يوم، التقت فاون يحبّ أن يعزف نايه تحت أشجاري في نور القمر. كان الفاون قد صنع الناي بعظمة من إصبع غول، فتغنّت ألحانه بالمملكة السفلى المعتمة التي جاء منها، المختلفة أشدّ اختلاف عن الضوء الذي تحمله المرأة في داخلها**».

الأمر برمّته حقيقة، وعلى الرغم من ذلك وقعت المرأة في غرام الفاون، أحبّته حبًا عميقًا لا فكاك منه، وكأنه بئر. كما أحبّها الفاون أيضًا. ولكن، حين طلب منها أن تذهب معه إلى عالمه السفلي أخيرًا، راعتها فكرة أن تمضي البقية الباقية من حياتها من دون أن ترى النجوم أو تحس بالريح على بشرتها مرة أخرى، فقرّرت أن تبقى، وشاهدته وهو يرحل.

مكتبة ياسين

على الرغم من ذلك، ملأها الحبُ الذي شعرت به نحو الفاون بلهف شديد، حتى امتدّت الجذور من قدميها إلى الأرض كي تتبع حبيبها إلى ما تحت الأرض، بينما امتدّت ذراعاها إلى السماء والنجوم التي أثرتها عليه.

أوه، بأي ألم أحسّت في قلبها! تحت وطأة الألم، صارت بشرتها الناعمة لحاءً، وتنهيداتها حفيف ألف ورقة تتمايل في مهبّ الريح. ولمّا عاد الفاون حتى يعزف على نايه من أجلها ذات ليلة مقمرة، لم يجد إلّا شجرة تهمس بالاسم الذي لم يخبر به أحدًا سواها.

جلس الفاون وسط جذور الشجرة، وأحسّ بدموعه مثل قطرات الندى على وجهه. بينما غمره الفرعان اللذان جلس تحتهما بالأزهار. ولكن حبيبته لم تعُد قادرة على معانقته بذراعيها أو تقبيل شفتيه. أحسّ بألم ثاقب في قلبه الجامح الذي لا يهاب شيئًا، وحين ربّت على الشجرة صار جلده يابسًا خشبيًا كاللحاء الذي اكتست به حبيبته المفقودة، بعد أن كان جلده مُغطّى بالفراء الحريري.

أمضى الفاون ليلته جالسًا تحت الشجرة حتى طلعت الشمس وأبعدته، إذ لم يزُق له ضوء الشمس الساطع في أي وقت. وحين رجع الفاون إلى رحم الأرض المعتم، مالت الشجرة بفرعيها أعمق فأعمق من فرط الحزن، حتى صارت أشبه برأس حبيبها ذي القرنين.

وبعد ثمانية أشهر، في ليلةٍ طلع قمرها مُكتملًا، انشطر جذع الشجرة بأهةٍ خافتة، وخرج منها طفل صغير. كان ولدًا. ورث عن أمّه جمالها، بينما كشف القرنان البارزان من شعره الأخضر والأظلاف التي انتهت بها ساقاه النحيلتان عن هوية أبيه. نزل التلّ

مكتبة ياسين

رقصًا ووثبًا كما سبق أن رقصت أمّه ووثبت ذات مرة تحت الأشجار، وصنع لنفسه نايًا من عظام الطيور حتى يملأ الغابة بأغنية عن الحب والفقد.

وفي أعماق الأرض، هناك حيث كان الفاون يلقّن أميرةُ مهمّات البلاط الملكي الخاص بأبويها، تناهت إلى سمعه موسيقى الناي، فاستأذن مهرولًا إلى المملكة العليا عبر ممرات سرية لا يعلمها إلّاه. غير أنه حين وصل، لم يكن صوت الناي مسموعًا في أي مكان، ولم يجد الفاون إلّا أثر أظلاف على العشب الفبلّل، الأثر الذي جرفته الأمطار بعد خطوات راقصة قليلة.

مكتبة ياسين

مكتبة ياسين

30

لا تؤذِها

كانت أمُها تصرخ. جلست أوفيليا على المقعد الذي وضعته إحدى الخادمات خارج حجرة الأمَ، من حيث استطاعت الفتاة أن تسمع الصراخ عبر الجدار. جلس الذئب إلى جوارها، على بعد ذراعٍ واحدة، جلس ناظرًا على عمى، شاخصًا إلى الدربزين الخشبي الذي كان بيدال يراقب من خلاله الخادمات في البهو السفلي أحيانًا. تساءلت أوفيليا، هل يشعر هو أيضًا بتلك النزوة تغويه بالقفز من فوق الدربزين كلّما أطلقت أمُها صرخة مُعذِّبة؟ وتغويه بأن يحطّم ذلك القلب الفتألّم على البلاط الحجري لفجرّد أن يجد راحةً من كل الخوف والألم؟ ولكن الحياة أقوى وأقوى من الموت، لذا مكثت أوفيليا على المقعد بجوار الذئب الذي استدرج أمُها إلى هذا البيت لتصرخ وتنزف.

أيقنت أوفيليا أنه لو لم تُلقِ أمُها الماندريك في النار لبات كل شيء على ما يُرام... أو لو أخفَته أوفيليا عن الأنظار بصورة أفضل... ولو قاومَت عنب الرجل الشاحب...

صرخةٌ أخرى.

هل كانت أوفيليا تتمنّى لأخيها الموت لأنه قد تسبّب في كل هذا الألم لأمُها؟ لم تدر. لم تعُد مُتأكّدة من أي شيء. وإنما دبَّ في قلبها خدر شديد تحت وطأة كل هذا الخوف والألم. هل كان أخوها يرغم أمُها على الصراخ لأنه في قسوة أبيه؟ كلا. الأرجح أنه لا يملك السيطرة على ذلك، فبرغم كل شيء، لم يسأله أحد إن كان يرغب في الولادة أم لا. لعلّه سعيد هناك، حيثما كان موجودًا. لعلّه في ذلك العالم

مكتبة ياسين

الذي يزعم الفاون بأنه قد جاء منه. في تلك الحالة، يجب عليها أن تخبر أخاها كم تصغب العودة إلى ذلك العالم.

هرولت إحدى الخادمات وهي تحمل دورقًا كبيرًا من الماء.

بينما تابعها بيدال بعينيه.

ابنه. سوف يفقد ابنه. لم يكترث للمرأة التي راحت تصرخ في تلك الحجرة. زوجة خيّاط... لقد أمضى حياته كاملةً في اتخاذ القرارات الخائبة. كان حريًا به العلم أنها أضعف مما يسمح لها بالحفاظ على ابنه. إنه في حاجة إلى ذلك الابن.

في الحجرة الواقعة خلفه راحت مِرثيديس تصارع الموت. وإلى جوارها المُمرِّض وباقي الخادمات.

بات كل شيء أحمر، مضرجًا بالدماء: ملاءات الفراش، يدا المُمرِّض الذي ألف صرخات الجنود الجرحى ولكنه لم يألف الألم الناجم عن مجيء الحياة إلى هذا العالم، وحتى ثياب النوم التي صنعها والد أوفيليا من أجل كارمن.

أشاحت مرثيديس بعينيها عن الفراش.

دماء... تراءت الدماء وكأنها تتدفّق في كل مكان. بحلول ذلك الوقت، كانت قد سمعت بأمر فيزيرا الذي تمدّد جسده في الوحل، حيث امتزجت دماؤه بالمطر، وتارتا، الذي اصطبغ القشُّ المتناثر على أرضية مخزن الغلال بدمائه. ذهبت مرثيديس لتوصد باب حجرة النوم، على علمها بأن الفتاة الجالسة في الخارج يمكنها سماع الصرخات من خلال الجدار. كم شعرت بالأسى لها! أسفت لألم الطفلة أكثر مما أسفت لألم الأمّ.

صرخةٌ أخرى.

مكتبة ياسين

أحسّت أوفيليا بالصرخة وكأنها سكين يقطع نتفةً من قلبها. بينما هرولت خادمةٌ أخرى إلى الرواق وهي تحمل أكوامًا من الضمادات الكتانية المُخضّبة بالدماء. ثم... وهنت الصرخات والآهات... فتلاشت... فتوقّفت.

تسرّب صمت رهيب عبر الجدار، مالئًا الرواق.

وإذا بصرخة حادة لطفل وليد تخترق الصمت.

خرج المُمرّض من الحجرة وقد غرق مِئزره ويداه في الدماء، فهبّ الذئب واقفًا.

- «لقد ماتت زوجتك».

خفض المُمرّض صوته، ولكن أوفيليا سمعته.

كان العالَم قاسيًا خاليًا من الراحة كذلك المقعد الذي جلست عليه، عقيمًا كتلك الجدران المُكلّسة المحيطة بها. أحسّت بدموعها كالمطر البارد على وجهها. لم تدرك حتى الآن معنى أن يكون المرء وحيدًا، في وحدة تامة مطبقة.

بطريقة ما، استطاعت أوفيليا أن تقف على قدميها، وسارت ببطء على ألواح الأرض الخشبية التي بليت حتى صارت ناعمة تحت أقدام أولئك الذين ساروا عليها منذ أمدٍ بعيد. مشت أوفيليا إلى حجرة أمّها حيث كان الطفل الوليد يبكي، وجاءت صرخاته أشبه بصرخات الماندريك الحادّة. حقًّا. ربما كان للسحر وجود، على الرغم من كل شيء. للحظةٍ فكّرت أوفيليا أن أخاها ينادي اسمها، ولكنها رأت وجه أمّها الخاوي، وعينيها المنطفئتين، المُغبْشتين كصفحة مرآة عتيقة.

كلا، لا سحر في العالم.

*

دُفن جثمان كارمن صبيحة اليوم التالي، خلف

مكتبة ياسين

الطاحونة مباشرةً. كان صباخا لا لون له. وبينما وقفت أوفيليا إلى جوار القبر شعرت وكأنها لم تحظ بأمٍّ في أي وقت. أو لعل أمّها قد رحلت وذهبت إلى الغابة. لم تستطع أوفيليا أن تتخيّلها في ذلك النعش البسيط الذي عجّل النجار كثيرًا بصنعه من أجلها ببضعة ألواح من الخشب، النجار الذي استدعاه الذئب من إحدى القرى المجاورة.

كان الكاهن رجلًا ضئيلًا عجوزًا، تراءى وكأن الموت سوف ينال منه في المرة القادمة.

«لأن جوهرَ غفرانه يكمن في كلماته، وفي سرّه...».

سمعت أوفيليا الكلمات، فلم تعنِ لها شيئًا. كانت وحيدةً، في وحدة مطبقة، وإن وقفت مرتيديس خلفها، وصار لها الآن شقيق، يحمله الذئب بين ذراعيه.

لتعطيه ابنًا... هذا كل ما كان يحتاج إليه من أمّها.

استرسل الكاهن في الحديث، وأوفيليا شاخصة إلى الحفرة التي صنعها الجنود في الأرض الموحلة. ربما كان ذلك هو السبب الذي جاء بهما إلى الطاحونة: للعثور على هذا القبر، ولقاء الموت مرة أخرى. لا مهرب من الموت، فالموت يفرض حكمه في كل مكان. تساءلت أوفيليا، متى عرفت أمُّها أنها لن تغادر هذا المكان أبدًا؟

«لأن الرّبّ يبعث إلينا رسالةً، ومهمتنا تقضي بكشف رموزها».

جاءت كلمات الكاهن كما لو كانت حكمًا، شأنها في ذلك شأن الكلمات التي صرخ بها الفاون وهو في فورة الغضب. أجل، لقد خوكمت أمُّها أيضًا. لم تستطع أوفيليا أن تتخلّص من تلك الفكرة وهي تراقب أخاها نائمًا بين ذراعي أبيه. لم ترغب في النظر إليهما، وهما اللذان قتلا أمّها.

مكتبة ياسين

«لا يأخذ القبرُ إلّا قشرةً جوفاء فارغة. أما الروح فتحلّق الآن بعيدًا، في رحلتها إلى المجدِ الأبدي...».

لم ترد أوفيليا لروح أمّها أن تذهب بعيدًا. ولكنها لم تجدها هناك حين رجعت إلى حجرة نوم أمّها.

بعيدًا، بعيدًا...

ما زال بعض كتبها، كتب الحكايات الخرافية، على الطاولة المجاورة للفراش، وكأن شيئًا لم يتغيّر، وكأنها ما زالت تحظى بأمّ.

«لأننا في الألم»... همس صوت الكاهن في رأسها... **«لأننا في الألم نعثر على معنى الحياة، وعلى النعمة الإلهية التي نفقدها بالميلاد»**. استقرّت فوق الطاولة المجاورة للفراش قارورةُ القطرات التي وصفها دكتور فيزيرا لأمّها كي تساعدها على النوم. رفعتها أوفيليا قرب النافذة، وتركت الضوء الذي جاء خافتًا في ذلك الصباح يتساقط على السائل ذي اللون الكهرماني.

«هوذا الرّب في حكمته اللانهائية يضع الحلّ بين أيدينا».

وضعت أوفيليا القارورة في الحقيبة التي حزمتها مرثيديس واضعةً فيها ثياب أمّها القليلة، والتقطت كتبها. استقرّت حقيبة أخرى على الطاولة التي كانت أمّها تجلس إليها لتناول الشاي، بينما استقرّ الكرسي المتحرّك تحت النافذة.

«لأن الموضعَ الذي يشغله في أرواحنا لا يتثبّت إلّا في غيابه المادي».

وبينما كانت أوفيليا شاخصة إلى الكرسي الخاوي، حلّق غرابان مروّعًا بالنافذة، كلاهما في غاية الجمال، في غاية الحرية. إلى أين ذهبت أمّها؟ هل صارت مع أبيها الآن؟ أيسامحها لأنها فارقت الحياة وهي تلد

مكتبة ياسين

ابن رجلٍ اخر؟
أولَت أوفيليا ظهرها للنافذة.
كلا. لا ربّ هناك. ولا سحر هناك.
وحده الموت هناك.

مكتبة ياسين

31
القطّ والفأر

أقبل الليل وأسدل على آخر بقايا النهار أستارًا سوداء جنائزية. كانت مرثيديس في حجرة بيدال، تحمل طفله يتيم الأمّ الذي تمنّت له أن يغدو يتيم الأبّ أيضًا، وتمنّت له ألّا يلتقي الرجل الذي كان ينحني على مكتبه آنذاك، ذلك الذي لا تأذّى بموت زوجته ولا أسف له. لم تعرف مرثيديس أباها يومًا، ولكنها اعتبرت نفسها سعيدة الحظّ بالنظر إلى هذا الأب. أي صنف من صنوف الرجال يغدو ابنه إن هو نشأ في مثل هذا الظلام؟

برفقٍ، وضعت الطفل في المهد ودثّرته بالغطاء. بينما أمسك أبوه بواحدة من أسطوانات الفونوغراف التي يستمع إليها طوال النهار، وشطرًا طويلًا من الليل، فصارت مرثيديس الآن تسمع تلك الموسيقى حتى في أحلامها. ترفّقت يداه بتلك الأسطوانات حتى ليكاد المرء يحسب أنه قد سحق عظام تارتا وأطلق الرصاص على ظهر الطبيب بيدين أخريين. افتقدت فيزَيرا. الوحيد الذي كانت تستطيع الوثوق به في الطاحونة.

- «لقد عرفت دكتور فيزَيرا جيدًا، أليس كذلك يا مرثيديس؟».

مسح بيدال الأسطوانة بأكمام الزي العسكري الذي أمضت ساعات وهي تفركه لتنظيفه من الدماء.

«لا تُظهِري أدنى خوف يا مرثيديس».

- «كلنا عرفناه، سنيور. الكل هنا عرفه».

اكتفى بالنظر إليها. أوه، كم صارت مرثيديس تتقن لعبته الان. **«لا تُظهِري أدنى خوف يا مرثيديس»**.

- «لقد تكلّم الفتلعثم عن واشٍ»، قال بعفوية

مكتبة ياسين

وكأنهما يتحدّثان عن طعام العشاء. «هنا... في الطاحونة. أتتخيّلين؟». لامست ذراعه ذراع مرثيديس حين مرّ بجوارها. «على مرأى ومسمع مني!».

حدّقت مرثيديس إلى قدميها اللتين عجزت عن الشعور بهما، إذ خدّرهما الخوف. وضع بيدال الأسطوانة في الفونوغراف.

«لا تنظري إليه. وإلّا رأى، وعرف!».

انقبض حلقها رعبًا، وبات الخوف كالحبل الذي يخنقها مهما حاولت جاهدةً أن تبلع ريقها. بدأ الطفل يتذمّر برقّة خلفها، فكاد صوته يخرج مكتومًا، وكأنه ما زال لا يعرف كيف يبكي.

- «مرثيديس، تفضّلي»، لوّح بيدال بيده مشيرًا إلى المقعد أمام مكتبه.

وجدت صعوبة كبيرة في تحريك قدميها، على علمها بأن أدنى بادرة من التردّد سوف تخونها. ربما فات الأوان على كل حال. ربما كان تارتا قد وشى بهم جميعا. تارتا المسكين، المنكسر.

- «ما رأيكِ فيّ؟»، ملأ بيدال الكأس بشراب البراندي الذي يحتفظ به في جاروره السفلي. ها هو ذا القطّ يلهو بالفأر. لقد عرفته مرثيديس أطول مما يجعلها تتعلّق بأي أوهام بشأن نتيجة هذه اللعبة. ملأ الخوف حلقها بالزجاج المحطّم، بينما جلست وهي تولي بيدال جانبها لئلّا تُضطرّ إلى مواجهته. ولكي تبقى مُعلّقة بذلك الوهم الذي حدّثها بأن في وسعها الوقوف على قدميها والانطلاق في الركض.

- «لا بدّ أنك تحسبينني وحشًا»، ناولها الكأس.

«أجل!»، أرادت أن تصرخ. **«أجل! إنها حقيقتك»**. ولكن شفتيها تمكّنتا من النطق بكلمات، على أمل أن

مكتبة ياسين

تكون هي الكلمات التي يريد أن يسمعها:

- «لا يهمّ رأي شخص مثلي، سنيور».

تناولت الكأس في ما يشبه الاستعجال، وهي تأمل ألّا ينتبه إلى يدها المرتعشة. ملأ كأسًا أخرى لنفسه، وتجرّع البراندي. في حين لم تذُق مرثيديس كأسها بعد. كيف لها أن تشرب وفي حلقها زجاج مُحطّم؟ «**إنه يعرف**»...

- «أريدك أن تُحضري المزيد من الشراب الروحي من مخزن الغلال»، وضع سداد القارورة. «من فضلكِ».

- «حسنًا، سنيور». وضعت مِرثيديس كأسها التي لم تذُق منها شيئًا على الطاولة. «طابت ليلتك، سنيور».

نهضت.

- «مِرثيديس...».

يا للفأر المسكين. لطالما أعطاه القطُّ تلك اللحظة من الأمل.

- «ألم تنسي شيئًا؟»

- «سنيور؟»، التفتت ببطء، كالذبابة العالقة في الكهرمان، بينما يجفُّ نسغ الشجرة حولها.

فتح الجارور العلوي في مكتبه.

- «المفتاح»، التقط بيدال المفتاح. «لديّ النسخة الوحيدة، أليس كذلك؟».

تيبّس عنقها رهبةً، ولكنها استطاعت أن تومئ برأسها.

- «أجل، سنيور».

نهض عن مقعده وهو يزن المفتاح بيده، سائرًا حول المكتب.

مكتبة ياسين

- «تدرين، هناك تفصيلة غريبة تزعجني. قد لا تكون ذات بالٍ...»، توقّف أمامها مباشرة. «يوم اقتحم المتمرّدون مخزن الغلال بتلك القنابل اليدوية والمتفجّرات كلها... لم يُكسر القفل».

بادلته النظرة الخاطفة، فاستنفد ذلك كل ما تملك من شجاعة. كل ما تملك من شجاعة.

- «كما قلت...»، كانت عيناه سوداوين كفوهة المسدس الذي أطلق منه الرصاص على فيرَيرا. «من المرجّح ألّا يكون لذلك أهمية».

وبينما هو يناولها المفتاح، أطبق أصابعه -التي كسرت تارتا بالمطرقة- على أصابعها.

- «كوني في غاية الحذر».

من الواضح أن القطَ لا يريد لتلك اللعبة أن تنتهي بعد. وإلّا فلمَ يحذّرها؟ أجل. أراد أن يراقبها وهي تركض، ثم يطلق على ظهرها الرصاص كما فعل بفيرَيرا. أو يطاردها كما تُطارَد الغزلان بعد أن يستفزّها للخروج من الأيكة الكثيفة حيث تختبئ عن الأنظار.

أرخى بيدال قبضَته، وما زالت عيناه شاخصتَين إلى عينيها.

- «طابَت ليلتك، سنيور»، دارت على عقبَيها مرة أخرى، وفوجئت بأن ساقَيها تلبيّان أوامرها.

«سيري يا مرثيديس!».

راقبها بيدال وهي تغادر. يلذّ لكل قطّ أن يسمح للفئران بالهرب. لبعض الوقت. قبل أن تحسّ الفئران بمخالب القطّ.

مشى إلى الفونوغراف، ثم وضع الإبرة على الأسطوانة. كان يمكن الرقص على تلك الموسيقى، كما يليق، الآن وقد بدأ الكابتن من فوره رقصة

مكتبة ياسمين

فالس أخرى مميتة، مع الأخذ في الاعتبار أن فريسته رائعة الجمال.

اقترب بيدال من المهد ناظرًا إلى ابنه.

كانت المرأة التي ولدته جميلة أيضًا، ولكن مرثيديس أقوى. ما يعني أن كسرها سيكون أمتع كثيرًا، من المؤكّد أنه سيكون أمتع كثيرًا من تعذيب ذلك المتلعثم أو إطلاق النار على ذلك الطبيب النبيل الأحمق.

لقد صار له الآن ابنٌ. شخص يعلّمه معنى الحياة.

ولسوف يعلّمه رقصة الحياة القاسية. خطوة بخطوة.

مكتبة ياسين

32

لا شيء هناك

نزلت مرثيديس على الدّرج وقد تملّكها القلق خشية أن تُعثرها ركبتاها المرتجفتان، مع أنها كانت تتوق إلى الانطلاق راكضةً. لم يذهب الكابتن في أثرها، ليس بعد. وعلى الرغم من ذلك، فلن يتّسع الوقت أطول كثيرًا.

أزاحت بلاطة من أرضية المطبخ والتقطت آخر حزمة من الرسائل التي عُهد إليها بتسليمها إلى الرجال في الغابة، رسائل من الأمهات والآباء والأخوات والأحبّاء. جاء صوت امرأة ينساب نزولًا من حجرة بيدال، امرأة تغنّي برقة عن الحبّ وعذابه، وكأن بيدال يثيرها بموسيقاه، وكأن كل نغمةٍ سنٌّ سكين تضغط على عنقها.

«إنه يعرف».

أجل، كان يعرف، وقد تنتهي بها الحال كما انتهَت بفريرا، فيغوص وجهها في الوحل، ولكن الأرجح أن بيدال يريد لها أن تموت راقدة على ظهرها، كما فارقت الحياة أمُّ أوفيليا، وهي تلد ابنًا ثانيًا من أجله. للحظة اكتفت مرثيديس بالوقوف في المطبخ المعتم، وقد استوقفتها الأغنية التي انسابت من أعلى، وكأن أصابعه القاتلة الفلطّخة بالدماء ما زالت مُطبقةً على أصابعها.

«اذهبي يا مرثيديس. لا يمكنه أن يقيّدك بأغنية». كلا. ولكنها لا تستطيع أن تترك الفتاة. ليس من دون أن تودّعها.

كانت أوفيليا مستغرقة في النوم، مع أن الليل ما زال في أوله، عندما تسلّلت مرثيديس إلى العلية، يوم أُقيمت جنازة أمّ أوفيليا. الحزن يستنزف القلب.

مكتبة ياسين

غرق صرير الباب الفاضح في موسيقى بيدال، وكذلك وقع خطوات مرثيديس بينما راحت تقترب من الفراش. غالبًا ما تبدو الطاحونة العتيقة وكأنها تقف في صفّ الجنود، وإن كانت مِرثيديس تلمس صداقة البيت العتيق في بعض الأحيان.

- «أوفيليا! أوفيليا، استيقظي!».

أمسكت مِرثيديس كتف الفتاة من دون أن تحوّل عينيها عن الباب.

- «أوفيليا!».

«أرجوكِ، استيقظي، أرجوكِ»...

وأخيرًا، انفتحت أجفان الفتاة المُثقَلة بالنوم، فمالَت مِرثيديس إليها آخذةً بيدها.

- «أنا راحلة يا أوفيليا».

اتّسعت عيناها. أي عينَين جميلتَين! كعينَي أمّها. ولكن الجمال هبةٌ خطيرة في هذا العالَم.

- «إلى أين تذهبين؟».

- «لا أستطيع أن أخبركِ. لا أستطيع».

ألقَت مِرثيديس نظرة أخرى على الباب. ما زالَت الموسيقى تنساب، وكأن بيدال ينسج خيوطه في الليل.

- «خذيني معكِ!»، تعلّقَت أوفيليا بذراعها. «أرجوكِ!».

- «كلا، كلا!»، همست مرثيديس وهي تربّت على الوجه الخائف. «لا أستطيع!».

طوّقت الفتاة عنق مرثيديس بذراعيها، كانت أصغر من أن تبقى وحدها في العالم، أصغر كثيرًا.

طبعت مرثيديس قبلة على شعر أوفيليا الفاحم كشعرها، وضّمتها بين ذراعيها كما تمنّت أن تضمّ ابنتها ذات مرة.

مكتبة ياسين

- «لا أستطيع، يا صغيرتي! سأعود إليك، أعدك بذلك».

ولكن أوفيليا لم تفلتها. بل تشبّثت بها بقوة حتى صار في وسع مرثيديس أن تحسّ ضربات قلب الفتاة.

- «خذيني معك!»، توسّلت. «خذيني معك!»، راحت تردّدها مرة تلو أخرى.

وكيف يملك المرء أن يرفض أمام وحدةِ كهذه؟

*

مضت كلٌ منهما تتعثّر في الليل، وتتبع الغدير، وترتجف تحت دفقة أخرى من المطر المثلّج. أما المظلّة العتيقة التي أخذتها مِرثيديس فكادت لا تقيهما المطر. في إحدى المرات خُيّل إليها أنها قد سمعت وقع خطوات فيزيرا خلفها، واضطرّت إلى تذكير نفسها بأنه قد مات، كما مات تارتا، وكثيرون غيرهما. «مات»، أتغدو الكلمة أكثر أو أقل حقيقةً كلّما اضطرّ المرء إلى الربط بينها وبين أحد الأحبّاء؟

- «مهلًا!»، توقّفت مِرثيديس وقد لفّت ذراعها حول كتفَي أوفيليا بإحكام.

خُيّل إليها أنها قد سمعت صهيل الخيل. ولكنها أرهفت السمع في الليل، فلم تسمع إلّا قطرات المطر التي تقرع الأشجار وتتساقط من الأوراق على رأسيهما.

- «لا شيء هناك!»، همست، وهي تضمّ أوفيليا إلى جانبها. «لا تقلقي. هيا بنا نذهب».

ولكن اللعبة قد انتهت.

التفتت مرثيديس وهي ترفع المظلّة، وإذا هي تحدّق إلى وجه بيدال، الذي اصطفّ خلفه غارثيس وما لا يقلّ عن عشرين من الجنود. كيف لم تسمعهم؟

مكتبة ياسين

لطالما وقف الليل في صفّ الصائد.

- «مرثيديس»، اتّخذ بيدال من اسمها سلسلةً تطوّق عنقها. ترك نظرته تطوف بوجهها الذي بات في غاية التصلّب من فرط الهول، ثم خفض عينيْه إلى الفتاة.

- «أوفيليا».

لم يحاول أن يخفي الكراهية الكامنة في نفسه.

أمسك بذراع الفتاة تاركًا مرثيديس لغارثيس.

*

«**سوف يقتلونها**». كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي استطاعت أوفيليا أن تفكّر فيه، بينما راح الذئب يجرّها إلى الطاحونة جرًّا، من خلال الغابة، والباحة التي اكتست أرضها بالوحل، إلى البيت، حيث ماتت أمّها. «**سوف يقتلون مرثيديس كما قتلوا أمي**».

سحبها الذئب صعودًا على الدَّرَج بيديْه الحديديتيْن. ونادى واحدًا من جنوده لحراسة الباب قبل أن يزجّ بها في حجرتها بغلظة.

- «منذ متى وأنتِ تعرفين بشأنها؟».

صفع وجهها الذي ما زال يبلّله المطر، أم أن تلك التي أحسّت بها أوفيليا على وجنتيْها كانت دموعًا؟ لا يهمّ، فحتى قطرات المطر انهمرت دموعًا. لأن العالم بأسره يبكي.

- «منذ متى وأنت تسخرين مني، أيتها الساحرة الصغيرة؟!».

هزّها الذئب، وأحسّت أوفيليا برغبته في أن يفعل أكثر من ذلك. أن يكسرها. أن يمزّقها وكأنها واحد من تلك الأرانب التي تعدّها الطاهية في المطبخ من أجله هو ورجاله. وأخيرًا، أفلتها بيدال وهو يلعنها

مكتبة ياسين

بقسوة، ثم خلع قبعته بأنفاس متثاقلة، وأخذ يملّس شعره. تراءى في قناعه شرخٌ لأول مرة، فأخافها ذلك بأكثر مما أخافها غضب الفاون. لن يغفر لها الذنب أنها قد رأته ضعيفًا، كما لن يغفر لها أنها لم تخبره بأمر مرثيديس.

- «راقبها!»، نبح مُصدرًا أمره إلى الجندي الذي وقف على الباب. «ولو حاول أحدهم أن يقتحم الغرفة...»، اعتمر القبعة مرة أخرى واضعًا إياها مستوية حتى يرأب الشرخ في قناعه. «... فاقتلها أولًا».

أحسّت أوفيليا بوخزة في وجنتها، وكأنما الصفعة قد شقّت جلدها. وفي تلك اللحظة، عندما أوصد الذئب الباب، أجهشت بالبكاء. كل هذه الدموع: من أجل أمّها، ومن أجل مرثيديس، ومن أجل نفسها.

مكتبة ياسين

33

مُجرّد امرأة

ها هي ذي قد شُدَ وثاقها إلى القائم الفلظخ بدماء تارتا، وفجر يومٍ جديد يُشرق في الخارج. لم تنظر مرثيديس إلى غارثيس وهو يُحكم الحبل ويربط يديها أمامها كما فعل بتارتا.

انشغل بيدال بالبحث عن حقيبته، وقد خلع قفازه كما هو دأبه في كثير من المرات التي يستجوب فيها الأسرى. كم يصعب تنظيف الجلد من الدماء! تعرف مرثيديس ذلك، وهي التي نظّفت الجلد من الدماء مرات كثيرة.

- «نقانق...»، ألقى النقانق أرضًا. «لا يُفترَض بهذا أن يطعمكِ أنتِ والفتاة فحسب، أليس كذلك؟ ومن المؤكّد أنك لم تسرقي هذا من أجل الفتاة»، أخذ يتشمّم عبوة صغيرة. «أفخر أنواع التبغ الخاص بي. كان عليك أن تطلبيه. لو فعلتِ لأعطيتكِ إياه يا مِرثيديس».

ابتسم غارثيس وهو يصنع عقدة أخرى، بينما راح الكابتن ينبش الرسائل التي كانت مِرثيديس تنوي أن تسلّمها للرجال في الغابة.

- «أريد أسماء من كتبوا هذه الرسائل. أريدها بحلول الغد». ناول غارثيس الرسائل.

- «غلم سيدي الكابتن».

لماذا لم تترك الرسائل؟ كل أولئك الأحبّاء الذين سوف يلاحقهم الجنود الآن! لا شيء قد يؤلم الرجال في الغابة أكثر من ذلك. كل كلمات الحب التي سوف تُتّخذ أسلحةً في وجوه أولئك الذين كان يُفترض بتلك الكلمات أن تطمئنهم!

حاولت مرثيديس أن تغالب الدموع. ولكن قلبها

مكتبة ياسين

غصَ باليأس وكأنه ماء مسمم. إنما الحبُ شرك رهيب في فعاليته، وأقسى حقائق الحرب أنها تجعل الحبّ مخاطرةً قاتلة.

«سوف نقتل أمّك. ونغتصب أختك. ونكسر عظام أخيك..».

استندت مرثيديس برأسها إلى الخشب المُتشظّي. فيم يهمّ لو قتلوها الآن؟ لقد استحوذ عليها كل ذلك الخوف أطول مما ينبغي، فتعب منه قلبها حتى ما عاد يشعر إلّا بالندم على الرسائل والأسى لأولئك الذين سوف يسمعون طرقات على أبوابهم قريبًا.

حلّ بيدال أزرار قميصه الذي غسلته وكوّته مرثيديس من أجله. كم لعنت اللطخ التي تركتها دماء الآخرين؟ أتلوّث دماؤها الأكمام، أم تراه يخلع قميصه؟ أجل، فكّري في غسل الأقمصة يا مرثيديس. لا تمهلي عقلك وقتًا للتفكير في ما سوف يفعل بك.

- «لك أن تذهب يا غارثيس».

لم تكُن على يقين من ذلك الشيء الذي لمسَته في نظرة غارثيس إليها. بعض الجنود لا يروقهم تعذيب النساء. أما الكابتن، فلم تساوره أدنى حيرة من هذا القبيل. اشتبهَت في أن تعذيب النساء يلذّ له أكثر وأكثر من كسر الرجال.

- «هل أنت مُتأكّد سيدي الكابتن؟».

لم تتذكّر مرثيديس أنها قد سمعت بيدال وهو يضحك من قبل.

- «رباه! إنها مُجرّد امرأة».

حدّقت مرثيديس إلى جدران مخزن الغلال الخشبية، التي ربما كانت أخر شيء تراه بعينيْها. جذوع الأشجار الميتة، بينما الغابة الحية في

مكتبة ياسين

الخارج بعيدة المنال. أوصد غارثيس باب مخزن الغلال وراءه.

- «لطالما فكّرت هكذا. ولهذا استطعتُ أن أفلت بفعلتي. لأنني خفية عن عينيك».

ظلّت مرثيديس شاخصة إلى الجدران لئلّا يرى أسرها الخوف في عينيها. ولكن بيدال وقف إلى جوارها، آخذًا بذقنها، وأرغمها على النظر إليه.

- «سحقًا! لقد عثرت على نقطة ضعفي. الكبرياء». تفحّص وجهها وكأنه قطعة من اللحم الجميل، اللحم الذي يملك بيدال مطلق الحرية في أن يريق دماءه. «من حسن الحظ أنها نقطة ضعفي الوحيدة».

«**كاذب**». أحسّت مرثيديس بأصابعه على وجنتيها. كم يلذّ له عجزها، كم يلذّ له أن يحوّل جمالها إلى شيء يستطيع أن يتملّكه بتخريبه!

- «والآن، دعينا نكتشف نقاط ضعفكِ **أنتِ**».

أفلت بيدال وجهها سائرًا إلى الطاولة التي تراصّت فوقها أدواته.

- «الأمر في غاية البساطة»، قال وهو يوليها ظهره، ويلتقط المطرقة. «سوف تتكلّمين، طبعًا...». وضع المطرقة على الطاولة مرة أخرى، مُتفحّصًا باقي الأدوات، وكأنه لا يدري على وجه اليقين أيها يستخدم. «ولكن، ينبغي لي التأكّد من أن كل ما تقولين...»، التقط خطافًا حديديًا وتفحّصه بعطف، «... حقيقة».

«**استمرّ في الكلام**»، ابتهلت مرثيديس وأصابعها تفتّش بصمت عن السكين الذي تخفيه بين طيات المئزر. أيكون حادًا بالقدر الكافي؟ حادًا بالقدر الكافي لقطع الحبل بدلًا من الجزر والبصل؟

- «أجل، سوف تتكلّمين. لدينا بضعة أشياء هنا لهذا

مكتبة ياسين

الغرض حصرًا». ظلّ يوليها ظهره.

تأكّدت مرثيديس أن تارتا قد سمع الخطاب نفسه. كان بيدال يحبّ الزهو بنفسه، ففي النهاية، ليس للكابتن المتمركز في طاحونة مهجورة وسط غابة غالیثية شيء يزهو به سوى قسوته. أتراه كبرياء؟ كلا، بل إنه الاختيال، كانت **تلك** هي نقطة ضعفه: الحاجة الفلحْة إلى أن يثبت لنفسه وللآخرين باستمرار أنه ليس هناك شيء أو أحد قادر على التصدّي له، وأن قلبه لا يعرف الخوف ولا الشفقة. كاذب. إنه يخاف كل شيء. ولا سيما نفسه. ظلّت عينا مرثيديس مُعلّقتين بظهره، بينما راحت تقطع ألياف الحبل.

- «لا نستخدم شيئًا مُميّزًا... فلا حاجة تدعو إلى ذلك. بل إن المرء يتعلّم بشأن تلك الأمور في المهنة».

أوه، أجل، كم يحبّ أن يسمع صوت نفسه! كان مزهوًا بقدرته على الاحتفاظ بهدوء صوته بينما تتسارع خفقات قلبه من فرط الغضب أو الإثارة. تأكّدت مرثيديس أن قلبه يخفق بسرعة أكبر أمام احتمال أن يستخدم تلك المطرقة على الوجه الذي كثيرًا ما حدّق إليه، واليدَين اللتين كان يلمسهما بمنتهى العفوية كلّما اقتربت منه. خفية. أجل. مرثيديس، أخت پيدرو، التي كانت لها شقيقة أخرى ماتت في طفولتها المبكّرة، مرثيديس، التي رحل أبواها منذ أمد بعيد... كانت ذاتها الحقيقية خفية عن عيني بيدال، ولكنه طالما انتبه إلى جمال جسدها.

ها هي ذي تحسّ بنصل السكين على بشرتها. تحرّرت يداها. ولكن الحاجة تقتضي قطع المزيد.

- «في البدء...» التقط بيدال كلّابة. «أجل، أعتقد

مكتبة ياسين

بأن هذه تفي بالغرض». ما زال لم يلتفت.

أرخت مرثيديس الحبل الذي شُدّت به ساقاها في صمت. ثم غاصت قدماها عميقًا في القشّ وهي تسير على أطراف أصابعها نحو آسرها.

وإذا هي تغمد السكين في القميص الأبيض، في ظهر بيدال، بكل ما تبقّى لها من قوة، ولكن النصل الرفيع كان قصيرًا، كما أن اللحم والعضلات لا تُقطع بسهولة كألياف الحبال. تأوّه بيدال واضعًا يده على الجرح، بينما تراجعت مِرثيديس مُتعثّرةً وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها. لم يسبق لها أن أغمدَت سكينًا في لحم بشري قطّ. ولقد أحسّت بسلاحها هشًّا بقدر جسدها.

كم اتّسعَت عيناه استنكارًا حين التفت لمواجهتها أخيرًا! مُجرّد امرأة. في هذه المرة أغمدَت مِرثيديس السكين في صدره. خرّ بيدال على الأرض وهي تنتزع السكين، غير أنها قد طعنته أسفل الكتف، أعلى من موضع القلب –لو أن له قلبًا– أضف إلى ذلك أن النصل أقصر مما ينبغي. طعنته مِرثيديس مرة أخرى، وإن كانت دماؤه قد تركت أصابعها لزجةً بالفعل. أما في هذه المرة، فدسّت مِرثيديس السكين بين شفتيه المنفرجتين، ثم ضغطت بالسكين على جانب فمه.

- «أترى؟ أنا لستُ رجلًا عجوزًا يا ابن العاهرة!»، جاء صوت مِرثيديس فحيحًا. «ولا أنا أسيرًا جريحًا».

مزّقت خده بالسكين. ثم رمقته وهو في مكانه بالأسفل، جاثيًا على ركبتيه، ضاغطًا بيده على فمه الدامي.

- «إياك وأن تلمس الفتاة». كادت لا تتعرّف صوتها. «لن تكون أنت أول خنزير أذبحه».

مكتبة ياسين

تكلّمت ركبتاها لغةً أخرى. وبدا أن كل الخوف الذي استحوذ عليها قد استقرّ فيهما. غير أنها وصلت إلى باب مخزن الغلال وفتحته. لم تنتبه مرثيديس حتى إلى أن يدها ظلّت ممسكة بالسكين الذي يقطر دمًا بعد أن خرجت من مخزن الغلال. استطاعت أن تخفي النصل بين طيات منزرها مرة أخرى، ثم بدأت تسير. تجاوزت الجنود الذين كانوا في الباحة، فلم يعرها أحدهم انتباهًا.

خفية.

لم يلتفت إليها برأسه إلّا واحد فقط. ضابط. سيژانو. حدّق إليها، ولكن مرثيديس واصلَت السير. بينما الراديو يدوّي أمام الإصطبل، مُعلنًا عن الأرقام الفائزة بجائزة اليانصيب التي تنفق الطاهية مالها كاملًا عليها دائمًا.

«**استمرّي في السير**».

- «أنتم! أرأيتم هذا؟»، صاح سيژانو في غارثيس، الذي تجهّم محبطًا من بطاقة اليانصيب التي عثر عليها في الغابة وظلّ محتفظًا بها بعد أن فقدها المُتمرّدون. «أتصدّقون ما يجري؟». امتقع وجه سيژانو ذهولًا. «لقد أطلق سراحها».

أشار إلى مرثيديس. بينما أطبق غارثيس قبضته على بطاقة اليانصيب ثم رماها أرضًا.

- «عمّ تتحدّث؟».

سارت مرثيديس بسرعة أكبر. وأحسّت بعيني غارثيس في ظهرها. لعلّه لم يستمتع بالتعذيب بقدر الكابتن، ولكن الفوْكّد أنه لم يبال بالقتل.

- «أنت!»، ناداها. «أنت! قفي!».

بدأت مرثيديس في الركض.

أوه، إنه لهدف سهل!

مكتبة ياسين

استل غارثيس المسدس من حزامه.

ذلك أسهل كثيرًا من الاعتداء بمطرقة على أسير مُكبّل.

صوّب المسدس بعناية، كما كان والد أوفيليا يُسلك الخيط في الإبرة.

- «أمسك بها يا غارثيس!».

ولكن غارثيس نسي أمر مرثيديس، وخفض مسدسه فحدّقًا إلى الكابتن الذي خرج من مخزن الغلال وهو يترنّح كالمخمور، ضاغطًا بيده على فمه، وقد تضرج قميصه بالدماء.

- «هيا!»، كان من الصعب أن يفهم كلام بيدال الذي وضع يده على فمه. «أحضِرها إليّ!».

لم يتحرّك غارثيس. وإنما راح يحدّق إلى الدم الذي تسرّب من خلال أصابع بيدال.

- «كابتن، ماذا...».

- «أحضرها إليّ، سحقًا!».

في هذه المرة انخفضت اليد. وإذا الفم الذي صرخ في غارثيس مفتوحٌ على وجنة بيدال اليسرى. لم يكن من السهل أن يحوّل المرء عينيه عن تلك الابتسامة العريضة الدامية، ولكن غارثيس تمكّن من خفض عينيه أخيرًا.

- «إلى خيولكم!»، صاح في جنوده.

كانت مرثيديس قد وصلت إلى الأشجار من فورها حين سمعت غارثيس ينبح مُصدرًا أمره. «**لماذا لم تقتليه عندما سنحت لكِ الفرصة؟**»، سألت نفسها عندما نظرت إلى الخلف ورأت بيدال. لو كان لديها سكين أفضل من ذلك لفعلتها. أجل، كانت ستفعلها. مضت إلى الأمام تتعثّر في السراخس المُبلّلة التي لامست فروعها بشرة مرثيديس وثيابها. لم يسبق

مكتبة ياسين

لها أن ركضت كما فعلت الآن منذ صباها المبكر، عندما كانت تركض لمتعة الركض.

المتعة. كيف كان ذلك الشعور؟ عجزت عن التذكُّر...

سرعان ما اضطرّت إلى الاتكاء على شجرة كي تلتقط أنفاسها، مع أنها سمعت صهيل الخيل خلفها، ودبيب حوافرها التي مضت تدهس السراخس، وصيحات أولئك الذين يمتطون الخيل. كان عددهم كبيرًا، ومضوا يقتربون منها أكثر فأكثر، بينما ظلّت هي تتعثر في الجذور والصخور.

انشقّت الغابة عن رقعة خالية، تحلّقت أشجار الصنوبر السامقة حولها في دائرة واسعة، وكأنها قد اجتمعَت لتشاهد مِرثيديس وهي تُقتَل. طوّقها الجنود وهم على صهوات جيادهم، بينما هي لم تتجاوز نصف الرقعة الخالية من الأشجار إلّا قليلًا. انحلّ شعرها، وأحسّت بأنها ضئيلة هشّة كالطفلة الصغيرة.

ابتسم لها غارثيس وهي في مكانها بالأسفل، ناظرًا إليها نظرة سخرية وإعجاب في آن. كل النساء فرانس. «**انظروا إليها**»، قالت عينا غارثيس. «**أجمل مما يليق بخادمة**». هدّأ من روع جواده مُربّتًا على عنقه وكأنه عنقها. أخذ وقته في الترجُّل من صهوة الجواد. كان مستمتعًا بذلك، فلقد بدأ المرح من فوره.

- «ششش...»، قال سائرًا نحوها، رافعًا كلتا يديه، مُهدّئًا من روعها وكأنه يطمئن طفلًا صغيرًا.

لطالما رأت مرثيديس أن غارثيس أقلّ قسوة من بيدال، ولكن فيم يهمّ ذلك؟ إنه واحد منهم. استلّت سكينها، الذي كان نصله لا يزال أحمر اللون، مضرجًا بدماء الكابتن، حين شهرته في وجه غارثيس.

مكتبة ياسمين

خلع غارثيس قبعته العسكرية وهو لا يزال مبتسمًا، كما لو كان يتغزّل بها.

- «أتطعنينني **أنا**؟ بهذا السكين الصغير؟».

أوه، كم تمنّت لو كانت رجلًا.

- «الأفضل لك أن تأتي معنا بلا مقاومة. يقول الكابتن إنك لو أحسنت السلوك...»، ما أقدر الرجل على أن يجعل صوته مثل قرقرة القط وهو يصطاد المرأة!

وضعت مرثيديس نصل السكين على عنقها. لم يحظ تارتا بمثل هذه الفرصة. مسكين تارتا.

- «لا تكوني حمقاء يا عزيزتي»، خطا غارثيس نحوها خطوة أخرى.

ضغطت مرثيديس بالسكين على عنقها بحزم شديد، وأحسّت بوخزة النصل على بشرتها. بينما استمرّ غارثيس في سيره.

- «لو أن أحدهم سوف يقتلك...»، جاء صوته مثل قرقرة القطط، «أفضّل أن أكون أنا هذا الشخص».

كان لا يزال مبتسمًا لها حين قُتِل.

أصابت الرصاصة ظهره. حاول باقي الجنود أن يهربوا، ولكنهم تساقطوا واحدًا تلو الآخر. بينما ظلّت مرثيديس تضغط بالسكين على عنقها. وحين خفضت السكين أخيرًا، كان الخدر قد سرى في أذنيها تحت وطأة الطلقات النارية والصرخات. ومن حولها، زلّت حوافر الجياد المذعورة على العشب، فراحت تُسقط الجنود عن صهواتها عند قدمي مرثيديس، حتى اكتست الرقعة الخالية من الأشجار بأجساد الرجال المحتضرين.

لم تدر مرثيديس إن استطاع أحد الجنود أن يهرب. لو تمكّن بعضهم من ذلك، فلم يكُن عدد

مكتبة ياسين

الهاربين كبيرًا. لم تر إلّا بعض الجياد تركض مُتوغّلةً في الغابة، جامحةً، حرّةً، لأول مرة في حياتها. وها هو پيدرو! جاء أخوها سائرًا إليها، ورجاله في أثره، فشعرت وكأنه ينبثق من حلم، حلم سار، على سبيل التغيير. ضمّها بين ذراعيه، فأجهشت مرثيديس بالبكاء، مُتشبّثةً به، ومضت تبكي على كتفه، وتبكي، وتبكي، بينما أخذ الرجال يطلقون النار على الجنود الذين ما زالوا يتحرّكون وسط السراخس التي وطئتها الأقدام.

رصاص ونشيج... إنه صوت العالَم. لا بدّ أن هناك المزيد، ولكن مرثيديس قد نسيت. عانقت پيدرو، فبدت وكأنها لن تكفّ عن البكاء أبدًا.

مكتبة ياسين

مكتبة ياسين

الخيّاط الذي ساوم الموت

في مرة من المرات، عاش في أكورونيا خياط شاب يُدعى ماتيو إلودورو، كان سعيدًا في زواجه بكارمن كاردوسو، المرأة التي أحبّها منذ الصغر. شعر وكأنه أثرى رجل على وجه الأرض حين أنجبت كارمن ابنتهما، التي أحبّها بقدر ما أحبّ زوجته. سمّيا الفتاة أوفيليا. كان ماتيو يصنع ثيابها كلها بنفسه، كما صنع الفساتين من أجل ذماها، ناسجًا ثياب الأميرات المرسومة في كتب ابنته، كتب الحكايات الخرافية.

من المؤكّد أن ماتيو إلودورو كان رجلًا في غاية السعادة. ولكن في ليلة عيد ميلاد أوفيليا، ألقت بذه ظلُّ جمجمةٍ على الكتان الأخضر الذي كان يقصّه ليصنع ثوبًا جديدًا من أجلها. تراجع إلودورو عن مكتب العمل، وإذا هو يجد «الموت» تقف خلفه، بوجهها الأبيض كثوبها.

- «ماتيو»، قالت. «لقد حان وقتك. ملكة المملكة السفلى في حاجة إلى خياط، ولقد وقع اختيارها عليك أنت».

- «أخبريها بأنني لست ماهرًا!»، توسّل إليها. «أخبريها بأن يديّ ترتجفان وأن درزاتي تنحلّ بعد أيام قليلة!».

فهزّت «الموت» رأسها، مع أن وجهها قد وشى بأثر من الشفقة.

- «إن الدرزات التي تصنعها أكمل من أنشودة العندليب يا ماتيو. وفي هذا العالم، لا يمكن أن يوجد مثل هذا الكمال»، قالت.

- «لو أخذتني بترث أصابعي!»، صاح الخياط. «وبأي نفع أعود على الملكة إذن؟».

مكتبة ياسين

- «لست في حاجةٍ إلى هذا الجسد هناك حيث أخذك. لست في حاجة إلى شيء سوى مهارتك، وذلك شيء لا يمكنك أن تبتره، لأنه كامن في جوهر ذاتك. لك أن تقول عنها إنها ومضة خالدة»، قالت «الموت».

خفض إلودورو رأسه لاعنًا تلك الموهبة التي أمضى حياته يظنُّها نعمة. انسابت دموعه على القماش الذي كان يقصّه من أجل ثوب ابنته الجديد. كم كانت أوفيليا ستبدو جميلة في ذلك الثوب، بشعرها الفاحم الذي ورثته عن أمّها وعينيْها الفتاملتيْن المتسائلتيْن دائمًا.

- «دعيني أنتهِ من هذا الثوب فحسب!»، توسّل إليها. «أعدك بأن آتي إليك برغبتي حالما أصنع الدرزة الأخيرة، وبأن أصنع أجمل الثياب من أجل ملكة المملكة السفلى».

تنهّدت «الموت». تعوّدت أن يطلب البشر بضعة سنوات أو شهور، أو حتى بضع ساعات أخرى في بعض الأحيان، فلطالما كان هناك شيء لم ينتهِ، شيء لم يُنجَز، شيء لم يعِشه المرء بعد. لا يدرك الفانون أن الحياة ليست كتابًا تغلق دفتيْه بعد أن تقرأ الصفحة الأخيرة. لا صفحة أخيرة في كتاب الحياة، فلطالما كانت آخر صفحات إحدى القصص هي نفسها أولى صفحات قصة أخرى. ولكن «الموت» قد تأثّرت بالخياط. لأن في نفسه حبًا جارفًا... ورفقًا، تلك السمة التي قلّما وجدتها بين البشر.

- «فليكُن إذن. انته من الثوب»، قالت بصوتٍ يشي بقليل من نفاد الصبر، إذ نفد صبرها مع نفسها في المقام الأول، لأنها قد استجابت لتوسّلاته. «سوف أعود».

مكتبة ياسين

ارتجفت يدا إلودورو حين رجع إلى مكتب العمل، وجاءت درزاته غير متساوية. ولمّا صارت الدرزات تنمّ عن اليأس الذي استحوذ عليه، كما كانت تنمّ عن سعادته في وقت من الأوقات، فلقد اضطرّ إلى حلّها جميعًا. وبينما هو يقطع الخيط وينتزعه من القماش المرهف، راودته خاطرةٌ جريئة، وجعلته يرفع رأسه.

ماذا لو أنه لم ينته من الثوب؟ ماذا لو أنه لم ينته من الثوب **أبدًا**؟

بدأ يسهر كل ليلة، ولم يكُن ينصت إلى كارمن إذا طلبت منه أن ينال قسطًا من النوم، حرصًا منه على إقناع «الموت» بأنه يعمل على الثوب ليل نهار. كان كلّما صنع درزة، حلّ أخرى بتكتُّمٍ، بتكتُّمٍ شديد، على أمل ألّا تمسك به حتى «الموت» ذاتها.

بعد مضي ستة أسابيع، ألقت يده ظلّ جمجمة على الكتان الأخضر مرة أخرى، كتان الثوب الذي لم ينتهِ بعد. وإذا «الموت» تقف وراءه، ولكنها جاءت بثوب أحمر في تلك المرة.

- «ماتيو!»، قالت، بصوت جاء باردًا كالقبور. «انتهِ من الثوب قبل أن تشرق الشمس وإلّا أخذتُ الطفلة التي تصنع الثوب من أجلها أيضًا».

أحسّ إلودورو بالإبرة تخترق جلده عندما انقبضت يده، وسالت قطرة من الدم على كم الثوب الذي كان يصنعه. سوف تتساءل ابنته أوفيليا من أين جاءت تلك البقعة الداكنة.

- «سأنتهي منه قبل أن تشرق الشمس»، قال هامسًا. «أقسم بذلك. ولكن أرجوك، لا تمسسي طفلتي، فهي صغيرة جدًا».

- «لا أستطيع أن أعدك بذلك»، أجابت «الموت». «ولكني أقطع لك وعدًا آخر: لو انتهيت من الثوب الليلة، فإنه سوف يلفّها بحبّك. ولن أسعى إلى ابنتك

مكتبة ياسين

ما دامت ترتديه، وما دام يلائمها».

مكتبة ياسين

34
فرصة أخيرة

تاك، تاك، تاك... مضى الحارس يمشي جيئةً وذهابًا أمام باب أوفيليا، جيئةً وذهابًا، حتى يبقى مستيقظًا. أما النافذة المستديرة، التي كانت توأمة القمر المكتمل في النهار، فلقد ألقى عليها الليلُ ظلمةً، الشيء الذي ربما ضيّع كل أملٍ في تنفيذ مهمات الفاون. ضاع كل شيء. ولن تعرف أبدًا إن كان الفاون صادقًا، وإن كان لا يزال هناك مكان تملك أن تعود إليه وتسمّيه بيتًا.

مكان ما زالت تحظى فيه بأمٍّ وأبٍ.

«راقبها. ولو حاول أحدهم أن يقتحم الغرفة، فاقتلها أولًا».

«يقتلها؟». ظلّت تنتظر أن يفعلها أحدهم منذ غادر الذئب –جالسةً بثياب النوم على الأرض التي يجوس تحتها الرجل الشاحب، مستندةً بظهرها إلى قاعدة الفراش– وهي تترقّب أن يدخل أحدهم وينحر عنقها.

وضعت أوفيليا إلى جوارها الحقيبة التي حوت ثياب أمّها، على أمل أن تبثّ شيئًا من الطمأنينة في نفسها، ولكن الحقيبة اكتفت بالهمس إليها: **«لقد رحلَت. لقد رحلوا جميعًا: أمُّكِ، ومرثيديس، حتى الفاون قد هجرك»**. إنها الحقيقة. لم يبق سوى الطاحونة العتيقة الملأى بالأشباح والرجال المرؤعين الذين تسبّبوا في موت أمّها، وسيقتلون مرثيديس أيضًا. أجل، من المؤكّد أنه سوف يقتلها. تساءلت أوفيليا إن كانت قد فارقت الحياة بالفعل، أم أن الذئب يأخذ وقته في قتلها، كما قيل إنه قد أخذ وقته مع الفتى المتمرّد.

مكتبة ياسين

ومن خلال خطوات الجندي الذي يقف خارج بابها، سمعت بكاء شقيقها بالأسفل، في عرين الذئب. جاء صوته في غاية الضياع والوحدة. وتردّدت في صوته أصداء الألم الذي استحوذ على قلب أوفيليا، وصنع رباطًا بينهما عبر الليل. مع أنها ما زالت تلقي عليه باللائمة في موت أمّها.

رفعت أوفيليا رأسها.

بينما جاء صوتٌ آخر، حفيف جناحين يشبهان الأوراق الذابلة.

مضت الجنيّة ترفّ بجناحيها فوق رأس أوفيليا، الجنيّة التي كانت ذكرى حية لشقيقتيها القتيلتين، وللإخفاق الذي منيت به أوفيليا. جثمت على يد أوفيليا ممسكةً بإحدى أصابعها. كانت أخفّ من عصفور، أما لمسة يديها المرهفتين فلقد ألقت على قلب أوفيليا نورًا ودفئًا.

- «لقد قرّرتْ أن أمنحكِ فرصة أخرى»، ظهر الفاون آتيًا من الظلال وقد ضمّ يديه كمن يحمل هديةً ثمينة.

هبّت أوفيليا واقفة على قدميها.

- «فرصة أخيرة»، ارتسمت على شفتي الفاون الرفيعتين ابتسامة مغفرة.

ألقت أوفيليا ذراعيها حوله وضمّت وجهها إلى شعره الأصفر الشاحب الطويل. أحسّت وكأنها تعانق شجرة، في حين جاءت ضحكة الفاون وكأنها ينبوع فائر يروي قلبها اليائس بهجةً. داعب الفاون شعرها مائلًا على رأسها بوجنته ذات الأشكال، فشعرت أوفيليا بالأمان على الرغم من الجندي الذي يقف أمام بابها، وعلى الرغم من الذئب، وعلى الرغم من الحقيبة التي حوت ثياب أمّها الخاوية. شملها جسد الفاون العملاق بالحماية من عالمٍ بات مفرط الظلمة.

مكتبة ياسين

ربما أمكنها الوثوق به على الرغم من كل شيء. وإلّا، فمن يساعدها سواه؟ لم يكن أحد هناك.

- «أجل، سأمنحك فرصة أخرى»، همس الفاون في سمعها. «ولكن، أتعديني بأن تفعلي كل ما أطلبه منك في هذه المرة؟».

تراجع خطوةً إلى الوراء، ويداه لا تزالان على كتفيها، ناظرًا إليها نظرة استفهام.

أومأت أوفيليا. بالطبع. كل شيء! ستفعل كل شيء في متناول يديها حتى يشملها بحمايته من الذئب الذي جرّها إلى هذه الحجرة جزًا كما لو كانت أرنبًا أوقع به في الغابة.

- «كل شيء؟»، مال الفاون حتى تمكّن من النظر إلى عينيها مباشرةً. «بلا سؤال؟».

ربّت على وجهها بأصابعه ذات المخالب، فأومأت أوفيليا مرة أخرى، مع أنها لمست في سؤاله تهديدًا هذه المرة.

- «**إنها** فرصتك الأخيرة». شدّد الفاون على كل كلمة.

تذكّرت أوفيليا العنب الذي كان في الصحون الذهبية للرجل الشاحب. كلّا. سوف تتحلّى بقوة أكبر في هذه المرة. أومأت برأسها.

- «أنصتي إليّ إذن»، طرق الفاون أنفها بطرف مخلبه لاهيًا. «أحضري أخاك إلى المتاهة بأسرع ما يمكنك، يا صاحبة السمو».

كانت تلك مهمة لم تتوقّعها أوفيليا.

- «أخي؟».

قطّبت جبينها رغمًا عنها. «**وفيمَ يهمّك؟**»، سألت نفسها. «**أجل، يبدو أخوكِ وحيدًا مثلكِ، ولكنه ابن أبيه، ولولاه لبقيت أمّكِ على قيد الحياة**». غير أنها

مكتبة ياسين

لم تكن أول مرة يهمس إليها صوتٌ داخلي اخر قائلًا: «**لم تكن له يد في ذلك، لأنه قد اضطُرّ إلى المجيء إلى هذا العالَم، ولكنه يخاف منه بقدر ما تخافين منه أنتِ أيضًا**».

- «نعم»، قال الفاون. «نحن في حاجة إليه الآن».

لماذا؟

«**أوه، أوفيليا!**»، كانت من عادة أمّها أن تقول مُتنهّدة. «**تطرحين أسئلة أكثر مما ينبغي! ألا يمكنكِ أن تفعلي كما أقول ولو مرة واحدة؟**». ولكن كيف تفعل وقلبها يطرح تلك الأسئلة بإصرار شديد؟

- «ولكن...»، بدأت تقول بحرص.

ارتفعت إصبع الفاون في تحذير خافت.

- «لا مزيد من الأسئلة. كما اتفقنا، أليس كذلك؟».

«**أتفعلين كل شيء أطلبه منكِ**»، كل شيء... التقطت أوفيليا نفسًا عميقًا. كان التهديد يسكن تلك الكلمات، ولكنها لم تملك خيارًا، أليس كذلك؟

- «بابه مُوصد».

صار الذئب يوصد باب حجرته بالمفتاح طوال الوقت منذ بدأ يترك ابنه هناك.

- «في هذه الحالة...»، قال الفاون، مبتسمًا بشقاوة، «فأنا مُتأكّد أنك تذكرين كيف تصنعين بابك بنفسك».

كانت قطعة الطبشور التي التقطها من الهواء بيضاء اللون كتلك التي سبق أن قدّمها إلى أوفيليا كي تدخل إلى عرين الرجل الشاحب.

مكتبة ياسين

35

الذئب الجريح

كان بيدال يغسل وجهه المُمزّق أمام مرآته حين سمع وقع حوافر في الخارج. استطاع اثنان من جنوده أن يعودا من الغابة، ولكن أحدًا لم تواته الجرأة على أن يخبر الكابتن بأن باقي الجنود قد صاروا جثثًا هامدة مُمدّدة في الرقعة الخالية وسط الأشجار، وبأن دماءهم قد سالت على أغصان السراخس، بينما كانت مرثيديس التي مزّقت جسده كالخنزير حيةً طليقة.

تفحّص بيدال الابتسامة المتنافرة التي رسمتها مرثيديس على وجهه. كان سكين المطبخ قد مزّق جلده بالكفاءة التي يقطع بها الخضراوات. حاول أن يفتح فمه، فإذا بدفقة من الألم ترغمه على إغماض عينيْه، ولكنه ما زال يرى مرثيديس ممسكة بذلك النصل الرفيع الذي يبرز من يدها وكأنه إبرة الدبور.

تركت إحدى الخادمات إبرة الخياطة المعقوفة التي طلبها على مكتبه. من الفرجْح أن مرثيديس كانت تستخدمها في رفو الثياب. التقط بيدال الإبرة وغرزها في شفته السفلى. كانت كل درزة تجعله يجفل، ولكنه مضى يسحب الخيط الأسود من خلال اللحم مرة تلو أخرى، حتى يتخلّص من تلك الابتسامة العريضة التي جعلت وجهه يستهزئ به لفرط حماقته.

مضت أوفيليا تنصت إلى أهاته من خلال الباب الذي فتحه طبشور الفاون في أرضية حجرتها. بل إنها استطاعت أن ترى الذئب واقفًا أمام مرآته. وتحت قدميها مباشرةً، مال سلم غير مُستخدم على بعض الصناديق التي تراكم فوقها الغبار في خلفية

مكتبة ياسين

الحجرة. لقد حرص الفاون على أن تصل أوفيليا إلى مهد أخيها بسهولة. استقرّ السلم على بعد خطوات قليلة من المهد، واستطاعت أوفيليا أن تسمع صوت أخيها يبكي برقّةٍ، مع أنها عجزت عن رؤيته. ربما كان ينادي أمّه، أمهما... «**لا تفكّري فيها يا أوفيليا! تذكّري أين أنتِ!**».

انتعلت حذاءها وارتدت معطفها الصوفي الداكن فوق ثياب النوم.

لم يبذ على الذئب أنه قد سمعها وهي تنزل على السلم. كان لا يزال واقفًا أمام مرآته، وظهره إليها، بينما راح يتأوّه في ألم. تراءى قميصه مُضرجًا بالدماء. لم تدرِ أوفيليا من جرحه، ولكنها امتلئت لذلك الذي اجترأ على مهاجمته، كائنًا من كان، على الرغم من غضب الذئب الذي استطاعت أن تلمسه. ما كادت تنزل من السلم إلى الأرض حتى سارعت بالتسلّل أسفل مكتب الذئب كي تتوارى عن عينيْه في حال تلفّت حوله.

ولكن بيدال لم يلتفت بعد.

كان يتفحّص العمل الذي أنجزته الإبرة والخيط، إذ طمسا الابتسامة العريضة التي رسمها سكين المطبخ، سكين مرتيديس. لم تُظهِر المرآة إلّا خطًا رفيعًا داميًا، مُطرزًا بالخيط الأسود، يمتدّ من طرف فمه الأيسر إلى وجنته. ضمّد الجرح مُتحقّقًا من وجهه مرةً أخيرة. وسار مُتّجهًا إلى مكتبه.

لم تجرؤ أوفيليا على التنفّس. وبينما راح بيدال يصبّ لنفسه كأسًا من البراندي، كاد يلامسها بساقيْه. أطلق شقيقها صيحة واهية من المهد، في حين تأوّه الذئب عندما تسرّب الشراب من وجنته عبر الضمادة. سمعته أوفيليا وهو يصبّ لنفسه كأسًا أخرى ثم... ثم يضعه فوق المكتب.

مكتبة ياسين

أحسّت أوفيليا ببرودة في قدميها ويديها من فرط الخوف.

الطبشور. أين طبشور الفاون؟

كان الطبشور قد استقرّ فوق المكتب، بين أوراق بيدال الذي التقطه ساحقًا إياه بين أصابعه وهو يمسح الغرفة بعينيه مُفتشًا عن الدخيل الذي ترك الطبشور هناك.

أوه، كم خافت أوفيليا أن يفضحها قلبها الذي راح يخفق بقوة!

ربما سمعه بيدال.

استلّ مسدسه، وحام حول المكتب، ثم ألقى نظرة خاطفة تحته. ولكن أوفيليا كانت سريعة، فلم يرَ الذئب شيئًا، كما قدّم إليها أخوها المساعدة بالشروع في البكاء. وضع بيدال المسدس في حزامه مقتربًا من المهد. ابنه... أيسيطر على أفكار الطفل مثلما سيطر أبوه وما زال يسيطر على أفكاره؟ أيتوق الابن إلى إرضاء والده ولو مات في سبيل ذلك؟

- «كابتن! هل لي بإذنك؟».

لم يمكنه أن يتذكّر اسم الجندي الذي اندفع إلى الحجرة مهرولًا، فهم يلقون حتفهم أسرع مما ينبغي.

- «ماذا؟».

كلهم يعرف إلى أي مدى قد تصل صرامة العقاب على إزعاج الكابتن في حجرته.

- «لقد عاد سيزانو، جريحًا».

- «جريحًا؟»، ما زال بيدال يمسح الغرفة بعينيه.

كان ابنه يبكي وكأن هناك شيئًا أو أحدًا يزعجه في نومه.

«**أرجوك!**»، توسلت أوفيليا. «**سوف تفضح أمري يا أخي**». ولكن كوم الجوالات الخاوية المصنوعة من

مكتبة ياسين

النسيج الخشن أبقاها في مأمن من نظرات الذئب. سمعت صوته وهو يسير إلى الباب أخيرًا.

لم تترك أوفيليا مخبأها حتى سمعت وقع خطواته على الدرج في الخارج. ترك بيدال على المكتب كأسًا نصف خاوية من البراندي. ما ذكّر أوفيليا بكؤوس أخرى، تلك التي كان يعدّها دكتور فيرَيرا لمساعدة أمّها على النوم. دسّت يدها في جيبها. أجل، ها هي ذي. قارورة الدواء التي أخذتها من حجرة أمّها. صبّت في الشراب قطرات قليلة، خشية أن ينتبه الذئب إلى مذاق الدواء لو أنها أضافت إلى الكأس قدرًا أكبر مما ينبغي. دكتور فيرَيرا، أمّها، أبوها، مرثيديس... ربما كانوا جميعًا ينتظرونها في المملكة السفلى التي حدّثها الفاون عنها.

كل ما ينبغي لها عمله أن تنفّذ جميع ما طلب منها الفاون، ثم تراهم كلهم مرة أخرى.

جاءت صرخة حادة أخرى من المهد. إنه أخوها. لم يسمّه أحدهم بعد. وكأن أمّها قد أخذت اسمه الحقيقي معها إلى القبر. تذكّرت أوفيليا كيف تحدّثت إليه وهو لا يزال في بطن أمّها. لقد حذّرته من هذا العالم. أجل، لقد حذّرته.

مالت إلى المهد وأخذت الطفل، الذي كان في غاية الصغر، بين ذراعيها.

مكتبة ياسين

36
أخت وأخ

كم حدّق إليه الجميع حين دلف إلى قاعة الطعام! ضاع المجد، والشعور بأنه لا يُهزم. مع أنهم قد اجتمعوا في المرة الأخيرة للاحتفال بالانتصار الذي تحقّق لهم في الغابة. شعر بيدال بالضمادة الدامية على خده كما لو كانت وسمًا. إنه إخفاق... محفور على وجهه بسكين مطبخ.

جلس سيزانو على مقعد بالقرب من موقد النار وقد انكمش جسده الثقيل وتراخى.

- «أين غارثيس؟».

هزّ سيزانو رأسه، فجلس بيدال على المقعد المجاور.

- «كم كان عددهم؟».

- «خمسين. على أقل تقدير. وحدنا هربنا أنا وغارثيا. أما الباقون فلم يتمكّنوا من الهرب».

كاد سيزانو لا يقدر على النظر إليه.

- «حتى مواقع المراقبة لا تستجيب»، قال الجندي الذي أبلغه بالأخبار المشؤومة. ما زال بيدال لا يتذكّر اسمه.

- «كم رجلًا تبقّى لنا؟».

- «عشرون. أو وربما أقل».

أخذ بيدال يتحسّس مُفتّشًا عن ساعة الجيب، غير أنه قد تركها على مكتبه. تساءل رغمًا عنه إن كانت الساعة قد أعلنت موت أبيه الوشيك بدقّات أعلى صوتًا. حاول الابتسام مستهزئًا بالفكرة، ولكن الألم الذي تسبّبت فيه المحاولة كان تذكرة أخرى تحدّثه بمدى سوء الحال.

مكتبة ياسين

لو لم يتمكّن من الإيقاع بمرثيديس، فسوف يقتل الفتاة.

*

ما زالت أوفيليا تقف في حجرة بيدال وهي تحمل أخاها. كان في غاية الصغر، والدفء، بوجهه الناضر الغضّ تحت القبعة البيضاء التي صنعتها أمّهما من أجله، بينما نظرت عيناه الصافيتان الواثقتان إليها.

أخت. أخ.

لم يسبق لأوفيليا أن كانت أختًا، لم تكن سوى ابنة، وفتاة خرّبت ثوبها الجديد في الغابة، ما زالت لا تدري ما الذي تعنيه علامة الهلال على كتفها اليسرى.

«**أخت**». لقد بدّلت الكلمة كل شيء.

- «نحن ذاهبان... معًا. لا تخَف»، همسَت في سمع أخيها.

أطلق أخوها شكوى خجلى. «**الأمر برمّته جديد عليّ**»، خُيّل إلى أوفيليا أنها قد سمعته يقول. «**أرجوكِ، احميني يا أختي**».

- «لن يقع لك شيء»، ضمّته إلى كتفها بقوة.

ما أصعب الوفاء بذلك الوعد.

وبينما هي سائرة إلى الباب سمعت صوت والد الطفل آتيًا من الدّرج. أوه، لماذا لم تغادر قبل لحظة؟

- «عندما يرجع باقي أفراد الفرقة، اطلب منهم أن يقدّموا إليّ تقريرًا في الحال». جاء صوت الذئب قريبًا. أقرب مما ينبغي.

توارت أوفيليا خلف الباب. «**لا تبكِ يا أخي!**»، توسّلت إليه في صمت. «**لا تفضح أمرنا!**». مع أنه لم ينصت إلى توسّلاتها بشأن حياة أمهما.

- «اطلب التعزيزات عبر اللاسلكي»، سمعت الذئب

مكتبة ياسين

يقول. «الآن».

وإذا به هناك، في الحجرة، مرة أخرى. «**اكتمي أنفاسكِ يا أوفيليا**».

مشى الذئب إلى المكتب ووضع في جيبه الساعة التي كانت على مقربة من الكأس. ثم مدّ يده ليتناول كأس الشراب. وفي تلك اللحظة، عندما التفت بيدال وتجرّع البراندي، تسلّلت أوفيليا إلى الخارج من خلف الباب. استغرق أخوها في نوم مطمئن بين ذراعيها. أما الثقة التي وضعها الطفل بأوفيليا، فلقد يسّرت عليها الوثوق بحظّها. غير أن حظّها لم يستمرّ، فما كادت أوفيليا تتجاوز الباب المشرع حتى اهتزّت جدران الطاحونة تحت وطأة الانفجار. جاء الدوي من الباحة. وإذا بريق اللهب يمزّق عباءة الليل ويلوّن الجدران المحيطة بأوفيليا بدرجات الأحمر والأبيض الساطعة. دار الذئب على عقبيه، فرآها تقف على أعتاب الحجرة، مُجفّدة كالغزال الواقع في شراك الصيد، وهي تحمل ابنه بين ذراعيها.

- «اتركيه!»، جاء صوته سكينًا، مطرقةً، رصاصةً.

بادلته أوفيليا النظر، وهزّت رأسها. وذلك كل ما تمكّنت من فعله.

قطع الذئب خطوة نحوها، غير أنه مضى يترنّح في سيره، ولم يقدر على الاحتفاظ بتوازنه إلا بمشقة، فأرسلت أوفيليا صلاة شكر إلى دكتور فيزَيرا لأنه قد شملها بالحماية من قاتله.

ثم دارت على عقبيها، وانطلقت راكضة.

مضى بيدال في أثرها، وإن لم يكد يتجاوز الباب. أحسّ برأسه طافيًا. ماذا دهاه؟ لم يرتب في البراندي، فهو أشدّ كبرياءً من أن يأخذ بعين الاعتبار فكرةً مفادها أن طفلة قد خذرته. كلا، بل إنها الجراح

مكتبة ياسين

التي أصابته بها الساحرة الأخرى. سوف يعثر عليها ويقتلها أيضًا، ولكن دور الفتاة قد حان أولًا. لقد عرف أنها سوف تجرَ عليه سوء الحظ في اللحظة التي ترجُلت فيها عن السيارة. كانت عيناها أشبه بالغابة، ووجهها مفعمًا بالصمت. إنه لا يطيق الانتظار حتى يكسر عنقها.

كانت لا تزال على الدرج عندما خرج بيدال متعثرًا من حجرته، ولكنه لم يتمكّن من سحب مسدسه إلّا بمشقّة، بينما تجاوزت الفتاة الباب قبل أن يتمكّن من التصويب إليها. وعندما استطاع أن ينزل الدرج ويخرج أخيرًا، رآها تختفي تحت الأشجار. لماذا أخذت ابنه؟ أتحمله إلى الفتمرْدين حتى يقتلوه ثأرًا لموت أمّها؟

كلا. لأن الفتمرْدين قد جاءوا إلى الطاحونة. واندلعت النار في الشاحنات والخيام، وصار الدخان والنار والرجال المتقاتلون في كل مكان. تراءت خيالات الرجال سوداء مثل قصاصات الورق أمام ألسنة اللهب الحمراء. كان يجب على بيدال أن يقتل الفتاة. ومرثيديس أيضًا. لأنها قد وفت بوعدها لأوفيليا، وعادت إليها برفقة أخيها ورجاله. غير أن حجرة أوفيليا كانت خالية حين وصل إليها پيدرو ومرثيديس التي راحت تنادي اسم أوفيليا، ولكن ما من مجيب. لم يجدوا إلّا معطفها الأخضر الشاحب، وخطوط باب زسم بالطبشور الأبيض على الأرض.

مكتبة ياسين

مکتبة یاسین

صدى القتل

في مرة من المرات، أمر نبيلٌ خمسة من جنوده بإلقاء القبض على امرأة تُدعى روثيو، اتُّهمها بأنها ساحرة. أمرهم بإغراقها في بركة الطاحونة، بأعماق الغابة التي عاشت فيها. اقتضى الأمر أن يسحبها رجلان إلى الماء البارد، وأن يُغرقها رجلٌ واحد حتى انقطعت أنفاسها. كان ذلك الجندي يُدعى أومبرتو غارثيس.

سبق لغارثيس أن قتل، وإن لم يسبق لسيّده أن أمره بقتل امرأة قطّ. كانت مهمة مُروِّعة، وإن وجدها في الوقت نفسه مثيرة. لعلّ السبب يكمن في جمال الساحرة.

لم تكُن من عادة غارثيس أن ينزعج من القتل، ولكنه فوجئ بأن النوم قد جافاه ليلتذاك.

عجز عن النوم طوال عشرة أيام، فهو ما إن يأوي إلى فراشه حتى يحسّ بالماء البارد على بشرته ويرى شعر الساحرة طافيًا على سطح البِركة مرة أخرى. ولمّا استحوذت عليه تلك الرؤى مرة أخرى في الليلة الحادية عشرة، نهض غارثيس من فراشه، وسرج جواده، ثم عاد إلى الطاحونة عبْر الغابة التي أنارها القمر على صهوة الجواد.

تمنّى غارثيس أن يتحقّق له السلام لو رأى مياه البِركة الساكنة، وتأكّد من اختفاء جثة الساحرة عن الأنظار كما لو أنها لم تكُن على قيد الوجود يومًا. ولكنه حين اقترب من الماء تمنّى لو أنه لم يغد إلى البِركة قطّ. كان الماء أسود كالخطيئة التي اقترفها، بينما تراءى وكأن الأشجار تهمس بحكمها في جوف الليل: «**قاتِل!**».

من المؤكّد أنها كانت ساحرة. أليس هذا دليلًا؟ لا

مكتبة ياسين

يمكن أن تكون تلك إلّا واحدة من أفاعيلها! الأشجار الهامسة، والرؤى، والأحاسيس التي استحوذت عليه... لقد أصابته الساحرة بلعنة. كانوا على حقٍّ في قتلها. كم كانوا على حق!

شعر غارثيس بقلبه يتخفّف من الذنب، وزال عنه كل شعور بالندم والنفور من نفسه. ربما كان عليه أن يغدو واحدًا من الصائدين الذين يطهّرون البلد من الساحرات. زد على ذلك أن الكنيسة تدفع إليهم أجورًا سخية. تراءى له أن المرة القادمة ستكون أيسر، مع الأخذ في الحسبان أنه قد قتل ساحرة بالفعل. أجل. يمكنه أن يفعلها مرة أخرى. وأخرى.

ضحك. ودار على عقبَيه حتى يمشي عائدًا إلى جواده.

ولكنه عجز عن الحركة.

ذلك أن الوحل قد أطبق على بيادته بقوة، وكأن أصابع تمسك بها.

اللعنة عليها! أيقن أنها هي.

- «سأفعلها مرة أخرى!»، رفع صوته فوق الماء الصامت. «أتسمعينني؟».

غاصت بيادته على عمق أكبر في الوحل، وبدأ يحسّ في يدَيه بحكّةٍ. رفع يدَيه قرب وجهه، فإذا بشرته تكتسي بالبثور، والأغشية تمتدّ بين أصابعه، تلك الأصابع استخدمها حتى يُغرِق الساحرة.

صرخ مذعورًا، رافعًا صوته إلى الحدّ الذي أيقظ الطحّان وزوجته. وإن لم تواتهما الجرأة على الخروج لاكتشاف السبب في كل هذا الصخب.

صرخ غارثيس مرة أخرى. ولكن صوته جاء الآن مُتبدّلًا. وانسلّ من حلقه نقيق غليظ، بينما التوى عموده الفقري حتى سقط على ركبتَيه، وغاص في

مكتبة ياسين

الوحل بأصابعه الفتصلة فيما بينها بالأغشية.

ثم قفز إلى مياه البركة الموحلة التي أغرق فيها الساحرة.

مكتبة ياسين

37
المهمة الأخيرة

في هذه المرة لم تأت الجنيّة كي ترشد أوفيليا، التي صار عليها أن تجد طريقها عبر المتاهة. لطالما كانت أصعب المهمّات أخرها.

ظلّت التفجيرات المدوية بالطاحونة تمزّق صمت الليل، ولكن شقيق أوفيليا بقي مُطمئنًا بين ذراعيها، فتسلّل إلى قلبها بعضٌ من ذلك الاطمئنان. أيقنت أن الذئب قادم في أثرها، وإن لم تستطِع رؤيته من خلال الدخان الآتي من الطاحونة. ذئب... كلا، لم يكُن ذئبًا. لقد أخطأت حكاياتها الخرافية لأنها أسبغت على الشرّ هيئة كائنٍ بريٍّ بديع. أما إرنستو بيدال والرجل الشاحب، فكلاهما بشرٌ يتغذّى على القلوب والأرواح لأنه قد خسر القلب والروح.

رحّبت جدران المتاهة بأوفيليا في ما يشبه العناق المألوف. أما الدوائر ذات الأظر الحجرية التي نسجتها المتاهة حول أوفيليا وأخيها فسرعان ما بثّت في نفسها شعورًا بالأمان، على الرغم من مُلاحقها. «**لن يعثر عليكِ هنا**»، حسبت أن الأحجار تهمس. «**سوف نخفيك عن عينَيه**».

ولكن بيدال اقترب، اقترب إلى الحدّ الذي سمح له برؤية الفتاة تمزّ من خلال القوس الحجري وتدخل إلى المتاهة، مع أنه ما زال يترنّح في سيره، مُتأثّرًا بقطرات فيرَيرا. كانت أوفيليا سريعة، صغيرة، ولكنها تحمل أخاها. أضف إلى ذلك أن هواء الليل قد ساعد بيدال على تصفية رأسه الذي اكتنفه الضباب. التوت أصابعه حول الزناد وهو ماضٍ يتعثّر عبر الدروب العتيقة، ويتتبّع وقع قدمي أوفيليا كما يتتبّع كلبُ الصيد رائحة الغزال. ولكنه كلّما حسب

مكتبة ياسين

نفسه قد اقترب وجد ركنًا اخر، منعطفًا اخر، جدارًا أخر... وكأنه هو نفسه بات الفريسة التي وقعت في شرك لا مفرَ منه.

«**أين هي؟**»، هزّ رأسه حتى يقشع الضباب، ومضى إلى الأمام يتعثّر في سيره. أمسك المسدس بإحدى يديه، وبيده الأخرى راح يستند إلى الجدران الفتآكلة. «**لماذا جاءت إلى هنا، دون باقي الأمكنة؟**». تمهّل حتى يلتقط أنفاسه، منصتًا إلى وقع خطوات الفتاة. ها هي ذي! في غاية الخفة، في غاية السرعة... ولكن أنفاسها أصبحت ثقيلة الآن. لا عجب في ذلك، لأنها كانت تحمل ابنه.

استطاعت أوفيليا أن تسمع وقع خطوات بيدال آتية من خلفها. وإن تأكّد لها أنها صارت قريبة من فتحة البئر والدّرج، قريبة جدًا. لا بدَ أن البئر تقع بعد ذلك المنعطف. انعطفت أوفيليا، وإذا هي تجد نفسها أمام جدار.

طريق خطأ! لقد أخطأت الطريق. وضاع كل شيء.

غير أن المتاهة قد ترقّبت مجيئها طويلًا جدًا، وحين دارت أوفيليا على عقبيها لتحدّق في عجزٍ إلى الدرب الذي جاءت منه، بدأت الأحجار خلفها تنزاح من أمكنتها. نظرت من فوق كتفها، فرأت الجدار الذي سدَ طريقها ينشقّ: وجذور الأشجار تمتدّ إلى الفجوة الفاغرة وكأنها مخالب خشبية، وتُخلي الدرب من أجلها. لامست الجذور ذراعي أوفيليا وساقيها وهي تهرول من خلال الثغر. وهناك وجدت الرقعة الخالية التي كانت تفتّش عنها، وفي وسطها البئر والدّرج المفضي إلى القائم الحجري، هناك حيث التقت الفاون لأول مرة.

ما كادت أوفيليا تمز مع أخيها حتى انغلق الجدار خلفهما، فلم يجد بيدال شيئًا سوى الجدار المصمت

مكتبة ياسين

عندما وصل إلى هناك. تلفّت حوله مُستنكرًا، بقميصه المضرج بالدماء السائلة من الجرح الفاغر الذي تركه سكين مرثيديس. سمعته أوفيليا وهو يلعن على الجانب الآخر من الجدار الحجري. كادت لا تجرؤ على التقاط أنفاسها، خشية أن ينشقّ الجدار سامحًا له بالمرور، ولكن الأحجار لم تتحرّك. تلاشى وقع خطواته، وما عادت أوفيليا تحسّ إلّا بضربات قلب أخيها من خلال القماش الرقيق الذي صُنعت منه ثياب نومها، وبأنفاسه الدافئة على كتفها.

سلامٌ.

حبٌّ.

- «أسرعي يا صاحبة السمو، أعطيني إياه».

تلفّتت أوفيليا.

وإذا الفاون واقف على الجانب الآخر من البئر، وقد رسم القمر إطار خياله بخطٍّ من الفضة. شعرَت أوفيليا بالتردُّد مع كل خطوة تقطعها وهي تسير إليه وتتجاوز السور الحجري الخفيض المحيط بالبئر.

- «لقد تعالى القمر في السماء يا صاحبة السمو!».

لم يسبق لأوفيليا قطّ أن رأت الفاون مبتهجًا إلى ذلك الحدّ.

- «يمكننا أن نفتح بوابة عبور!»، صاح مشيرًا إلى البئر، وقد أمسك بيده الأخرى خنجر الرجل الشاحب.

- «لماذا تمسك بذلك؟»، أحسّت أوفيليا وكأنما النصل البارد قد لمس بشرتها. بينما أطلق الفاون قرقرة خافتة.

- «أه، ذلك...»، ربّت على الخنجر برقة. «حسنًا...»، جاء صوته عفويًا مُعتذرًا في أن. «لا تنفتح بوابة

مكتبة ياسين

العبور ما لم نقدّم دم شخص بريء. قطرة واحدة من الدم وحسب».

حاول أن يجعل كلمة «دم» تبدو صغيرة، فلوّح بيديه صارفًا حمولة الكلمة.

- «وخزة إبرة، وهذا كل شيء!»، أردف، وهو يخز راحة يده لاهيًا بطرف الخنجر الحاد.

- «إنها...»، قال راسمًا في الليل دائرةً، علامةً على الاكتمال. «إنها المهمة الأخيرة».

بردٌ. أحسّت أوفيليا ببرد شديد.

- «والآن!»، أشار الفاون إلى أخيها، بينما تتراقص أصابعه بلهفة وكأنها سرب من الذباب. «دعينا نعجّل بالأمر! فالقمر لن ينتظر».

- «كلا!»، تراجعت أوفيليا خطوةً إلى الوراء وهي تهزّ رأسها، بينما ضمّت الطفل إلى صدرها بقوة بالغة، حتى إنها خشيت أن توقظه للحظةٍ. ولكنه ظلّ نائمًا بهدوء وكأن ذراعيها آمَن مكان على وجه الأرض.

انحنى الفاون إلى الأمام وقد ضاقت عيناه الخليقتان بالقطط غضبًا ووعيدًا.

- «لقد وعدتِ بأن تطيعيني!»، كشّر عن أسنانه بزمجرة مُنذِرة.

- «أعطيني الطفل! أعـــطيـــني الـــطـــفل!».

- «كلا! أخي باقٍ معي». رمقته أوفيليا بأشدّ نظرة حاسمة تمكّنت من استجماعها. إنه الشيء الذي لا تملك سواه: أن تصدّ الفاون بعينيها، وتُظهر لعينيه أنها لن تعدل عن ردّها، مع أن كل شيء فيها يرتجف.

أطلق الفاون قرقرة أخرى، وإن جاءت تنمّ عن مفاجأته في هذه المرة. خفض الخنجر مائلًا برأسه ذي القرنين حتى ينظر إليها.

مكتبة ياسين

- «أتضحّين بحقوقك المقدسة من أجل هذا الصغير الذي لا تكادين تعرفينه؟».

- «نعم». تراءى وجه الفاون ضبابيًا من خلال دموع عينيها. هل طفرت الدموع من عينيها لتوّها، أم أنها كانت هناك منذ مقتل أبيها؟ ما عادت تدري. «نعم، أضحّي بها»، همهمت وهي تضمّ خدّها إلى رأس أخيها الصغير الذي كان في غاية الدفء تحت القبعة البيضاء التي استغرقت أمّها ليالي كثيرة كي تصنعها.

- «أتتخلّين عن مملكتك من أجله، وهو الذي كان سببًا في هذه التعاسة التي حلّت بكِ؟». في هذه المرة، لم يأت صوت الفاون غاضبًا على الإطلاق. وإنما جاءت كل كلمة وكأنها بيان يخبر العالم بذلك القرار الغريب الذي اتّخذته فتاة تُدعَى أوفيليا. «أي إساءة!»، أردف قائلًا، وهو يتحدّاها مرةً أخرى.

- «نعم، أتخلّى عنها»، ردّدت أوفيليا.

«**نعم، أتخلّى عنها**»... كانت تلك هي الكلمات التي سمعها بيدال عندما وصل إلى الرقعة الخالية أخيرًا، بخطى مُترنّحة. ربما أرشده صوت أوفيليا إلى الطريق، أو لعلّه خطاب الفاون الغاضب. أو ربما كانت المتاهة قد أُقيمَت لذلك الغرض وحسب: حتى يلعب كل منهم دوره في قصة كُتِبت في مرة من المرات، منذ أمدٍ بعيد.

لم يستطع بيدال أن يرى الفاون على الإطلاق. ربما أعماه ظلامُ نفسه عن أشياء كثيرة جدًا. أو ربما كان قد اقتنع بكثير من لغو الكبار حتى لم يعُد لديه مُتّسع لرؤية أي شيء سواه. ولكن لا يهمّ، فما يهمّ أنه صار على بعد خطوات قليلة من الفتاة التي بدت وكأنها تتحدّث إلى نفسها.

- «نعم، أتخلّى عنها»، قالت أوفيليا مرة أخرى،

مكتبة ياسين

فجاء صوتها نشيجًا مُنكسرًا. ومضت مبتعدةً عن الخنجر، مبتعدةً عن البئر، مبتعدةً عن الفاون، غافلة عن الرجل الذي يقف على بعد خطوات قليلة خلفها.

- «لتكُن مشيئتك يا صاحبة السمو»، باعد الفاون بين يديه مُنهزمًا، وأصابعه ترسم مستقبلها في الليل.

وبينما هو ما زال يتلاشى وسط الظلال، أحسّت أوفيليا بيدٍ تمسك بكتفها. وإذا بالذئب يقف خلفها، والضمادة على وجهه تبدو كالوشم المضرج بالدماء. أخذ شقيقها من بين ذراعيها، مُحدّقًا إليه، وكأنه يتحقّق من أنها لم تمسسه بأذى.

«**لقد حميتُها**»، أرادت أوفيليا أن تصرخ. «**كان الفاون يرغب في دمها! ألم تسمع؟**»، ولكنها حين التفتت، كان الفاون قد اختفى، وصارت وحيدة مرة أخرى، في وحدة مطبقة، الآن وقد فقدَت دفء شقيقها الذي كان يطمئنها.

- «كلا!»، صرخت. «كلا!».

أحسّت بيديها في غاية الخواء، وبدا لها شيئًا مُروّعًا أن ترى الطفل بين ذراعَي أبيه، حتى تمنّت للحظةٍ لو أنها قد أعطته للفاون، على الرغم من كل شيء. ولكن ماذا يهمّ؟ كلاهما وحشٌ مُتعطّش إلى دماء الآخرين.

تراجع بيدال خطوة إلى الوراء، والطفل بين ذراعيه. لم يبذل جهدًا في التصويب.

أطلق النار على صدر أوفيليا من دون أن يرفع حتى يده.

سالت الدماء على ثياب النوم وكأنها زهرةٌ تتفتّح، بينما وضع بيدال المسدس في حزامه ومضى مبتعدًا مع شقيقها.

مكتبة ياسين

رفعت أوفيليا يدها، وهي تراقب الدماء تقطر من بين أصابعها. خارت ركبتاها، فسقطت إلى جوار البئر وهي تضغط بيدها على جرح الرصاصة، وإن تدفّقت الدماء بغزارة أشدّ مما يسمح بوقف النزيف. رسمت الدماء على ثياب النوم أشكالًا حمراء، وسالت على ذراعيها الممدودتين بعجزٍ قرب فوهة البئر، بينما الهواء الصاعد من أعماق البئر يبثّ برودةً في بشرتها. ظلّت الدماء تقطر من بين أصابعها وتغوص عميقًا في رحم الأرض.

لم يسبق أن انتهت واحدة من حكاياتها الخرافية نهاية كهذه. كانت أمّها على حق: فليس للسحر وجود. لم تتمكّن أوفيليا حتى من إنقاذ أخيها. وضاع كل شيء. خفتت أنفاسها. وارتعشت: وكانت الأرض في غاية البرودة...

مكتبة ياسين

38
اسم أبيه

وجد بيدال طريق الخروج بسهولة. إذ لم تحاول المتاهة أن تستبقيه في الداخل. لقد فعل ما كُتب عليه، وإن لم يُقدّر له أن يلقى مصيره في دوائر المتاهة اللامتناهية. ذلك أن العالم سوف يتولّى أمره في الخارج.

كانوا في انتظاره: مرثيديس، وشقيقها پيدرو، ورجال الغابة، إذ رسموا خطّ النهاية في طريق بيدال بأجسادهم، وقد اصطفّوا جنبًا إلى جنب خارج المتاهة، في نصف دائرة بدت وكأنها تعكس شكل القوس الحجري. لقد حانت اللحظة أخيرًا. شعر بيدال وكأنه قد عاشها ألف مرة في أحلامه. اللحظة التي يثبت فيها أنه ابن أبيه، ويُظهر لابنه مغزى حياة الرجل.

خرج بيدال من تحت القوس الحجري، وبادل الفتمرّدين نظراتهم المعادية، واحدًا تلو الآخر، حتى عثرت عيناه على مرثيديس، التي لم تتحرّك عندما سار إليها حاملًا ابنه. وقف پيدرو إلى جوارها. لم يدر بيدال قطّ أنه كان يقاتل الأخت والأخ معًا. مدّ ابنه إلى المرأة التي جرحته، ولكنها لم تقتله.

- «ابني». كان العالم في حاجة إلى سماعها مرةً أخرى. لا بد أن يحيا الطفل، لأن بيدال سوف يحيا من خلال ابنه، كما عاش أبوه من خلاله، مع كل نفس من أنفاسه.

تقبّلت مرثيديس الطفل. طبعًا، فهي امرأة، ولن تمسّ طفلًا بأذى، حتى لو كان طفله هو.

ببطء –بالوتيرة التي سارت بها طقوس حياته– التقط بيدال الساعة من جيبه وضمّها بيده. «ها

مكتبة ياسين

هي ذي»، فكّر بيدال. «**النهاية المجيدة**». كان على أهبة لتجاوز الحافة. وعلى الرغم من جنوده القتلى، والطاحونة المحترقة التي صبغت السماء بالأحمر، لم يشعر بالخوف.

بل إن روح أبيه كانت تملؤه، وتكمله.

تراجعت مرثيديس إلى جوار أخيها وهي تحمل الطفل بين ذراعيها، بينما حدّق بيدال إلى وجه الساعة الفخظم، وعقاربها التي مضت تعدّ لحظاته الأخيرة بدقّة، مثلما حسبت الأعوام الماضية كلها منذ مقتل أبيه. ما زال قادرًا على سماع دقّاتها، حتى بعد أن قبض يده على الفضة.

ابتلع بيدال ريقه كاتمًا الخوف الذي حاول الخروج. ازدرد خوفه، لن يروا أثرًا له في وجهه المتصلّب.

- «أخبروا ابني...»، التقط نفسًا عميقًا. لم يكُن الأمر بالسهولة التي تخيّلها وهو يتطلّع إلى هذه اللحظة أمام المرآة، ويعبث مع الموت، ممسكًا بالشفرة في يده. «أخبروا ابني بالساعة التي مات فيها أبوه. أخبروه بأنني...».

- «كلا!»، قاطعته مرثيديس وهي تضمّ ابنه إلى صدرها. «لن يعرف اسمك».

هربت الدماء من وجه بيدال. وشعر بالرعب لأول مرة في حياته. إنها اللحظة التي طالما حلم بها، اللحظة التي تدرّب عليها أمام المرآة كل صباح. شرف الموت. لا يمكن أن يخفق الأمر إلى هذا الحد، لا يمكن. انطلق ذهنه يفكّر سريعًا.

وإذا پيدرو يرفع مسدسه ويطلق النار على وجه بيدال. حطّمت الرصاصة عظمة الخدّ ومزّقت العصب البصري ماضيةً في طريقها إلى الدماغ. استقرّت في مؤخّر الجمجمة. وطفرت من الجرح قطرةٌ واحدة من الدماء. جرح في غاية الصغر، ولكن

مكتبة ياسين

الموت قد اتّخذ لنفسه عشًا في ذلك الجرح.

خرّ بيدال عند أقدام الرجال الذين جاء لاصطيادهم مُطلِقًا آهة أسف. وهكذا، ذهب بيدال.

في حين بدأ ابنه يبكي بين ذراعَي مرثيديس.

مكتبة ياسين

الفتى الذي هرب

في مرة من المرات، وإن لم يكُن ذلك منذ أمد بعيد، عاش آكلُ أطفال في غابة عتيقة. أطلق عليه القرويون، الذين كانوا يجمعون الحطب تحت الأشجار تحسُبًا للشتاء، اسم «الرجل الشاحب». ولقد كثُر ضحاياه حتى صارت أسماؤهم تغطّي عدة جدران في الأروقة التي ابتناها لنفسه تحت الأرض، تحت الغابة. كان الرجل الشاحب يصنع من عظامهم قطع أثاثٍ مرهفة مثل أطرافهم. أما صرخاتهم فكانت هي الموسيقى التي تصاحب ولائمه على تلك المائدة حيث قتل كثيرين منهم.

ضمُمت الأروقة الملتوية في عرين آكِل الأطفال لتجعل المطاردة أكثر متعة. ربما اتُسم الأطفال بسرعةِ مفاجئة، كما عرف الرجل الشاحب، وهو الذي كان من البشر في يوم من الأيام، غير أن قتلَه الأطفال قد جعله شيئًا آخر، لا وجه له ولا غفر، شيئًا فريدًا من نوعه.

احترف القسوة منذ كان فتى صغيرًا. أطلق عليه الناس اسم «پاليدو»(12) حتى في ذلك الوقت، لأنه كره أن يبقى تحت أشعة الشمس، ولذا كانت بشرته تبدو شاحبة كالقمر الندي طوال الوقت. في البدء تدرّب على الحشرات، فالطيور، فقطط أمّه.

قتل أول طفل له وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة بعد. إذ قتل أخاه الأصغر، الذي شعر نحوه پاليدو بالحبّ والحسد معًا.

وما هو إلّا وقت قصير حتى التحق بالعمل لدى كاهن في محاكم التفتيش الإسبانية، تلك الأداة الفرؤعة التي استخدمتها الكنيسة الكاثوليكية لملاحقة وقتل كل من شكّك في مُسلّماتها. علّم

مكتبة ياسين

الكاهنُ پاليدو أشدَ الأمور استئثارًا بالفضول عن التعذيب، وكثيرًا من أساليب القتل. وبعد ثلاثة أعوام، تفوّق پاليدو على مُعلّمه في المهارات، فما كان منه إلّا أن جرّب تلك المهارات على مُعلّمه. والتهم قلب الكاهن بينما هو لا يزال يخفق، إذ قرأ پاليدو أن القسوة قد تغدو أضعافًا إذا التهم المرء قلبًا. من المؤكّد أنه قد أحسّ بظلمةٍ أشدَ وأشدَ فسادًا بعد تلك الوجبة، وزادت قسوته مدعومةً بتزمّت الكاهن وحميته الإرسالية.

ذات ليلة، تفوّق پاليدو على نفسه في ما فعل بأحد الضحايا، حتى لم تحتمل عيناه رؤية أفعاله أطول مما رأتها، فسقطت عيناه من محجرَيهما كما تسقط الفاكهة الناضجة. وهكذا شقّ الرجل الشاحب راحتيه حتى يتسنّى له أن يرصّعهما بعينَيه من ذلك الحين. ثبت له أن عينَيه قد تكونان عقبة هائلة في أثناء الصيد أحيانًا. ولقد تمكّن ثلاثة أطفال من الهرب لأن عينَيه قد خذلتاه. ومع ذلك، أبقى الرجل الشاحب اسمي اثنين منهما منقوشين على جدرانه. أما الثالث، فطمس اسمه. كان فتى نحيلًا، لا يتجاوز السادسة، اختطفه من قرية تقع جنوبي الغابة، يُدعى سيرافين أبيندانيو... أزال الرجل الشاحب اسمه عن الجدران بالإزميل، ولكنه لم يقدر على نسيانه قطّ.

لطالما استخدم آكلُ الأطفال في قتل ضحاياه خنجرًا فضيًا له مقبض من ذهب، أداة استثنائية في الجمال والحذة، امتلكها طوال ما يربو على الثلاثمئة عام. كانت هدية من كبير مُحقّقي محاكم التفتيش، ولقد احتفظ بها الرجل الشاحب مُغلّفة بمخمل بلون الدماء داخل خزانة موصدة في جدار قاعة الطعام الخاصة به. لم يخف الرجل الشاحب

مكتبة ياسين

عن ضحاياه الموضع الذي يحتفظ فيه بالخنجر قط. لم يُخفه، وكلهم محكوم بالموت في النهاية؟

كان لسيرافين أبيندانيو ستة أشقاء أكبر منه عمرًا، يلذّ لهم أن يطاردوه ويضربوه كما فعل والدهم بهم، فتعلّم الفتى كيف يركض سريعًا ويهرب منذ صباه الفبكّر. وهكذا انسلّ سيرافين من بين يدي الرجل الشاحب بسلاسة وسرعة كثعبان الماء، وبينما كان أسرّه يلتقط عينيه، لم يكتفِ الفتى بأخذ صحن ذهبي حافل بالأطعمة من فوق المائدة الفلطّخة بالدماء، وإنما أخذ المفتاح الذهبي أيضًا، مفتاح الخزانة حيث يحتفظ الرجل الشاحب بالخنجر. وذلك كل ما استطاع سيرافين أن يفعله من أجل باقي الأسرى الأطفال الذين كانوا يبكون وينشجون في أقفاصهم تحت قاعة طعام الوحش.

أما الرواق الذي اختاره سيرافين حتى يهرب من خلاله، فتراءى بلا نهاية. وسرعان ما سمع صراخ أسره قادمًا من الخلف. في تلك اللحظة، وبينما هو ينطلق متجاوزًا الأعمدة المؤلّفة من العظام الفتراصّة على امتداد الرواق، دعا بالخير لأشقائه، مع أنه طالما ظنّهم لعنة حياته. كان خُدّام الرجل الشاحب ينظّفون بلاط الأرضية كل صباح، ولكنهم أغفلوا أثرًا من الدماء يومذاك. قفز سيرافين متجاوزًا الدماء –ذلك أن الأعوام الستة أخف كثيرًا من الأعوام الثلاثمئة والثلاثة والخمسين التي شهدها آكلُ الأطفال–بينما زلّت قدما الرجل الشاحب على أثر الدماء. راح يفتّش عن عينيه، جاثيًا على ركبتيه، في حين وصل سيرافين إلى نهاية الرواق، إلى أحد الأبواب الكثيرة التي كان آكلُ الأطفال يدخل ويخرج منها إلى الغابة.

تجاوز الفتى الباب فتعثّرًا، وصفقه من خلفه. كما

مكتبة ياسين

استطاع أن يسدّه بفرع شجرة سميك. ثم انطلق مُتوغّلًا في الغابة، مُرتجفًا من فرط الرعب والارتياح معًا. لم يدر سيرافين إلى أين هو ذاهب. لم يعرف إلّا ضرورة الابتعاد والعودة إلى قريته وعائلته بطريقة ما.

وحين ركض الفتى متجاوزًا الطاحونة، هناك حيث أغرق جنوذ أحد النبلاء امرأةً ساحرة منذ أعوام مضت، بات يحسّ بالمفتاح الذي ظلّ ممسكًا به كاللعنة. ماذا لو أن المفتاح قد يجذب مالكه إليه؟ لم ينتبه سيرافين إلى العلجوم العملاق الذي كان يراقبه حين ألقى بالمفتاح في البركة، كما لم ينتبه إلى أن لذلك العلجوم عيني رجل. لم يره الفتى وهو يبتلع المفتاح بشفتيه اللتين تكسوهما البثور. (ولكن تلك قصة أخرى).

يومذاك، هرب سيرافين أبيندانيو الذي صار في وقت لاحق فنانًا، وأمضى البقية الباقية من حياته وهو يرسم لوحات عظيمة في جمالها حتى ينير الظلمة التي رآها طفلًا.

مكتبة ياسين

39

عودة الأميرة

لم يسبق لمرثيديس أن توغّلت في عمق المتاهة قطّ، فلطالما خافت مما قد تعثر عليه، وكانت على حقّ. عرفت ذلك حين رأت أوفيليا مُمدّدة إلى جوار البئر.

تركت مرثيديس الطفل ليبدرو. يجب عليها أن تنسى والد الطفل، وإلّا فلن يمكنها أن تحبّه، والحبّ هو الشيء الذي كانوا جميعًا في حاجة ماسة إليه. راودها شعور غريب لأن امرأةً أخرى قد تركت طفلَين في عنايتها. ابتهلت مرثيديس حتى يمكنها أن ترعى الابن على الأقل، فمن المؤكّد أنها قد خذلت الابنة.

جثت على ركبتيها إلى جوار أوفيليا والألم يمزّق قلبها بشدة، وكأن الفتاة ابنتها بحقّ، بينما كانت أوفيليا تحتضر. لم تقو حتى على الالتفات برأسها إلى مِرثيديس. وإنما شخصت عيناها الغائبتان إلى الدماء على عمى، تلك الدماء التي راحت تقطر من يدها إلى جوف البئر.

وفي قاع البئر، أسبغت الدماء على ماء المطر حمرةً. ملأ المطر أشكال المتاهة المحيطة بالعمود، بينما طفت صورة القمر المنعكسة على صفحة المياه الضحلة وكأنها كرة من الفضة، كرة يليق بأميرات الحكايات الخرافية أن يفقدنها في البئر. ولكن دماء أوفيليا قد صبغت حواف تلك الكرة باللون الأحمر. وجدت بعض القطرات طريقها إلى حجر العمود الفتاكل، فطلعت أزهارٌ قانيةٌ من النقش المنحوت الذي يصوّر فتاة تحمل طفلًا.

جرت الدموع على وجهها، وبدأت مرثيديس

مكتبة ياسين

تدندن أغنية المهد التي سبق أن غنّتها من أجل أوفيليا في مرة من المرات. خفّفت الأغنية تلك الأنفاس التي راحت الفتاة تلتقطها بمشقة، وملأت الليل بذكريات البراءة، والأمل، والسعادة، بينما القمر المكتمل يدثّر أوفيليا بملاءة من الفضة. أحسّت بنوره ينعش بشرتها المحمومة وقلبها الموجوع.

أي نور ساطع!

- «قومي يا ابنتي»، أمرها صوتٌ.

لم تسمع مرثيديس الصوت. وإنما سمعته أوفيليا.

استحال نوز القمر ذهبًا سائلًا يلفّها ويربّت عليها.

بينما وجدت أوفيليا سهولة بالغة في القيام والوقوف على قدميها. أما أطرافها التي كان الموت يثقلها بشدة منذ لحظات، فباتت لا وزن لها فجأةً. وجدت أوفيليا نفسها ترتدي معطفًا بعضه أحمر قانٍ وبعضه ذهبي، صُنع من أثمن صنوف الحرير الأحمر كالدماء. أما الأشكال المطرّزة بالخيوط الذهبية، فكانت مرصّعة بكثير من الأحجار الكريمة: الياقوت والزمرد والعقيق. حتى حذاؤها كان أحمر اللون، يلائم قدميها على أكمل وجه.

تلاشى الوجع، والألم، ولمّا تلفّتت أوفيليا حولها، رأت نفسها واقفة في بهو مترامي الأطراف، حتى كاد السقف يبدو بعيدًا بُعد السماء. استقرّت في أحد الجدران نافذة من الزجاج المعشق، مستديرة وكأنها القمر في تمامه، نافذة تكسر الضوء إلى كل لون من ألوان الطيف. وأمام النافذة قامت ثلاثة عروش باهرة، تسمو فوق الأرضية الذهبية على أعمدة منحوتة وكأنها جذوع أشجار القضبان المرهفة.

رسمت شفتا أوفيليا ابتسامة كانت مفقودة منذ أمد بعيد. بينما تراءت المرأة الجالسة فوق العرش الأيسر مألوفة جدًا.

مكتبة ياسين

- «أمي!»، صاحت أوفيليا ولسانها يتوق إلى النطق بتلك الكلمة مرة أخرى.

كانت المرأة الجالسة على العرش تحمل طفلًا.

«أيكون أخاها؟».

- «أوفيليا»، ناداها الرجل الفتوّج الجالس على العرش الأوسط.

كان يرتدي خلْقةً تشبه الثياب الملكية التي رأتها أوفيليا في كتبها، كتب الحكايات الخرافية. أما وجهه، فتراءى مألوفًا لها، إنه الوجه الذي تعوّد أن يُكبّ على قطع النسيج بصبر.

- «أبي... أوه... أبي...».

- «لقد أثرتِ التضحية بدمائكِ أنت على التضحية بدماء شخص بريء»، قال بصوت رقيق تذكّرته أوفيليا عندما كان يغنّي من أجلها كي تخلد إلى النوم، قبل أن يظلم العالم. «وتلك آخر المهمات، وأعظمها شأنًا». نظر إلى زوجته.

بدت الملكة الأمّ في ريعان الشباب، وفي غاية السعادة. بينما انطلقت الجنيّات يرفرفن بأجنحتهن من حولها –الجنيّات الثلاث، كلهن على قيد الحياة! – وأقبل الفاون آتيًا من وراء عرش الملكة بجسده الذي تراءى ذهبيًا كجدران البهو. فتح ذراعَيه بابتسامة مُرحّبة، بينما تزاحمت الجنيّات حول أوفيليا، مُغرّدات في حماس.

- «ولقد أحسنت الاختيار يا صاحبة السمو!»، صاح سيّد الجنيّات حانيًا رأسه بشدة، حتى كاد قرناه يلامسان الأرض.

- «تعالي يا ابنتي!»، نادتها الملكة وهي تشير إلى العرش الثالث. «اجلسي إلى جوارنا. وانعمي بالمكان الذي يحقّ لك. لقد انتظرك أبوك أمدًا طويلًا».

مكتبة ياسين

وفي المدرّجات التي تقوم عاليًا من حولهم، هبّ الناس وقوفًا. غير أن أوفيليا ما زالت تسمع نحيب مرثيديس من خلال تصفيقهم، ودماء الفتاة المحتضرة بين ذراعيها تقطر في جوف البئر. تعزفت أغنية المهد التي راحت مرثيديس تدندنها.

وعند ذاك...

ابتسمت أوفيليا –كم كانت ابتسامتها خافتة!– ثم لم تغد قادرة على سماع المزيد.

مالت مرثيديس إلى الفتاة القتيلة وراحت تنشج حتى بلّلت الدموع شعرها الفاحم.

مكتبة ياسين

خاتمة

آثار صغيرة

بعد أن انتهت قصتنا بوقت قصير، خلت الغابةُ مرةً أخرى. مرّت بضعة أعوام، فاسترجعت الأعشاب والتربة ما تبقّى من الطاحونة.

نسي التاريخ بيدال، ولكنه نسي مرثيديس وبيدرو ودكتور فيزيرا أيضًا، وباقي أولئك الذين ضحّوا بسعادتهم، وبحياتهم أحيانًا، لمحاربة الفاشية. بينما ظلّت إسبانيا تحت حكم فرانكو طوال عقود، وخان الحلفاءُ المُتمرّدين، اعتقادًا منهم بأن المُتمرّدين لا نفع لهم في مواجهة عدو الحلفاء الجديد: الاتحاد السوفييتي.

أما أوفيليا فلقد طلعت زهرةٌ صغيرة شاحبة على غصن التينة العتيقة التي خلّصتها الفتاة من العلجوم صبيحة اليوم الذي أعقب موتها. طلعت في تلك النقطة على وجه التحديد، هناك حيث علّقت أوفيليا ثيابها الجديدة حفاظًا عليها، بينما هي تنفُذ أولى مهمات الفاون. كانت بتلات الزهرة بيضاء كالمئزر الذي صنعته أمُّها من أجلها، وفي قلب الزهرة تفتّحت شمس صفراء ملأى بحبوب اللقاح والحياة.

وبعد مضي بضعة أعوام، مرّ صائدٌ بالطاحونة المحترقة والمتاهة. لم يقدر على مقاومة الرغبة في المرور من خلال القوس الحجري، فتاه الصائد في الأروقة العتيقة حتى شعر بالقلق خشية ألّا يجد طريق الخروج أبدًا. ولكن المتاهة أرشدته إلى القوس الحجري مرة أخرى في خاتمة المطاف. أحسّ بتعبٍ شديد إلى الحدّ الذي جعله يستلقي تحت التينة التي كانت في أوج الازدهار آنذاك،

مكتبة ياسين

فتكلّلت بالأزهار والأوراق.

نام الصائد في الظلال الرقيقة، فسمع في أحلامه قصةً عن أميرة أنجبها القمر، ولكنها وقعت في حبّ الشمس. ثم عاد إلى قريته وحكى لكل من أُصغى إليه أن الشجرة العتيقة قد همست إليه بقصة تنتهي كما يلي:

«وقيل إن الأميرة موانا قد عادَت إلى مملكة أبيها، هناك حيث حكمَت بالعدل والقلب الرحيم قرونًا طوالًا. وقيل إن شعبها قد أحبّها، وإنها قد تركَت آثارًا صغيرة من ذلك الزمن، حين عاشَت على الأرض، آثارًا لا يراها سوى أولئك الذين يعرفون أين ينظرون».

لطالما كان أولئك الذين يعرفون أين ينظرون وكيف ينصتون قلةً قليلة، إنها الحقيقة. ولكن أفضل القصص تكفيها قلةٌ قليلة.

(تمّت)

مكتبة ياسين

كلمة المؤلّفة

كلنا يعرف بأمر الكتب التي تتحوّل إلى أفلام، وكم تخيّب آمالنا الصوَر الظاهرة على الشاشة لأنها لا تلائم تلك الصور الفنية التي استحضرتها القصةُ المطبوعة في أذهاننا. ولكن ماذا لو ظلب إلى كاتبة أن تعكس العملية، وأن تحوّل فيلمها المفضّل إلى كلمات؟

كان بوستر «متاهة الفاون» مُعلّقًا على جدران بيت الكتابة الذي اتُخذتْه لنفسي قبل أن يطلب مني غييرمو دِل تورو أن أحوّل صوره السحرية كلها إلى كلمات بوقت طويل. لقد اعتبرتْ «متاهة الفاون» خير مثال على أن «الفانتازيا» قد تكون شاعرية وسياسية في الوقت نفسه، وأنها الأداة المثالية حتى ندرك الواقع المفعم بالخيال لوجودنا.

وبالطبع، اعتبرتْها مهمة مستحيلة. إذ يعرف الكُتّاب إلى أي مدى قد تغدو الكلمة أداةً قاصرة، وإلى أي مدى قد تتفوّق عليها الصورة في إيصال المعاني. إن كل طبقات المعنى التي نجاهد للتعبير عنها... تلتقطها الصور بلا أدنى مشقة. والموسيقى أيضًا! الموسيقى التي يستخدمها غييرمو في أفلامه بالبراعة التي يستخدم بها الكاميرا. وكيف لي التفكير بأن في إمكاني العثور على الكلمات الملائمة لتحلّ محلّ الصوت والصورة؟

ولكنْ في المهمات المستحيلة شيئًا يجعلها عصية على المقاومة. إذ نعرف أننا سوف نندم مدى البقية الباقية من حياتنا ما لم نحاول.

بتتبُّع النصّ، لم أكتب سردًا لحوادث الفيلم. وإنما رحتُ أشاهده، ثانية تلو ثانية، صورة تلو صورة. تعرّفتُ بنسيجه، كما زاد إعجابي بناسجه وأنا أتتبّع كل الخيوط التي استعان بها. ثم أعددتُ

مكتبة ياسين

قائمة بالأسئلة، والتقيث غييرمو دل تورو على العشاء للتأكُد من قراءتي أذهان الشخصيات قراءةً صحيحة، وكذلك لفتات الفمثلين ونظراتهم، ورموز المشاهد (ما زلت أحتفظ بساق السرطان البحري الذي تناولناه صحنًا رئيسيًا على العشاء).

ومن البداية أوضح غييرمو تمامًا أنه يريد مني أكثر من مُجرّد الاكتفاء بتتبُع سرد الفيلم. ولكني لم أرغب في تغيير نبضة واحدة من نبضات الفيلم الذي أعتبر نسيجه قد غُزِل على أكمل وجه. ولذا اقترحتُ أن أضيف عشر قصص -أو فواصل، على نحو ما وصفها غييرمو- تدور في الخلفية بشأن عناصر محورية في الفيلم.

أما البقية فسحرٌ.

لقد شحرتُ وأُلهِمتُ، وعدتُ من رحلتي إلى متاهةِ الحكّاء النابغة بكنوزٍ لا تُحصى.

أوه، مهلًا يا كورنيليا! ربما كان عليّ أن أذكر شيئًا آخر: إن هذه أول رواية أكتبها باللغة الإنجليزية. يا للأشياء التي نعود بها من المتاهات...(13).

كورنيليا فونكه

مكتبة ياسين

(1) السايكلوب أوخانكانو، وكويغلي، ونوبيرو: وحوش من ميثولوجيا إقليم كانتابريا في شمال إسبانيا. (المترجم)

(2) ماكي: حركة فدائية معارضة للنظام الفرانكي (نسبة إلى الدكتاتور العسكري فرانثيسكو فرانكو) الذي قام في إسبانيا بعد الحرب الأهلية. (المترجم)

(3) أحمر: لقب شاع استخدامه للإشارة إلى اليساريين والشيوعيين. (المترجم)

(4) فاون (وينطق باليونانية واللاتينية «فاونوس»): كائن من الميثولوجيا الإغريقية والرومانية، نصف جسده لبشر ونصفه

مكتبة ياسين

الاخر لتيبس. (المترجم)

(5) كيتين: مادة يتكوّن منها الهيكل الصلب الذي يغطي أجسام الحشرات وبعض الحيوانات. (المترجم)

(6) البا «Alba»: من معانيها بالإسبانية «بيضاء». (المترجم)

(7) دو اللحية الزرقاء: حكاية من الفولكلور الفرنسي عن ثريّ مزواج، كلما تزوّج امرأةً قتلها. (المترجم)

(8) المزولة: ساعة شمسة يُعيّن بها الوقت بقياس الظل. (المترجم)

(9) أولبيدو «Olvido»: تعني «نسيان» باللغة الإسبانية. (المترجم)

(10) جدير بالذكر أن تارتا اختصار لكلمة «تارتامودو»، «Tartamudo»، التي تعني «متلعثم» بالإسبانية. (المترجم)

(11) غاليثيا: إقليم يقع شمالي إسبانيا، ويُطلّ على المحيط الأطلنطي. (المترجم)

(12) باليدو «Pálido»: تعني «شاحب» بالإسبانية. (المترجم)

(13) في البدء قدّم المؤلّف والسينمائي المكسيكي، غييرمو دل تورو، فيلم «متاهة پان» («متاهة الفاون») باللغة الإسبانية عام 2006. وانطلاقًا من ذلك العمل الأيقوني الذي أصبح علامةً فارقة في تاريخ السينما كتبت المؤلّفة الألمانية، كورنيليا فونكه، هذه الرواية باللغة الإنجليزية، فقدّمت نسخةً روائيةً أمينةً من القصة عام 2019، وأضافت إليها عددًا من الحكايات التي تدور في الخلفية، كما جاء في كلمة المؤلّفة. وحرصًا على الالتزام بمبدأ الترجمة عن اللغة الأصلية دائمًا، تجدر الإشارة إلى أن هذا العمل قد تُرجم عن الإنجليزية. وذلك مع الحفاظ على الإحالات اللغوية والتاريخية المقترنة بالثقافة الإسبانية، نظرًا إلى سياق الرواية وماجرياتها. وعلى الرغم من أن مُترجم هذا العمل قد تخصّص في الترجمة عن الإسبانية والبرتغالية، فإنه سمح لنفسه بهذا الاستثناء رغبةً منه في مشاطرة القارئ هذه التجربة الفريدة التي تُقدّم بالعربية لأول مرة. (المترجم)

t.me/yasmeenbook